جامعة القدس المفتوحة
عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

تاريخ الدولة العثمانية
(١٢٨٠ ـ ١٩٢٤م)

أ.د. تيسير جباره

جامعة القدس المفتوحة
عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

تاريخ الدولة العثمانية (١٢٨٠ ـ ١٩٢٤م)

أ.د. تيسير جباره

فلسطيني الجنسية من مواليد بلدة ترمسعيا قضاء رام الله عام ١٩٤٣م، وقد حصل على درجة البكالوريوس في التاريخ من جامعة دمشق عام ١٩٦٩م، وحصل على درجة الماجستير في تاريخ العلاقات الدولية من جامعة فيرلي دي كنسن في ولاية نيوجيرزي بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٥م، وحصل على درجة الدكتوراة في التاريخ من جامعة نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٢م؛ وكانت رسالة الدكتوراة بعنوان: "الحاج محمد أمين الحسيني ـ مفتي القدس".

تقلد المؤلف مناصب عدة في جامعات فلسطينية داخل الوطن، حيث كان رئيساً لقسم التاريخ في جامعة الخليل، ومن ثم كان رئيساً لقسم التاريخ في جامعة النجاح الوطنية بنابلس، ثم رئيساً لقسم الدراسات العليا فيها، ثم أصبح مديراً لجامعة القدس المفتوحة ـ فرع رام الله والبيرة التعليمي بين عامي ٢٠٠٠م ـ ٢٠٠٢م.

كما قام المؤلف بالتدريس في جامعات خارج الوطن حيث عمل محاضراً في قسم التاريخ بجامعة قسنطينة في الجزائر، وعمل محاضراً في قسم التاريخ بجامعة ويليام باترسون في ولاية نيوجرزي، ومن ثم عمل محاضراً في قسم دراسات الشرق الأوسط بجامعة مونت كلير في الولاية نفسها، ثم عاد المؤلف لأرض الوطن ولا يزال محاضراً في جامعة القدس المفتوحة ـ فرع رام الله والبيرة التعليمي.

وقد قام المؤلف بتأليف خمسة عشر (١٥) كتاباً في القضية الفلسطينية، وله أبحاث عدة منشورة في مجلات علمية محكمة، وقد حصل على رتبة الأستاذية عام ٢٠٠٨م.

جامعة القدس المفتوحة
عمادة البحث العلمي والدراسات العليا
رام الله ـ فلسطين
١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م





تاريخ الدولة العثمانية

(١٢٨٠ ـ ١٩٢٤م)



تاريخ الدولة العثمانية

(١٢٨٠ ـ ١٩٢٤م)

المؤلف:

أ. د. تيسير جباره

جامعة القدس المفتوحة

الناشـر:

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

جامعة القدس المفتوحة

الماصيون ـ رام اللّه / فلسطين

ص. ب: ٥١٨٠٠

هاتف: ٢٩٨٤٤٩١ – ٢ – ٩٧٠+

٢٩٥٢٥٠٨ – ٢ – ٩٧٠+

فاكس: ٢٩٨٤٤٩٢ – ٢ – ٩٧٠+

بريد الكتروني: ***sprgs@qou.edu***

تصميم وإخراج فني:

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

جامعة القدس المفتوحة



جامعة القدس المفتوحة
عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

تاريخ الدولة العثمانية

(١٢٨٠ ـ ١٩٢٤م)

أ. د. تيسير جباره
جامعة القدس المفتوحة

١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م

الإهــداء

أقدم هذا الكتاب إلى كل مسلم غيور على مصلحة المسلمين والدفاع عنهم، وإلى كل من بذل الغالي والنفيس وجاهد في سبيل وحدة المسلمين أينما كانوا في أصقاع الكرة الأرضية.

وأقدم كتابي هذا أيضاً إلى روح **السلطان عبد الحميد الثاني** الذي رفض التنازل عن شبر واحد من فلسطين للصهاينة رغم الإغراءات المادية، والذي ضحى بعرشه كسلطان للحفاظ على الأرض المباركة – فلسطين. فقال: «**لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد، لأنها ليست لي بل لأمتي**، .... **ليحتفظ اليهود بملايينهم، فإذا قسمت الإمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين دون مقابل، إنما لن تقسم إلا على جثثنا**».

كما أهدي كتابي هذا إلى أرواح الفاتحين الذين رفعوا الراية الإسلامية في أصقاع الأرض في قارات آسيا وأوروبا وإفريقيا زمن الدولة العثمانية.

شكر وتقدير

أشكر جامعة القدس المفتوحة ممثلةً بـ:

الأستاذ الدكتور/ يونس عمرو - رئيس الجامعة

على توجيهاته الكريمة لإنتاج هذا السفر العلمي التاريخي؛ كما أشكر:

الأستاذ الدكتور/ حسن السلوادي - عميد البحث العلمي والدراسات العليا

على متابعته الحثيثة حتى صدور الكتاب؛ بالإضافة لشكري إلى:

الدكتور/ سعيد عبد الله البيشاوي

الذي تفضل بكتابة التقديم لهذا الكتاب؛ كما أشكر:

الأستاذ/ كميل غالب زيد

على جهوده في تصميم الكتاب وغلافه وإخراجهما النهائي.

وأشكر **زوجتي وأولادي** الذين شجعوني على كتابة هذا السفر ووقفوا إلى جانبي وسهروا معي الليالي في ترتيب وفهرسة الكتب والأوراق الخاصة بهذا الكتاب.

ولا أنسى **السيدة/ هنيدة حشاش** التي طبعت هذا الكتاب، وصبرت كثيراً في إعادة وترتيب صفحاته، ولولا جهدها لما ظهر هذا الكتاب إلى النور.

كما أشكر **الدكتورة/ بهية الهواري والأستاذ/ علي الشيخ نمر** على تفضلهما بتدقيق الكتاب لغوياً حتى أصبح سليماً خالياً من أية أخطاء طباعية أو نحوية، لذا أقدم شكري وتقديري لهما ولكل من ساندني حتى ظهر هذا الكتاب كي يضاف إلى المكتبة العربية.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم: د. سعيد عبد الله البيشاوي

أستاذ مشارك في جامعة القدس المفتوحة

يعد الأستاذ الدكتور تيسير يونس جبارة من المؤرخين البارزين في التاريخ الحديث والمعاصر لا سيما في تاريخ فلسطين الحديث، ولا أبالغ إن قلت إنه وضع مؤلفات جمة في تاريخ فلسطين منها: «**كتاب تاريخ فلسطين الحديث**» وكتاب «**المسلمون الهنود وقضية فلسطين**» وكتاب «**وثائق فلسطينية في دور الأرشيف البريطانية**» وكتاب «**وثائق فلسطينية في دور الأرشيف اليهودية**» وكتاب «**معجم المؤرخين الفلسطينيين في القرن العشرين**» بالاشتراك مع الدكتور سعيد عبد الله البيشاوي. كما وضع كتابا عن ابن عمه «**أحمد جبارة أبو السكر**» الذي كتبه عقب خروج ابن عمه من الأسر. وشارك بوضع كتاب «**مدينة خليل الرحمن**» بالاشتراك مع عدد من المؤرخين الفلسطينيين، وأسهم الدكتور تيسير جبارة في كتاب «**الانتفاضة الفلسطينية من النواحي السياسية والإعلامية**»، كما وضع كتابا آخر بعنوان «**دور الحركات الإسلامية في الانتفاضة**»، وكتاب «**الحاج أمين الحسيني**» باللغتين العربية والإنجليزية، وكتاب «**ثورة عام ١٩٣٦م**»، هذا إلى جانب مجموعة من الأبحاث نذكر منها: «**عبد الحليم الجولاني وأحداث البراق الشريف، وجامعة المسجد الأقصى الإسلامية، ودعم المسلمين الهنود في أحداث البراق الشريف**». ويسعدني ويشرفني أن أقدم له كتاب تاريخ الدولة العثمانية الذي تطرق فيه إلى قيام الدولة العثمانية الفتية في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي/أوائل القرن الثامن الهجري وتمكنها من فتح مدينة القسطنطينية المحاطة بالمياه من ثلاث جهات بعد محاولات عدة قامت بها الدولة الأموية آخرها زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك بقيادة أخيه مسلمة

ابن عبد الملك والتي فشلت بسبب عدة عوامل منها: طول خط الإمدادات من دمشق إلى القسطنطينية، وبرودة الطقس، وخيانة البحارة العاملين في الأسطول الإسلامي، وأكل لحوم الخيل المصابة بالحمى، وانتقال الأمراض لأفراد الجيش الإسلامي، وانتقال الخلافة من سليمان بن عبد الملك بوفاة الأخير إلى عمر بن عبد العزيز.

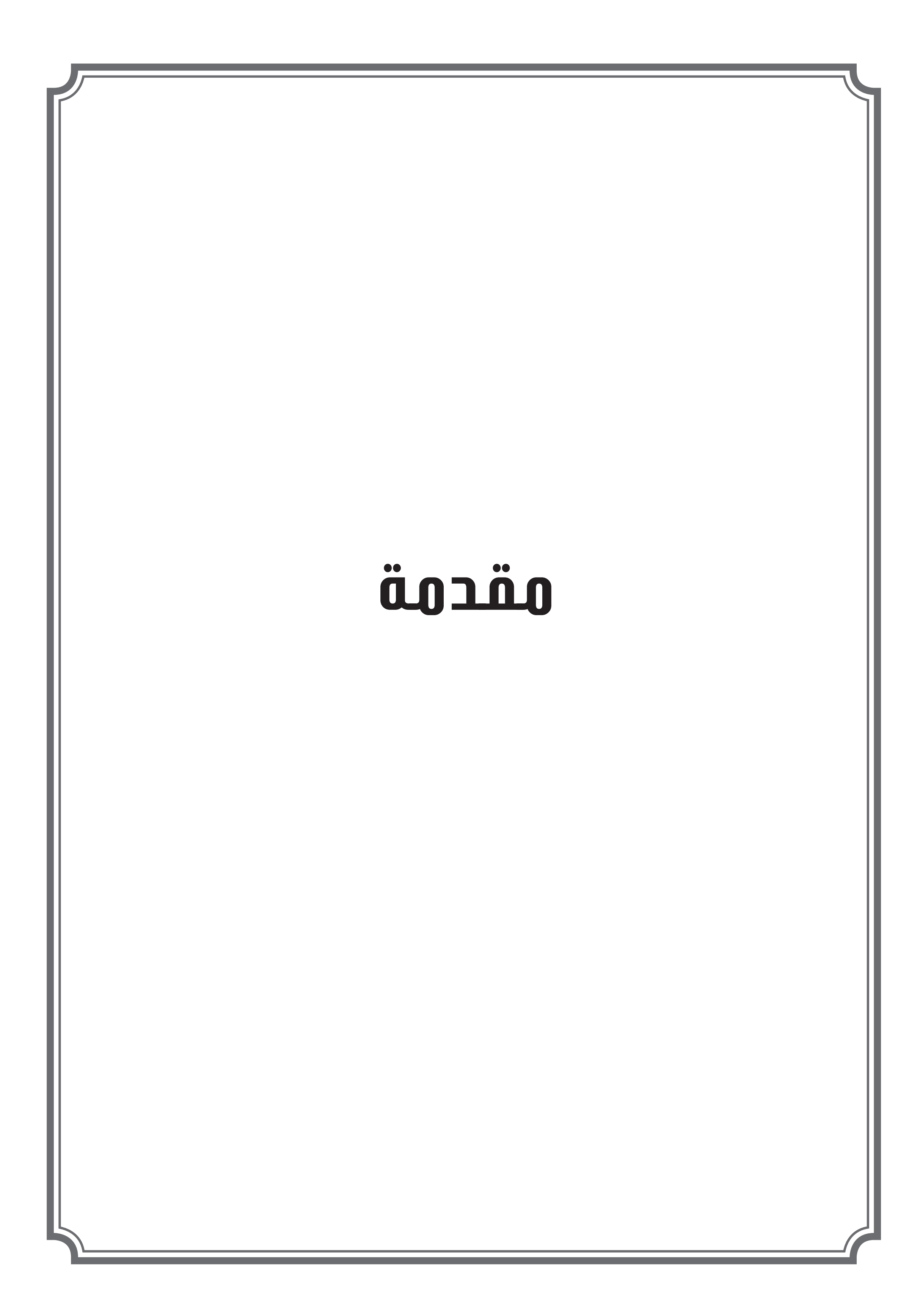
تمكن السلطان العثماني محمد الفاتح من فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م/٨٥٧هـ، واتخذها عاصمة لدولته، ونجح العثمانيون في التوسع على حساب الدول الأوروبية؛ مما جعلها هدفاً رئيساً لأحلاف وتكتلات مستمرة من قبل الأوروبيين من أجل هزيمتها وطرد المسلمين من أوروبا، وقد فشلت جهود الأوروبيين؛ بسبب قوة الدولة العثمانية.

وقد صمد العثمانيون أمام الأحلاف والتكتلات والهجمات الأوروبية، وحافظوا على وحدة الخلافة فترة طويلة من الزمن. ولكن وبحسب رأي شبنغلر وأرنولد توينبي فإن كل كيان سياسي يمر بثلاث مراحل: مرحلة الطفولة، والشباب، والشيخوخة. وهذا رأي سليم تماماً. وقد تناول المؤرخون الغربيون الدولة العثمانية بالبحث الدقيق ووصفوها بأوصاف مختلفة، منها: أنها دولة متأخرة ومستبدة، وقد افترى عليها الكثير وخاصة في نهاية عهدها وضعفها في مواجهة التحديات التي أحدقت بها واعترضت طريقها، ونعتوها بالرجل المريض، وكتبوا عنها أشياء لا تليق بها.

وجعل المؤلف لكتابه خاتمة ضمنها أهم النتائج التي توصل إليها من خلال ملاحظات واعية ودقيقة، واعتقد أنه كتاب جدير بالقراءة لما يحويه بين دفتيه من أفكار جديدة.

د. سعيد عبد الله البيشاوي

المحتويات



مقدمة

مقدمة:

تناول هذا الكتاب أصل ونشأة العثمانيين، وقيام دولتهم وتوسعها، وتناول فترات الظهور والقوة والتوسع والضعف.

قامت الدولة العثمانية على أنقاض دولة السلاجقة في بداية القرن الرابع عشر، ورفعت الراية الإسلامية في الأناضول (آسيا الصغرى) ثم البلقان (أوروبا) وفتح محمد الفاتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م، واتخذها عاصمة للدولة العثمانية.

كانت الدولة تنتقل من نصر إلى نصر باسم الإسلام والمسلمين، وشجعت الغزاة عبر الحدود وزودتهم بما يحتاجونه ونجحت في ضم أراضٍ أوروبية، وتعرضت الدولة العثمانية لوحدة الجيوش والأحلاف الأوروبية لمحاولةً كسر وطرد المسلمين من أوروبا، ولكن مساعي الصليبيين باءت بالفشل في بداية الأمر.

كتب المؤرخون الأجانب كثيراً عن الدولة العثمانية ووصفوها بأوصاف مختلفة منها دولة الرجل المريض، ووصفوها بالتأخر والاستبداد وتكاثرت عليها الافتراءات والأباطيل.

لكن الحقيقة أنها كانت حامية للأراضي المقدسة وللإسلام وهذا ما جعل الأجانب يستاؤون لعدم استطاعتهم المس بكرامة الأماكن المقدسة.

وتعرضت أيضاً لحروب البرتغاليين والأسبان والإنجليز والفرنسيين والروس ورغم ذلك نجحت في الحفاظ على وحدة الأراضي العربية ودافعت عنها.

بدأت الدولة العثمانية بالضعف التدريجي عندما ابتعد السلاطين عن قيادة الجيش واهتموا بملذاتهم الشخصية ولاحظ الأجانب ضعفها فاستعادوا أراضٍ كانت تحت السيطرة العثمانية سنوات طويلة.

تناول الكتاب تاريخ ما قبل قيام الدولة العثمانية في عشرة فصول ومقدمة وخاتمة وبعض الخرائط.

يتحدث الفصل الأول عن: أحوال العالم الإسلامي قبل نشاط الدولة العثمانية،

والفصل الثاني: فترة الظهور والتأسيس وتوسع الدولة العثمانية في آسيا الصغرى والبلقان. والفصل الثالث: بعض مظاهر الإدارة العثمانية. والفصل الرابع: محمد الفاتح وفتح القسطنطينية وسلاطين آخرين لعبوا دوراً هاماً في التاريخ العثماني. والفصل الخامس: سيطرة العثمانيين على بلاد الشام ومصر وشمالي أفريقيا ومتابعة الفتوحات في البلقان. والفصل السادس: أحوال الدولة العثمانية بعد سليمان القانوني – مرحلة الضعف. والفصل السابع: أسباب ضعف الدولة العثمانية وأهم الحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية. والفصل الثامن: الأطماع الأوروبية في الدولة العثمانية. والفصل التاسع: السلاطين العثمانيين حسب العصر وفترة الحكم. والفصل العاشر: الدولة العثمانية بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني حتى إلغاء الخلافة عام ١٩٢٤م.

تناول هذا الكتاب التاريخ العثماني بعد عام ١٩٠٩م أي بعد سقوط السلطان عبد الحميد؛ لأن السلاطين الذين جاءوا بعده كانوا عبارة عن رمز فقط، فلم يكن لهم دور سياسي، بل كانت أمور الدولة سياسياً بيد جماعة الاتحاد والترقي التركية التي كانت تحت مظلة الصهيونية العالمية، وكان القادة العسكريون الذين استلموا زمام الحكم أتراكاً يكرهون العرب والقوميات الأخرى، وكان السلاطين ألعوبة بيد القادة العسكريين الأتراك، وكان دورهم مهمشاً.

ودخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م رغم أنفها وقد هزمت مع حليفتها ألمانيا عام ١٩١٨م وسقطت الدولة العثمانية على يد الحلفاء (فرنسا وبريطانيا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية) .

وفقدت الدولة العثمانية بسبب الحرب العالمية الأولى جميع المناطق التي كانت تحكمها في أوروبا، واستقلّ عدد من المناطق في البلقان، وشكلت دولاً اعترفت بها الدول الأوروبية كلها وأصبحت أقوى حتى من الدولة العثمانية.

أطلق الأتراك اسماً جديداً على الدولة العثمانية وهو «الدولة التركية» بعد الحرب العالمية الأولى، وخاصة زمن مصطفى كمال أتاتورك الذي أصبح رئيساً للدولة التركية، وألغى الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤م وقلد الأجانب في لباسهم وعاداتهم، ولم تعترف الدول الأوروبية بالدولة التركية إلا بعد التوقيع على معاهدة لوزان وإلغاء الخلافة.

الفصل الأول

أحوال العالم الإسلامي قبل نشأة الدولة العثمانية

الفصل الأول

أحوال العالم الإسلامي قبل نشأة الدولة العثمانية

لعب المماليك دوراً هاماً في المشرق العربي وفي شمالي أفريقيا فترة من الزمن. وقد ورث هؤلاء المماليك حكم المشرق العربي بعد أن ضعفت سلالة السلطان صلاح الدين الأيوبي في الحكم وبعد حروب أهلية طاحنة ومشاحنات بين أبناء صلاح الدين، فتحت المجال أمام المماليك لحكم بقاع واسعة امتدت شمالي أفريقيا وغربي آسيا وخاصة في مناطق مصر وفلسطين ولبنان وسوريا وذلك منذ عام ١٢٥٠ – ١٥١٧م.

ونشبت حروب طاحنة أيضاً بين المماليك وبين العثمانيين انتهت عام ١٥١٧م وكانت نتيجتها إنهاء السلطنة المملوكية على يد السلطان سليم الأول العثماني عام ١٥١٧م. حيث أصبحت المناطق العربية تحت السيادة العثمانية.

ولا بد لنا من معرفة من هم المماليك؟ ومن أين جاءوا؟ وأين سكنوا؟ وللتعريف بهم نقول، أن كلمة مملوك تطلق على الشخص الذي كان يباع ويشترى من قبل تجار الرقيق الذين كانوا يذهبون إلى القبجاق والقفقاس المناطق الواقعة جنوبي روسيا للحصول على الرجال الأقوياء وكان تاجر المماليك يلقب بـ «الخواجة»، وكان المماليك يباعون في مصر.

أقام المماليك بداية في ثكنات خاصة في جزيرة الروضة (١) على نهر النيل، وقد لقبوا بالمماليك البحرية لأنهم أقاموا في جزيرة الروضة. وكانت منطقة القبجاق الممون الرئيس للمماليك البحرية، ولا مانع من تسميتهم بمماليك القبجاق نسبة إلى المناطق التي جاءوا منها. وقد استمرت تجارة المماليك حتى عام ١٣٨٢م.

ومنذ عام ١٣٨٢م وحتى عام ١٥١٧م قام التجار بشراء المماليك من منطقة القفقاس التي تحتوي على كثير من الشراكسة، الذين وصلوا إلى مصر وأقاموا في منطقة القلعة (قلعة القاهرة) وبقربها، لذلك أطلق عليهم لقب المماليك البرجية نسبة

إلى برج القاهرة. وهكذا انقسم المماليك إلى قسمين هما: المماليك البحرية والمماليك البرجية.

كان المماليك يباعون في أسواق خاصة تسمى أسواق العبيد، وكثيراً ما كان يدخل هذا السوق رجال أغنياء لانتقاء الرجال من المماليك لشرائهم، حتى أن السلطان كان يشتري المماليك ويدخلهم في مدارس خاصة لتعليمهم الدين الإسلامي وفنون القتال، وبعد تخرجهم من المدرسة كان يعتقهم أو يدخلهم في الجيش، وإذا دخل المملوك الجيش كان السلطان يمنحه إقطاعاً، أي قطعة أرض كي يفلحها ويعيش من إنتاجها. وهكذا يرتبط المملوك بالأرض يدافع عنها ويهتم بها. وقد وصل المماليك إلى أرفع مستوى في الجيش حتى أن بعضهم استلموا قيادته، وأخذوا يتحكمون في أمور الدولة وأصبح منهم سلاطين في القاهرة، نذكر منهم: المظفر قطز، والظاهر بيبرس البندقاري، والسلطان سيف الدين قلاوون، وقانصوة الغوري، وطومان باي، وغيرهم. لكن يجب ملاحظة أن ابن المملوك لا يصبح مملوكاً بل مسلماً حراً، ولكن يبقى أصله من المماليك. والحقيقة أن دخول المماليك إلى الشرق العربي يرجع إلى زمن العباسيين ثم الأيوبيين.

كان السلطان يشتري المماليك من أسواق العبيد وقد سُمّي هؤلاء المماليك بأسماء مختلفة مثل أجلاب أو جلبان أو مشتروات وكلهم مماليك السلطان. وقد انتهز السلطان الفرصة فاختار من بين هؤلاء المشتروات أو الأجلاب رجالاً أشداء لحراسته الخاصة ولذلك سموا بالحرس الخاص أو الخاصاكية. حتى أنه كان يعين من بين حرسه الخاص حكاماً لمناطق مختلفة في بلاد الشام ويمنحهم إقطاعات كبيرة ولكن لا تورث للأبناء.

وعندما يموت السلطان ويخلفه سلطان جديد، كان السلطان الجديد يقوم باختيار حرس جديد له ويشتري مماليك جدداً، لذلك سمي المماليك السابقون الذين يتبعون السلطان السابق بالقرانصة، وقد حصلت منافسات كثيرة وحسد وغيرة بين القرانصة، كان القرانصة القدامى أكثر خبرة لأنهم كانوا أكبر عمراً من مماليك السلطان الجديد الحاكم.

وكان السلطان الحاكم يستعمل أسلوباً هاماً مثل سياسة فرق تسد بين القرانصة من جهة وبين الأجلاب من جهة أخرى، لكي يبقى مسيطراً على الفريقين.

وبالإضافة إلى نشاط السلاطين في شراء المماليك فقد قام الأمراء أيضاً بشراء المماليك، وقد عرف مماليك الأمراء بالسيفية، ولكن امتيازاتهم كانت أقل من امتيازات مماليك السلاطين، وقد تعاون القرانصة مع السيفية لضرب مماليك السلطان الحاكم في عدة فترات تاريخية.

وكان مماليك الأمراء أقل شأناً من مماليك السلاطين، ولكن إذا مات الأمير فإن مماليكه ينتقلون إلى خدمة السلطان ويصبحون مماليك له ويأخذون رواتبهم منه، وربما ينتقلون إلى أمراء آخرين ولكنهم لا يمارسون أي نفوذ سياسي في الدولة.

يقول أحمد بن زنبل الذي عاصر نهاية السلطنة المملوكية: «كانت الجلبان ثلاثة ألف مملوك كلهم مشتروات الغوري... وكان قصده أن ينشيء له عسكراً من مماليكه (مشتروات) ويقطع القرانصة وهم مماليك الملوك الذي قبله، وكان يحسب حسابهم خوفاً من أن يمكروا به كما فعلوا بمن قبله» وأضاف بن زنبل عن معركة مرج دابق قائلاً: «إن جلبان السلطان الذين هم مشترواته لم يتحركوا من مواضعهم وسبب ذلك... أن الغوري أمر بأن أول من يخرج للحرب القرانصة لكون أنهم أعرف بالحرب من الجلبان وكان قصده أن تنقطع القرانصة ليكتفي شرهم خوفاً من مكرهم... فقدمهم للحرب وأخر جلبانه فعلموا مكره فتغيرت نياتهم» (٢).

وكان النشاط المملوكي في الجندية بارزاً واحتلوا الصدارة الأولى في الجيش، وقد اشتهروا أيضاً بفن العمارة ذات القباب المرتفعة والهندسة المعمارية الجميلة، وخير شاهد على ذلك آثارهم في القاهرة والمدن الأخرى في بلاد الشام ومصر. ولو أن أيامهم كانت بدون حروب لبرعوا في فن العمارة أكثر مما وصلوا عليه، ولكنهم تعرضوا للهجوم الصليبي والمغولي وازدادت الحروب التي شغلتهم عن فن العمارة والتقدم الاقتصادي ومجالات التقدم الأخرى.

عندما أخذ الخطر الصليبي يتلاشى تدريجياً عن المناطق العربية، بدأ الخطر المغولي يزداد على الشرق العربي وتركيا على يد جنكيز خان الذي توفي عام ١٢٢٧م والذي شرّد الآلاف من بيوتهم، وخلفه هولاكو في السير نحو الغرب واحتل بغداد عام ١٢٥٨م وقضى على الخلافة العباسية. وعندما كان هولاكو يزحف نحو الغرب تصدى له المماليك أمامه بزعامة المظفر قطز والظاهر بيبرس اللذين هزما المغول في

معركة عين جالوت في فلسطين عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م [٣] ، والحقيقة أن بيبرس يعتبر المؤسس الفعلي القوي للسلطنة المملوكية التي دامت على حكم المناطق العربية حتى عام ١٥١٧م. وقد أراد بيبرس أن يسبغ على السلطنة المملوكية الشرعية في الإدارة والحكم، فدعا الخليفة العباسي للإقامة في القاهرة، وقد بقي الخلفاء العباسيون يعيشون في القاهرة فترة طويلة من الزمن، وكان آخرهم المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن يعقوب الذي توفي عام ١٥٥٠م. ويجب أن لا ننسى أن منصب الخليفة في العهد المملوكي كان اسمياً لأن السلطان كان صاحب الكلمة وكانت كلمته قانوناً، هذا بالإضافة إلى أن الوظائف العسكرية كانت للمماليك أكثر من أهل البلاد ذوي الوظائف الدينية.

واجه المماليك خصمين عنيدين هما: العدوان الصليبي والعدوان المغولي، فقد سيطر الصليبيون على الشريط الساحلي الشرقي لحوض البحر المتوسط، وسيطر المغول على مناطق شرقية في المناطق العربية وحطموا بغداد، ولكن المماليك استطاعوا أن يهزموا الصليبيين في حصون كثيرة لهم كان آخرها عام ١٢٩١م، ومن أبرز هؤلاء المماليك الذين دوخوا الصليبيين بيبرس وسيف الدين قلاوون والملك الأشرف صلاح الدين خليل وغيرهم كثيرون.

ولو تفحصنا قادة السلطنة المملوكية لوجدنا أن بيبرس هو الرجل الذي رفع شأن السلطنة عالياً ونستطيع أن نعتبره المؤسس الفعلي للسلطنة المملوكية. وأما المغول فنستطيع أن نعتبر هولاكو هو المؤسس الفعلي للسلالة. وحكمت هذه السلالة أراض شاسعة امتدت عدا عن بلاد فارس إلى كل من العراق والأناضول وأرمينيا وآسيا الصغرى، علماً بأن هذه السلالة كانت سلالة وثنية بوذية.

اشتهر من هذه السلالة أيضاً الأمير قازان، الذي وصل إلى العرش عام ١٢٩٥م، وقد قام هذا بحملة مغولية شرسة على بلاد الشام عام ١٢٩٩م حيث انتصر على جيش الناصر محمد قرب حمص وتابع سيره حتى دخل دمشق وقتل فيها بلا رحمة ما ينوف على مائة ألف مسلم [٤] ، وقد وصف المؤرخ ابن كثير مؤرخ القرن الرابع عشر الميلادي هذه المذبحة في دمشق بالتفصيل. وذكر الدكتور عبد الكريم رافِق في كتابه «العرب والعثمانيون» أن قازان اعتنق الإسلام على المذهب السني فيما بعد. ثم

اعتنق بقية أفراد سلالته من المغول الإسلام وتحالفوا مع العثمانيين الأتراك [٥] . ولا يعني هذا أن جميع المغول دخلوا الإسلام.

وقبل دخول المغول الإيلخانيين الإسلام كانوا قد أقاموا علاقات طيبة مع الصليبيين لمجابهة المماليك، وعندما انهارت هذه السلالة الايلخانية المغولية ظهرت سلالات مغولية متنازعة فيما بينها حتى ظهر رجل قوي من المغول هو أمير سمرقند واسمه تيمورلنك الذي أعلن تمرده على حكام مغولستان عام ١٣٦٩م وهو ليس بمسلم.

وقد جهز تيمورلنك جيشاً عرمرماً اتجه به غرباً حيث احتل بلاد فارس والعراق والقفقاس وشرقاً حتى وصل إلى خوارزم وشمالي الهند.

احتل تيمورلنك دمشق عام ١٤٠٠م وهزم العثمانيين عام ١٤٠٢م، وقد وصف ابن تغري بردي الأتابكي المذبحة التي ارتكبها تيمورلنك في دمشق وصفاً مسهباً حيث خلّف فيها الدمار وآلاف القتلى. وبوفاة تيمورلنك عام ١٤٠٣م انهارت إمبراطوريته المترامية الأطراف. ونستطيع القول أن المنطقة الغربية من قارة آسيا ثم مصر قد تعرضت إلى حروب طاحنة اشترك فيها المغول والفرس والمماليك والروم وغيرهم.

حكمت الأسرة المملوكية في مصر من عام ١٢٥٠– ١٥١٧م، واتسعت الرقعة التي تديرها حتى شملت المشرق العربي، ولكن الظروف لم تساعد المماليك كي يستمروا في حكم المناطق العربية وذلك لظروف سياسية واقتصادية أدت إلى انحطاط الأسرة المملوكية، **وأهم هذه الأسباب**:

١. العامل السياسي أو العسكري:

إن العامل العسكري من العوامل الهامة لرفع أو تحطيم أي دولة في العالم لأن الجيش هو عمود الدولة، فإذا ضعف الجيش تقهقرت الدولة، وقد ضعف الجيش المملوكي عندما دخله مماليك شراكسة دون تدريب. حتى أن بعض هؤلاء المماليك وصلوا إلى مراتب عسكرية عليا وهامة دون استطاعته حتى استعمال السلاح. أضف إلى ذلك أن الجيش المملوكي لم يقم بحروب هامة فترة طويلة من الزمن أي منذ عام ١٤٠٠م وحتى عام ١٥١٦م، فأصبح الجندي المملوكي خاملاً لا يحسن استعمال السلاح، انصرف بدلاً عن ذلك إلى الاهتمام بالتجارة وبناء الدكاكين حول الثكنات

العسكرية لذا انعدمت روح الجندية، كما أهمل الجندي التمارين التقليدية اليومية وخاصة الفروسية وكرهوا استعمال الأسلحة النارية، واعتبر المماليك استعمال الأسلحة النارية مخالف للشريعة الإسلامية لأنها أسلحة الشيطان، وخير دليل على كرههم استعمال الأسلحة النارية نراه من اللقاء والمحادثة التي جرت بين السلطان سليم الأول العثماني والأسير المملوكي كرتباي (قرطباي) عندما دخل سليم مصر، فقال الأسير كرتباي للسلطان سليم «لو بُلي واحد منا بعسكرك لأفناه وحده وإذا لم تصدق جرّب أمر عسكرك أن يتركوا ضرب البندق فقط... » وقال أيضاً «... أنت أتيت لك عساكر من أطراف الدنيا من مصاري ومن روم وغيرهم وجئت بهذه الحيلة التي تحيلت بها الإفرنج لما أن عجزوا عن ملاقاة عساكر الإسلام وهي هذه البندقية التي لو رمت بها امرأة لقتلت بها كذا إنساناً ونحن لو اخترنا الرمي بها ما سبقتنا إليه ولكن نحن قوم لا نترك سنة نبينا محمد صلى **الله** عليه وسلم وهو الجهاد في سبيل **الله** بالسيف... » (٦) .

ونستنتج من هذا الكلام أن الجندي المملوكي كان قد تدرب على الفروسية واستعمال السيف وأن استخدام الأسلحة النارية في نظره هو مخالف للشريعة ولسنة النبي محمد صلى **الله** عليه وسلم وخاصة لأن الإفرنج الصليبيين استعملوا الأسلحة الشيطانية وهي الأسلحة النارية. وكلام المماليك هو مخالف للإسلام الذي يقول «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» صدق **الله** العظيم. ولا ننسى أن العثمانيين المسلمين استعملوا الأسلحة النارية وانتصروا على الفرس في معركة جالديران عام ١٥١٤م وانتصروا على المماليك في معركة مرج دابق عام ١٥١٦م.

٢. العامل الاقتصادي:

إن العامل الاقتصادي كان أيضاً من العوامل الهامة التي أدت إلى انحطاط دولة المماليك، ويرجع العامل الاقتصادي إلى نقص الموارد والخيرات في مصر بسبب الانخفاض المتكرر في منسوب مياه النيل، وانتشار الطاعون، وهجوم تيمورلنك على بلاد الشام وما أحدثه من دمار في الاقتصاد والحياة البشرية، أضف إلى ذلك فرض مبالغ من المال من قبل جماعات متسلطة على الفلاحين بحجة حمايتهم ولذلك ابتزوا أموالهم وهذا أدى إلى التأخر الاقتصادي ونقص في الموارد الحياتية. أضف إلى كل ما سبق تحول طرق التجارة عن مصر وذلك بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء

الصالح فأصبحت الطريق التجاري مع أوروبا لا تمر بمصر وهذا أضعف الاقتصاد المصري، ثم إن التجارة البرتغالية أخذت تنافس التجارة المصرية نتيجة تحول الطريق التجاري عنها.

ذكرنا فيما سبق أن المماليك قد لعبوا دوراً هاماً في حياة العثمانيين من حيث الاحتكاك بهم ومن حيث قيام دولة آل عثمان على أنقاض دولة المماليك.

الأناضول قبل قيام الدولة العثمانية:

كانت منطقة الأناضول (تركيا) تحتوي على كثير من الغزاة والمتطوعين المسلمين الذين سكنوا على الحدود الإسلامية – البيزنطية وذلك للدفاع عن حدود الديار الإسلامية، وكان هؤلاء الغزاة منهم من سكن في قرى، ومنهم من كان يرغب السكن في خيام كالبدو، ومنهم من سكن في المدن القريبة من الحدود. وقد كثر في هذه المناطق الصوفيون والشيوخ الذين كانوا على صلة وثيقة بالغزاة. وعندما كان هؤلاء الغزاة يهاجمون البيزنطيين ويضمون أراضٍ لهم، كان بعض البيزنطيين يهرب أمام الغزاة والبعض الآخر يبقى تحت الحكم الإسلامي، حتى أن بعض هؤلاء البيزنطيين دخل الإسلام عن طوع وعدم إكراه وذلك لأن معاملة المسلمين للبيزنطيين المسيحيين كانت جيدة، فلم يهدم الغزاة الكنائس المسيحية ولم يتدخلوا بشؤون حياتهم اليومية.

وقد تشكلت إمارات إسلامية في الأناضول ترجع إلى عائلات إسلامية فضّلت الإقامة في المناطق الحدودية بدلاً من أن تبقى بعيدة، ومن هذه العائلات عائلة آيدين قرب أزمير، واشتهر منها عمر بك الذي أصبح له أسطول بحري قوي، وسكن إلى الشمال من أزمير عائلة صاروخان وشكلت إمارة في مانيسا، وعائلة قره صي التي سكنت في بلقاصير وقد وصلت حدودها حتى بحر مرمرة ومضيق البوسفور، وهناك أيضاً عائلة عثمان التي سكنت بين مدينتي أسكي شهر وأزنك.

هوامش الفصل الأول:

١. جزيرة الروضة: هي حي في القاهرة، تعرف بجزيرة الروضة أو جزيرة الفسطاط لأن موقعها أمام الفسطاط، وتعرف بجزيرة مصر أيضاً، وتعرف بجزيرة الحصن لأن أحمد بن طولون بنى فيها حصنه. بنى بدر الجمالي في العصر الفاطمي حديقة سماها الروضة. بنى في الجزيرة على مر الأيام الأمراء والوزراء والخلفاء حصونهم وقصورهم وجنائنهم على جزيرة الروضة. وقد بنيت عليها أيضاً قصور لأسرة محمد علي باشا ويربط جزيرة الروضة بالقاهرة خمس جسور. أنظر جزيرة الروضة Arz. m. wikipedia. org/wiki/

٢. عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت. ص ١٧.

٣. Shaw: History of The Ottoman Empire & Modern Turkey. 1280 – 1808. p. 8..

٤. نقولا زيادة: دمشق في عصر المماليك: مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت سنة ١٩٦٦م، ص ٢٧. انظر أيضاً البداية والنهاية في التاريخ لابن كثير. ج ١٤، ص ٦ – ٢٥.

٥. عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون ١٥١٦ – ١٩١٦م مكتبة ومطبعة السروجي، عكا، ١٩٧٨م، ص ١٥.

٦. عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر في الفتح العثماني ١٥١٦ – ١٧٩٨ حتى حملة نابليون بونابرت. ط ٢، دمشق، ١٩٦٨م، ص ٢٢.

الفصل الثاني

فترة الظهور والتأسيس وتوسع الدولة العثمانية

في آسيا الصغرى والبلقان

الفصل الثاني

فترة الظهور والتأسيس وتوسع الدولة العثمانية
في آسيا الصغرى والبلقان

قيام الدولة العثمانية:

انتهت دولة السلاجقة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) ، وظهرت مجموعة إمارات في الجهة الغربية من الأناضول (آسيا الصغرى) على الحدود البيزنطية، وقد تأسست هذه الإمارات المسلمة نتيجة الغزوات الإسلامية في آسيا الصغرى ضد البيزنطيين، وعرفت هذه الإمارات بإمارات الغزاة، وكانت إمارة عثمان إحدى هذه الإمارات، وقد استطاعت إمارة عثمان خلال قرن من الزمن أن تسيطر على كافة بلاد الأناضول في آسيا الصغرى والبلقان في الجهة الشرقية من أوروبا وأن تنشئ دولة إسلامية مترامية الأطراف هي الدولة العثمانية.

كيف تأسست هذه الدولة؟ :

هناك روايات كثيرة تناولها المؤرخون عن نشأة الدولة العثمانية، **فقد روى بعض المؤرخين عن جذور الدولة العثمانية وشرح مفصلاً عن كيفية تأسيسها:**

١. فهناك رواية عثمانية وردت في الكتب التركية كانت بدايتها في القرن الخامس عشر الميلادي وتقول الرواية أن قبيلة تركية هربت أمام الزحف المغولي من أواسط آسيا إلى الغرب وسكنت في الأناضول، وكان قائد هذه القبيلة يدعى سليمان وهو والد أرطغرل وجد عثمان الذي سميت الدولة العثمانية باسمه، وتقول هذه الرواية أن أصل هذه القبيلة ترجع إلى قوم الغز أو (الأوغوز) ، والغز نسبة إلى أوغوزخان وهو أحد أفراد شجرة عائلة آل عثمان التي ينتهي أصلها في نوح. وتضيف الرواية أن

سليمان والد أرطغرل عندما هرب من ضغط المغول متجهاً إلى بلاد الروم غرباً سلك طريق نهر الفرات فغرق في النهر ومات قرب قلعة جعبر وهي القلعة الواقعة ضمن الحدود السورية ويحرسها اليوم جنود أتراك [١] . وقد خلف سليمان في حكم القبيلة ابنه أرطغرل ثم عثمان، وكان جد سليمان سلطاناً على بلاد ماهان في تركستان، وهي البلد التي اشتهر منها أبو مسلم الخراساني، وربما أرادوا بهذه الرواية رفع شأنهم لأنهم ينتسبون إلى نفس البلد التي جاء منها أبو مسلم الخراساني المعروف تاريخياً.

٢. وهناك رواية عربية عن أصل العثمانيين وترجع إلى النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي رواها علي بن حسن الشهالي، حيث قال: إن عثمان بن طغرل بن سليمان هو أول سلاطين الدولة العثمانية، وكان جد سليمان من القبائل التركمانية الرحالة النزالة أي البدو.

٣. وهناك رواية رواها القطبي قائلاً أن بني عثمان هم من عرب الحجاز أو من المدينة المنورة.

٤. وهناك رواية تقول أن أصل العثمانيين يرجع إلى سليمان شاه وهو من قبيلة قايي، وكان سليمان يحكم في ماهان شمالي إيران في القرن الثاني عشر الميلادي، وقد هرب من وجه المغول للغرب مع آلاف الأتراك القادمين من وسط آسيا وقد غرق عند نهر الفرات، وبعد زوال الخطر رجع ولدان له للشرق إلى خراسان حيث خضعا للمغول، أما الابن الثالث فتوجه للغرب وهو أرطغرل الذي سكن في الأناضول وشكل الدولة العثمانية، وعمل أرطغرل على ضم كثير من الاتباع من السلاجقة وتصدى للمغول واعترف به سلطان السلاجقة في بغداد وأعطاه إقطاعات كثيرة، وعندما توفي عام ١٢٨٠م استلم أمور القبيلة بعده ابنه عثمان مؤسس الدولة العثمانية [٢] ومن ذاك التاريخ يبدأ تاريخ الدولة العثمانية.

٥. وقد تصدى المؤرخ بول وتيك [٣] P. Wittek المتخصص في تاريخ أصل آل عثمان للرواية العثمانية ونفاها جملة وتفصيلاً وقال: إن السلاجقة حكام بغداد هم الذين أرسلوا سليمان بن قتلمش في القرن الحادي عشر الميلادي إلى آسيا الصغرى وذلك بقصد تنظيم فتوحات الغزاة وحروبهم ضد الروم، وربما أن السلاجقة بعثوا سليمان بن قتلمش للتخلص منه، وقد استقر سليمان في مدينة (نيقية) ، ولكن عندما

احتلها الصليبيون عام ١٠٩٧م رجع سليمان هارباً إلى بغداد كي ينتقم من أبناء عمومته السلاجقة فقتل أثناء عودته في الطريق وغرق ابنه قيليج أرسلان في نهر الخابور شمالي العراق، ويقول وتيك Wittek أن سليمان بن قتلمش ليس هو سليمان أبو أرطغرل حسب الرواية العثمانية، وكذلك ليس من ماهان وإنما من سلاجقة بغداد، والظاهر أن العثمانيين ذكروا في روايتهم أن أصله من ماهان كي يعطوه شهرة، لأن ماهان ولد فيها أبو مسلم الخراساني، وكان أفضل للعثمانيين أن يرجعوا نسبهم إلى قريش التي منها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ولكنهم أرجعوا أصلهم إلى قبائل تركية آسيوية، ولكن مفتي الدولة العثمانية لطفي باشا كتب مذكرة يرجع تاريخها إلى عام ١٥٥٤م أرجع فيها نسبهم إلى قريش. وهذا الادعاء غير صحيح لأن الأتراك أنفسهم لم يذكروا ذلك [٤].

٦. وهناك رواية عن أصل العثمانيين ذكرها المؤرخ جيبونز فنفاها المؤرخ التركي محمد فؤاد كوبريللي [٥]، وبيّن الخطأ فيها. فقال جيبونز أن أصل العثمانيين بدو هربوا أمام زحف المغول بقيادة هولاكو إلى آسيا الصغرى، وأن عثمان لم يكن مسلماً بل أسلم فيما بعد عندما احتك ببعض الشيوخ المسلمين، فتصدى لهذه الرواية كوبريللي قائلاً: «إن العثمانيين مسلمون، وإنهم ليسوا بدواً، وإنهم لم يهربوا من وجه المغول».

٧. وهناك رواية أخرى تقول: إن العثمانيين أتراك دخلوا آسيا الصغرى في الثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلادي وإنهم كانوا يشكلون قبيلة تركية متنقلة في وهاد الأناضول. شاهدت هذه القبيلة أثناء تنقلها جيشين يقتتلان، فساعدت الجيش الضعيف الذي كاد يلقى هزيمة محققة وكان انضمام هذه القبيلة التركية إليه سبباً في انتصاره. وبعد المعركة تبين أن الجيش الضعيف كان من بني جلدتهم الأتراك السلاجقة، أما الجيش القوي فكان الجيش المغولي بقيادة ابن جنكيز خان. وتقديراً ومكافأة لبني عثمان قام سلطان السلاجقة علاء الدين الأول فأهدى القبيلة العثمانية أرضاً واسعة على الحدود البيزنطية، ولم تكتف هذه القبيلة العثمانية بهذه الأرض بل بدأت تتوسع في الفتوحات في أراضي الدولة البيزنطية، وكان على رأس هذه القبيلة التركية العثمانية أرطغرل، وحصل على لقب من السلاجقة هو (أوج بكي) أي محافظ الحدود. ضمّ أرطغرل أراضٍ واسعة واحتل مدينة أسكي شهر التي تقع في الجزء الغربي

من إقليم الأناضول الأوسط، على نهر بورصوق، ثم ضم أراضٍ أخرى. وتوفي أرطغرل عن عمر يناهز ٩٣ عاماً ودفن في مدينة سوكود، التي كانت مقراً له، وخلفه في قيادة القبيلة ابنه عثمان عام ١٢٩٩م الذي سميت الدولة فيما بعد باسمه (٦) .

وتذكر الكتب التاريخية أن أصل العثمانيين مسلمون، وأن الإسلام عندما بدأ وانتشر في بلاد الشام، ظهرت جماعات مسلمة غيورة على الإسلام، ومتطوعون للدفاع عن الحدود الإسلامية فسكنوا على الحدود الإسلامية البيزنطية وبدأوا في غزواتهم المتكررة على الأعداء كل يوم؛ وذلك بقصد الدفاع عن دار الإسلام والحدود الإسلامية، ولو نظرنا إلى انتشار الإسلام بين الأتراك لقلنا إن الإسلام بدأ ينتشر تدريجياً منذ قام القائد المسلم قتيبة بن مسلم الباهلي- في أثناء خلافة سليمان بن عبد الملك الأموي- بفتح حصون المشرق مثل بخارى وسمرقند ومرو وغيرها من بلاد الترك عام ٧١٧م وقد أسلم كثير من الأتراك زمن العباسيين عندما أسلم زعيمهم قره خان عام ٩٥٤م.

وأدت هجمات الغزاة المتكررة على البيزنطيين واختراق الحدود البيزنطية، أن قرر الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجنيس ضرب الغزاة وتأديبهم والحد من هجومهم المتكرر، وأثناء سيره لضرب الغزاة تصدى له السلطان السلجوقي ألب أرسلان، سلطان بغداد للدفاع عن الغزاة. وقد انتصر السلطان السلجوقي على الإمبراطور البيزنطي في معركة ملاذ كرد أو منزيكرت عام ١٠٧١م حتى أن الإمبراطور البيزنطي رومانوس وقع أسيراً في أيدي السلطان السلجوقي ألب أرسلان. ورغم وقوع الإمبراطور أسيراً إلا أن ألب أرسلان لم يسيء إليه، بل أطلق سراحه؛ لأن ألب أرسلان كان مشغولاً في حربه مع أبناء دينه المسلمين وهم الفاطميون في القاهرة. ونستطيع القول إن هذا النصر الذي حققه السلطان السلجوقي قد شجع الغزاة على الاستمرار في تحديهم للبيزنطيين، وزيادة هجماتهم خارج الحدود الإسلامية، وبعملهم هذا أقلقوا وأخافوا حكام بيزنطية، وقد ازداد عدد الغزاة بسبب دخول عناصر تركية إلى الأناضول وبخاصة بعد قيام السلطة السلجوقية في بغداد.

كانت معركة ملاذ كرد قد شجعت الغزاة على زيادة غزواتهم، وقد تجمع الغزاة في الأناضول حول أسرة قوية تدعى الدنشماند، وكانت هذه الأسرة قد شكلت إمارتين: الأولى حكمت في سيواس منذ (١٠٧١- ١١٧٤م) والأخرى في ملاطيا (١١٤٢-

١١٧٧م) ، وتأسست هناك إمارات أو دول أخرى مثل إمارة منكوجك وإمارة بني سلدق وغيرها، وكانت كلها تجاهد ضد البيزنطيين تحت حماية سلاجقة بغداد (٧) .

وعندما علم سلطان السلاجقة في بغداد بتشكيل عدة إمارات في الأناضول، أرسل سليمان بن قتلمش كي ينظم تشكيل هذه الإمارات الإسلامية ويشرف عليها (٨) . وذكرنا من قبل أن سليمان قرر الرجوع إلى بغداد؛ لأنه أراد الانتقام من السلطان السلجوقي في بغداد بسبب هذه الحيلة وهي إرساله إلى الأناضول للتخلص منه، وقد قتل سليمان في الطريق وغرق ابنه في النهر فبقي بعض أفراد الأسرة في الأناضول حيث استقروا مجبرين في آسيا الصغرى واتخذوا قونية عاصمة لهم وعرفوا منذ ذاك الوقت بسلاجقة الروم تمييزاً لهم عن سلاجقة بغداد.

كان سلاجقة بغداد قد اتبعوا سياسة جديدة في عملية التوطين في الأناضول، حيث كانوا ينظرون إلى أقوى العشائر عدداً ويقسمونها إلى أقسام كثيرة، وكل قسم يسكن في مكان بعيد عن الآخر علماً بأنهم من نفس الأسرة، خوفاً من خطر العصيان الذي يمكن أن يعلنه رئيس العشيرة، وقد سميت هذه السياسة بسياسة التفتيت ثم التوطين.

ذكرنا أنه تأسست في آسيا الصغرى عدة إمارات، كان أهمها إمارة الدنشماند في سيواس وإمارة سلاجقة الروم في قونية، وبعد تشكيل إمارة سلاجقة الروم بدأ الصراع بين هذه الإمارات وتركوا العدو المشترك وهو العدو البيزنطي الذي يتربص بهم. وكانت إمارة سلاجقة الروم في قونية أقوى من إمارة الدنشماند بسبب انضمام كثير من علماء المسلمين إلى قونية. وقد استغل البيزنطيون هذا التفكك فهاجموا الإمارتين عدة مرات وضعفت نتيجة ذلك إمارة الدنشماند، فتشجع أمراء قونية وضموا إمارة الدنشماند لهم كما ضموا الإمارات الصغيرة الأخرى لهم عام ١١٨٠م، وكان القصد من ضم هذه الإمارات إلى قونية هو توحيد هذه الإمارات كلها لمواجهة الخطر البيزنطي، لذلك أصبح هنالك توازن في القوى إلى حد ما بين إمارة قونية والبيزنطيين، ثم حدث تصدع في الجبهة البيزنطية عام ١٢٤٠م، عندما هاجمت الحملة الصليبية الرابعة القسطنطينية عام ١٢٤٠م وحصل صدام بين البيزنطيين والحملة الصليبية الرابعة، لا داعٍ للدخول في تفاصيلها.

وجاء خطر جديد من الشرق هو الخطر المغولي الذي هدد الإمارات الإسلامية في الأناضول، وهدّد البيزنطيين أيضاً. وكانت نتيجة الزحف المغولي نحو غربي آسيا هروب قبائل تركمانية إلى آسيا الصغرى. وأخذت هذه القبائل التي التجأت إلى الأناضول تمارس حياة الغزو كغيرهم من قبائل الغزو التي استقرت على الحدود، وقد أدى تسرب هؤلاء الغزاة إلى آسيا الصغرى إلى صدام مسلح بينهم وبين سلاجقة الروم في قونية بدلاً من الترحيب بهم، وفي عام ١٢٤٣م هاجم المغول سلاجقة الروم في قونية وأخضعوها لهم، وهكذا وقعت قونية تحت الاحتلال المغولي فترة قصيرة. ولا يعني هذا الاحتلال أن نشاط الغزاة قد توقف بسبب احتلال المغول لقونية، بل الصحيح أن الغزو قد ازداد؛ لأن الغزاة قد تأثروا بنشاط رجال الطرق الصوفية الذين أخذوا يحمسون الغزاة المسلمين للتوجه نحو الحدود البيزنطية وتأدية واجبهم الديني اليومي وهو الغزو. ولا يعني أيضاً أن احتلال المغول لقونية هو سيطرة المغول على كل الأناضول، بل إن الإدارة العسكرية المغولية لم تستطع السيطرة الكاملة على كل المناطق في الأناضول ولا حتى على المناطق التي خضعت لهم، فمثلاً لم تشعر المناطق الجبلية بالحكم المغولي ولا حتى المناطق البعيدة عن الطرق الرئيسية.

ذكرنا أن هناك إمارات تشكلت في الأناضول، ولم تكن هذه الإمارات سياسية نجمت فجأة في أوائل القران الرابع عشر الميلادي على أنقاض الدولة السلجوقية المنقرضة كما كان يظن، ولكنها قوى محلية استفادت من تفكك الإدارة الإيلخانية (المغولية) وتسامحها. فظهرت بالتدريج في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي وكانت أدوارها التاريخية تطول أو تقصر بحسب مواقعها الجغرافية من ناحية وبحسب قدرة حكامها من ناحية أخرى، ومن بين هذه الإمارات اخ ثم توسعت بفضل ما استولت عليه من بيزنطية الدولة، التي قادتها الكوارث الداخلية والخارجية إلى الانهيار، إمارات كرميان ومنتشا وايدين وصاروخان وقره صي وعثمانلي (٩) . وقد استطاعت إمارة عثمان من بين ست عشرة إمارة تركية أو أكثر أن تصبح دولة مترامية الأطراف خضعت لها شعوب كثيرة واتسعت رقعتها وعاشت من عام ١٢٨٠ – ١٩٢٢م وجمع سلاطين هذه الدولة في أيديهم السلطتين الزمنية والروحية ودعي لهم على منابر العالم الإسلامي بطول العمر، وقد ورثت هذه الدولة حضارات الدولة التركية في الأناضول وحضارة المماليك والفرس وتأثرت بالبيزنطيين والصقالبة وغيرهم.

الأوضاع الاجتماعية في الأناضول في الوقت الذي ظهر فيه العثمانيون:

كانت الحياة الاجتماعية لأتراك الأناضول في القرن الثالث عشر الميلادي تقوم على ثلاث مجموعات يتشكل منها مجتمع دولة السلاجقة، وهي:

١. **البدو**: كانوا يعيشون حياتهم اليومية معتمدين على تربية الحيوانات، وصناعة السجاد، ويدفعون الضرائب العينية التي تتناسب مع كمية ما تملكه العشيرة من القطعان، وكانت الدولة السلجوقية تعفي العشائر التي تقيم على الحدود من الضرائب لغايات عسكرية؛ لأن هذه العشائر كانت تلتحق بالجيش بناءً على رغبة الدولة؛ ولم يكن يتخلف الأطفال ولا النساء عن حمل السلاح، بل كان الجميع يقدمون خدماتهم العسكرية، ولكن إذا لاحظت العشائر البدوية خللاً في جهاز الإدارة التابع للدولة فإنها تنقلب إلى عناصر فوضوية مخربة تهاجم القرى والمدن الضعيفة غير المحصنة، وقوافل التجار وتسلبهم وتنهبهم وتعمل القتل فيهم. وكانت الدولة تخشى هؤلاء البدو فكانت تعمد إلى توظيف أحد رجالاتهم وتلحقه بجهاز الإدارة كرهينة؛ خوفاً من قيامهم بالشغب. ورغم ذلك فقد قام البدو بثورات متتالية على السلاجقة وخاصة ثورة بابا إسحق أو بابا رسول الله الذي نجح في ثورته، حيث سار الآلاف نحو القرى والمدن واستولوا عليها، حتى أن السلطان السلجوقي رأى أن العاصمة قونية ليست بمأمن من سطوتهم فلجأ إلى إحدى القلاع هرباً من بطشهم. ولكن جيشه استطاع أن يقبض على قائد ثورة البدو وتم شنقه أمام جموع كثيرة من التركمان عام ١٢٤٠م [١٠].

٢. **أهل القرى**: تشكل القرى الغالبية العظمى في حياة الأناضول، فسكان القرى هم أكثر عدداً من البدو ومن أهل المدن، وإذا تفحصنا سكان القرى في الأناضول وجدنا أن سكان القرية يشكلون أحياناً وحدة واحدة متماسكة، فقد يكونون عائلة واحدة أو أبناء عمومة في وحدة سكنية واحدة. وقد مر على الأناضول نقص في عدد السكان بسبب الحروب الطاحنة على أرضها بين المسلمين والبيزنطيين والفرس، لذلك اضطرت قرى بكاملها إلى الهجرة من الأناضول حفاظاً على سلامتها من ويلات

الحروب. وحدثت أيضاً هجرات معاكسة في وقت السلم فجاءت قبائل من تركستان كانت تعيش في بلدها الأصلي حياة قروية فأكملت حياتها على أرض الأناضول حياة ريفية. ورغم تقلب الحكم على بلاد الأناضول إلا أن حياة القرية وسكانها بقوا يفلحون الأرض لكسب معيشتهم ويدفعون الضرائب المفروضة عليهم.

٣. **الحياة في المدن**: تميزت الحياة في مدن الأناضول بالتجارة والصناعة، وبسبب موقع الأناضول على الطريق التجاري البري الوحيد الذي يربط بين آسيا وأوروبا، فقد استفادت المدن في تركيا كثيراً. وقد كانت المدن تشهد حياة تجارية وصناعية هامة. وتعتبر التجارة في عهد السلاجقة أكثر نشاطاً منها في عهد المغول. وكانت مع الطليان أكثر منها مع غيرهم من الشعوب الأخرى.

ورغم التسامح الذي كان زمن السلاجقة بين الملل والطوائف الدينية، إلا أن كل ملة سكنت وحدها، فمثلاً كنت ترى أحياء خاصة بالمسلمين وأحياء خاصة بالمسيحيين وأحياء خاصة باليهود. وأهم المدن التي لعبت دوراً سياسياً وتجارياً في تركيا هي: سيواس وأرضروم وطرابزون وقيصرية وأرزنجان وأماسيا ونيقية وقونية ونيكدة وقيرشهر وأسكي شهر وأقسران وأنقرة. وقد كانت المدن الداخلية مزدهرة أكثر من المدن الساحلية بسبب وقوعها على الطريق التجاري.

وكانت المدن تعتمد على الصناعة وعلى أرباب الحرف الذين كانوا هم عماد المدينة أكثر من اعتمادها على الناحية الاقتصادية وحتى التجارية. وكانت الصناعات تتركز في المدينة. وكان أصحاب كل حرفة أو صنعة يتجمعون في حي أو سوق واحد، وتجبى الضرائب من أصحاب الحرف في المدينة. وفي عهد المغول الإيلخانيين كانت الضرائب التي تحصّل من المدن تسمى تمغة، وكان أصحاب الحرف يتجمعون في طوائف «Corporations» تشبه إلى حد ما النقابات اليوم. واستمرت المدن تدفع الضرائب أيضاً زمن سلاجقة الروم.

حياة السلاجقة على الحدود:

أ. **الحاميات العسكرية**: أقيمت حاميات وقلاع عسكرية إسلامية على الحدود؛ للدفاع عن الدولة السلجوقية في آسيا الصغرى، وكانت أكبر هذه الحاميات والقلاع تقع غربي الأناضول على الحدود مع نيقية. وكانت الدولة

السلجوقية تعين بعض القادة للدفاع عن المواقع الساحلية سواء على ساحل البحر الأسود أو البحر الأبيض المتوسط. وكانت الدولة تعين تحت إمرة هؤلاء القادة بعض أمراء السواحل وكثيراً ما أمدت ودعمت قادة الحدود بإمدادات عسكرية وأرسلت عشائر بدوية بقيادة رؤسائها لدعم قادة الحدود وأمراء السواحل وإذا أصبح رئيس العشيرة على الحدود قوياً وانضمت له عشائر أخرى كان يحصل على لقب «أوج بكي» أي حاكم الحدود، ولكن الدولة السلجوقية كانت تضع مسؤولاً عنه من بين رجالها يلقب بـ «أوج أميري» أي أمير الحدود، وكثيراً ما كان حكام الحدود يتحدّون الحكومة المركزية ويخلقون لها المشاكل الخطرة، فكانت أعمال الغزاة على الحدود تؤدي إلى صدام مسلح بين الدولة السلجوقية والبيزنطيين.

ب. **الشعب والدفاع عن الأرض**: كانت الأراضي في مناطق الحدود مقسمة إلى إقطاعات، وكان كل غاز يأخذ إقطاعاً يورثه لأبنائه من بعده، وهذا العمل أدى إلى تحول كثير من البدو إلى حياة الزراعة وشكلوا قرى في مناطق الحدود. أضف إلى ذلك أن بعض الرعايا البيزنطيين قد ترك بيزنطة وسكن في المناطق الإسلامية هرباً من الضرائب الباهظة في بلاده أولاً، وانعدام الأمن ثانياً، ودخلوا في حماية أمراء الحدود الأتراك؛ كي يأمن البيزنطي على نفسه مقابل دفعه جزية بسيطة للمسلمين. ووصل أيضاً إلى مناطق الحدود مجموعة من الدراويش المسلمين لأن هذه الأرض تابعة إلى دار الإسلام فأخذوا على عاتقهم نشر الإسلام في المناطق التي وصل إليها الإسلام، وقد اعتنقت الإسلام على أيديهم عائلات مسيحية، ومع أن نشر الإسلام كان بطيئاً إلى حد ما زمن المغول في الأناضول، إلاّ أنه استرد مركزه الممتاز في الأناضول ابتداءً من عهد غازان [١١] (أي الغزاة).

وليس صحيحاً ما ذكره جيبونز المؤرخ الأجنبي من أن القرى المسيحية في الأناضول قد أكرهت على دخول الإسلام فدخلت الإسلام دفعة واحدة، ولكن الصحيح أن الإسلام دخل قلوب الناس هناك بالتدريج وبنسبة محدودة، وأن هذه النسبة لم ترتفع إلا بعد أن رسخت الدولة العثمانية قدمها في البلقان في القرن الخامس عشر الميلادي، ثم ازداد الدخول في الإسلام في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين على يد الأتراك ورجال الدين المسلمين.

ت. **الفرق العسكرية على الحدود**: إن أهم دعائم تأسيس الدولة العثمانية هي فرق:

١. *الغزاة الأبطال*: كان الأتراك قبل إسلامهم يطلقون لقب «آلب» على الجماعة الأبطال الذين يقطعون الحدود ويحاربون الأعداء في عقر دارهم، ولكن بعد إسلامهم أخذوا يستعملون لقب «غازي» وذلك من باب التشريف للمجاهدين في سبيل الدين، وصار هذا اللقب لقباً رسمياً في أسرة الدنشمانديين في الأناضول، ثم صار لقباً رسمياً على كثير من حكام الحدود، وكانوا يرددون الحديث الشريف «من مات ولم يغز، ولم ينو الغزو، مات ميتة جاهلية» (١٢) . وحديث آخر «من جهز غازياً فقد غزا».

وقد ذكر محمد فؤاد كوبريللي في كتابه «قيام الدولة العثمانية» إن كلمة غازي ظهرت لأول مرة في تاريخ الترك في شعر عاشق باشا زاده في عبارة «غازيان روم» أي غزاة الروم. وكان هذا الشاعر قد عاش في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي، وقد ذكر الصفات التي يجب توافرها في الشخص كي يصبح غازياً أو آلب، والصفات التسع هي: «قوة القلب أي الشجاعة، قوة الساعد، الحمية، الزي الخاص، الفرس الجواد، القوس، السيف، الرمح، الرفيق الموافق» (١٣) . وقد ذكر كوبريللي أن عادة الغزو كانت متبعة عند القبائل التركية شبه البدوية، بينما ذكر المؤرخ Wittek أن عادة الغزو كانت متبعة منذ بداية الإسلام (١٤) .

أما في الجبهة الصفوية فإن الأتراك الذين كانوا في مواجهة الجيش الصفوي في القرن السادس عشر فكان يطلق عليهم الغزاة فقط وهذا يختلف عمّا كان في الجبهة البيزنطية آلب.

٢. *الأخيان*: والفرقة الثانية التي كانت من دعائم تأسيس الدولة العثمانية حسب رواية عاشق باشا زاده، هي فرقة أو طبقة الأخيان، وقد ذكرها ابن بطوطة عندما ذكر طائفة «الأخية الفتيان» وأنها كانت موجودة في كل قرية وكل قصبة (حي) في الأناضول. ويضيف ابن بطوطة أن الأخية هم الفتيان وهم شباب عزّاب وأصحاب حرف ويرأس جماعتهم رئيس منتخب يلقب بآخي، وكان بعضهم قد تبوأ المناصب الإدارية العليا (١٥) .

والظاهر أن هذه الطائفة قد ارتفع شأنها اجتماعياً لأنه التحق بها عدد من رجال الدولة في الأناضول خاصة القضاة والشيوخ والتجار في القرن الثالث والرابع عشر الميلاديين. ومن الشيوخ الذين اشتهروا في ذاك العصر الشيخ عبدي بالي الذي عاصر عثمان مؤسس الدولة العثمانية وهو والد زوجته، وربما كان هذا الشيخ عضواً في الأخية، وكان قد قلد عثمان سيفاً حسب عادة الأخية (١٦) .

وليس صحيحاً ما ذكره المؤرخ كوك Cook أن هذا الشيخ شجع عثمان على الغزو، لأن عثمان كان مسلماً وتابع عمل أجداده في الغزو وليس هذا بجديد عليه.

٣. *باجيان روم (منظمة النساء)* : والطائفة الثالثة التي تناولها عاشق باشا زاده هي: طائفة باجيان روم أي منظمة النساء، وقد قيل إن إمارة ذي القدر كانت في بداية القرن الخامس عشر لها قوة مسلحة من التركمان مكونة من ٣٠،٠٠٠ رجل و١٠٠،٠٠٠ امرأة، وكانت هذه النساء من حاملات السلاح وهنّ من قبائل تركمانية كانت تقطن مناطق الحدود (١٧) . وربما كان هذا الكلام غير صحيح بل مدسوساً على كلام عاشق باشا زاده؛ لأنه لا يعقل أن يكون جيش يسكن على الحدود مكون من النساء، خاصة أن هذه الفئة لا يمكن أن تقوم بالأعمال العسكرية الشاقة التي يقوم بها الرجال، وكذلك لأن النساء لم يكنّ في ذلك العصر (متحررات) كما هنّ في الوقت الحاضر إلى حد ما، ولأن عدد النساء لم يكن في جيش ما أضعاف عدد الرجال. ولكن ربما تكون هذه الطائفة هي طائفة (حاجيان روم) حجاج الأناضول أو (باخشيان روم) وهي كلمة مغولية قديمة. وربما يكون صحيحاً أنها منظمة نساء.

٤. *الدراويش*: وقد أنشأ هؤلاء زوايا، كان يلجأ إليها الأتراك المسافرون داخل وخارج المدن وقد منحهم السلطان أوقافاً يعتاشون منها.

تحول إمارة عثمان إلى إمبراطورية:

أجمعت المصادر التاريخية أن قبيلة عثمان هي من قبائل الغز (نسبة إلى أوغوزخان) كغيرها من القبائل التركية التي وفدت إلى تركيا، وهم لا يختلفون عن أغلبية الترك الذين وفدوا مع السلاجقة، وهناك مصادر تاريخية صرحت بانتماء العثمانيين إلى قبيلة قايي وهي من قبائل الغز كما ورد ذلك في كتاب «سلجوقنامه» الذي كتبه يازنجي أوغلي في عهد مراد الثاني (١٨) . وقبيلة قايي هي من قبائل الغز

المعروفة بالأصالة والشرف، وقد وصلت هذه القبيلة إلى الأناضول مع السلاجقة ولكنها انقسمت إلى بطون وأفخاذ وسكنت في مناطق مختلفة في الأناضول، لدرجة أننا نرى اليوم أن هناك قرى متباعدة تحمل اسم قايي.

ونستطيع القول إذاً أن عثمان كان يرأس عشيرة تنتمي إلى قبيلة قايي وكانت تخضع لسلاطين قونية، وكان موطن هذه العشيرة في منطقة أسكي شهر الواقعة على الحدود التركية البيزنطية. وكانت بالقرب منهم قبائل وعدد من أمراء الحدود يغيرون كلما وجدوا الفرصة سانحة على الحدود البيزنطية، ومنهم من كان يدخل المناطق ويؤسس فيها قواعد سياسية وعسكرية. والسؤال هو كيف استطاع عثمان في تلك الفترة وتلك المنطقة أن يؤسس الدولة العثمانية؟

الحقيقة أن إمارة عثمان بموقعها الاستراتيجي على الطريق الرئيسة التي تصل بين القسطنطينية والمدن الإسلامية في بلاد الشام، ووقوعها كإمارة تواجه الأراضي البيزنطية، جعلها إمارة أكثر أهمية من إمارات آسيا الصغرى مثل منتشه وايدين وصاروخان وقره صي وسينوب وكرمان وغيرها. والسبب الرئيس الذي جعل إمارة عثمان تعيش أكثر عمراً من غيرها هو أن الغزو أصبح قليلاً في تلك الإمارات؛ لذلك انضم هؤلاء الغزاة إلى إمارة عثمان التي لم يتوقف الغزو ولم يضعف عن طريقها، وهذا أدى إلى دوام استمرارها.

كان الغزاة ينطلقون للغزو في الأناضول إلى ثلاث جبهات ضد البيزنطيين، الأولى في الجنوب في الجهة المواجهة إلى كيليكيا حول أنطاكيا وهي موجهة ضد أرمينيا الصغرى وضد جزيرتي رودس وقبرص، والثانية في الشمال في الجهة المواجهة للدولة البيزنطية في طرابزون على البحر الأسود، والثالثة في الجهة الغربية أي في مواجهة الدولة البيزنطية نفسها، وأهم الإمارات التي كان ينطلق الغزاة منها إلى الغرب هي إمارة صاروخان وجرميان وعثمان، وكان هدفهم الوصول إلى كوتاهية وقره حصار ودنزلي.

كان على رأس كل إمارة شخص يدعى أمير الغزو، وكانت أشهر الجبهات الثلاث هي الجبهة الغربية المواجهة للإمبراطورية البيزنطية. وكان قد أطلق لقب «أمير الغزو» عام ١٢٦١م على «نصرة الدين حسن وتاج الدين حسين» أولاد الوزير السلجوقي فخر

الدين علي [١٩] . وكان أمراء الغزاة يقومون بغزو أراضي الدولة البيزنطية، كما أقامت بعض عائلات الغزاة داخل حدود الدولة البيزنطية وضمت الأراضي الإسلامية إلى حوزتها كما فعلت قبيلة عثمان.

قلنا في الصفحات السابقة إن هناك روايات كثيرة حول أصل العثمانيين، فمن هذه الروايات أن قبيلة عثمان هربت من وجه المغول واستقرت في آسيا الصغرى بينما ذكرت روايات أخرى أن قبيلة عثمان جاءت مبعوثة من سلطان السلاجقة في بغداد لتنظيم الغزاة. والمهم في الأمر أن قبيلة عثمان وصلت إلى آسيا الصغرى بقيادة سليمان وقد خلفه على إمارة القبيلة أرطغرل بن سليمان، وقد عمل أرطغرل على ضم كثير من المناطق البيزنطية وانضم له كثير من السلاجقة حتى اعترف به سلطان السلاجقة في بغداد. وعندما توفي أرطغرل عام ١٢٨٠م استلم زمام القبيلة ابنه عثمان الذي سميت الدولة باسمه. ولنبدأ بشرح مفصل عن كل سلطان حكم الدولة العثمانية.

الغازي عثمان (١٢٨٠م – ١٣٢٤م) :

ولد عثمان بن أرطغرل عام ١٢٥٨م ويعتبر عثمان المؤسس الفعلي للدولة العثمانية، حيث بدأ حياته بالغزو على البيزنطيين. وكانت الحدود البيزنطية مسرحاً لغزوات عثمان وتمتد من نهر سكاريا حتى مدينة كاستاموني وحتى المنطقة الممتدة جنوبي هذه المدينة. وكانت مدينة كاستاموني قد ضعف الغزو منها لذلك انضم الغزاة إلى عثمان قادمين من هذه المدينة عام ١٢١٩م ومن الأماكن التي تقع حولها ودعموا عثمان كي يشاركوا في الغزو، وفي عام ١٣٠١م سار عثمان وكثير من الذين انضموا تحت لوائه إلى عاصمة البيزنطيين القديمة وهي مدينة أزنك أونيقية، وقد ظهر عثمان بلباسه التركي القريب من لباس البادية وهو على رأس هذا الجيش وقد شجعه وتمنى له النجاح في غزوته صهره الشيخ عبدي بالي أو (إده بالي) ، وكما يبدو واضحاً أن الجبهة البيزنطية كانت ضعيفة زمن عثمان؛ وهذا ما شجعه على التوغل والتقدم في جيشه إلى العمق وخاصة لأن الأراضي البيزنطية أصبحت واضحة أمامه ومكشوفة أمام الغزاة [٢٠] . هذا بالإضافة إلى رغبة عثمان في نشر الإسلام في المناطق التي وصلها. وهكذا حصل أول صدام بين عثمان والبيزنطيين عام ١٣٠١م في معركة قوين حصار وحقق عثمان النصر وضم إليه أراضٍ كثيرة.

لقد نجح عثمان في كل غزواته وبهذا أصبحت منطقة نفوذه أوسع من منطقة نفوذ أي أمير من أمراء الغزاة. فقد امتدت سلطته على المنطقة الممتدة من أسكي شهر حتى سهول أزنك وبورصة؛ ولأن هذه المدن الهامة مثل أزنك وبورصة أصبحت في متناول يد عثمان خافت الدولة البيزنطية وبدأت تحسب لعثمان ألف حساب أكثر من غيره من أمراء الغزاة، لهذا بدأ حكام المناطق المسيحية البيزنطية بقيادة حاكم بيزنطة الاحتشاد وتكوين قوة عسكرية لكسر عثمان، فتوجهت هذه الجموع البيزنطية إلى أزنك ودارت معركة في سهولها كانت نتيجتها لصالح عثمان، وهرب الجيش البيزنطي والتجأ إلى مدينة قريبة هي إزمد، ولكن عثمان بدلاً من متابعة وملاحقة الجيش المهزوم ذهب إلى حصار مدينة بورصة لأنها المدينة التي توقع أن تكون خطراً على إمارته. وكانت نتيجة انتصار عثمان أن أخذت الوفود التركمانية تزوره وتعلن الولاء والطاعة له طالبة منه الانضمام تحت لوائه كي تستفيد من الغزو. وقد لمع اسم عثمان في المشرق الإسلامي نتيجة انتصاراته، لهذا أطلق عليه سلطان قونية السلجوقي لقب «بك» (٢١) .

أبدى علاء الدين كيقباد الثالث سلطان دولة الأتراك السلاجقة تقديره العميق لخدمات عثمان نتيجة انتصاراته على البيزنطيين فمنحه لقب «عثمان غازي حفر تلري مرزبان عاليجاه عثمان شاه» أي حضرة عثمان الغازي حارس الحدود العالي الجاه عثمان بك» (٢٢) .

وفي الوقت الذي كان عثمان ينتقل من نصر إلى نصر، كان أمير آيدين محمد بك يفتح مدناً في الأناضول ويضمها إلى إمارته مثل بيرجي التي اتخذها عاصمة له، ثم تابع زحفه حتى وصل أزمير، ونتيجة لذلك أصبح رجلاً مرموقاً في الجهة الغربية من الأناضول، ولم يؤدِ ذلك إلى تنافس بينهما أو عداوة أو حسد، بل أدى إلى تشجيع كل منهما للآخر في فتح هذه الحصون البيزنطية.

إن انتصارات محمد بك أمير آيدين وعثمان في الأناضول لا تعني أن حياتهما كانت كلها حروب، فقد اهتم عثمان مثلاً ببناء الجوامع الكثيرة وذلك لصبغ المناطق التي وصلها بالصبغة الإسلامية، هذا بالإضافة إلى اهتمامه بالناحية الاقتصادية والتجارية لرفع مستوى معيشة أفراد إمارته، التي كانت مزدهرة اقتصادياً وتجارياً وعمرانياً والدلالة على ذلك نجدها في زيارة ابن بطوطة لتلك المنطقة، حيث وصفها

عندما زار المنطقة قائلاً: إنه رأى مدناً مزدهرة مثل مدينة دنزلي التي رأى فيها سبع جوامع وسوقاً تجارياً ناجحاً هذا بالإضافة إلى المدن الأخرى التي وصفها مثل قره صي وبورصة وغيرها [٢٣] .

ذكرنا قبل قليل أن اسم عثمان أصبح عالياً بسبب الانتصارات التي حققها كغازٍ على الجبهة البيزنطية، وحصوله على لقب بك من قبل السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد الثالث سلطان قونية، وبالإضافة إلى هذا اللقب فقد حصل عثمان على أراضٍ كثيرة كان قد أقطعها له السلطان السلجوقي، حتى أنه سمح له بضرب العملة باسمه وذكر اسم عثمان في خطبة الجمعة في المساجد [٢٤] . ولم يبق إلا أن يطلق على عثمان لقب ملك ولكنه لم يحصل عليه.

كانت سياسة عثمان قبل الغزو تعتمد على أسلوب تهديد المناطق التي سوف يصلها، لذلك كان يخيّر حكام المناطق البيزنطية بين الإسلام أو الجزية أو الحرب [٢٥] . وقد أسلم بعض حكام المناطق، ودفع بعضهم الجزية، أما الذين قرروا الحرب فهم كثيرون، وقد قام هؤلاء بالتعاون مع التتار لضرب عثمان ولكنهم فشلوا، بل انتصر عثمان على كل أعدائه حتى أنه وصل إلى مشارف بورصة والقسطنطينية. وكان عثمان يسير من عاصمته دوماً في اتجاهين: الأول تجاه البحر الأسود شمالاً والثاني تجاه بحر مرمرة غرباً. واستطاع أن يفرض على بورصة الجزية مدة خمس سنوات حتى فتحها ابنه أورخان.

ولو حللنا شخصية عثمان وفكره لوجدنا أنه رجل يؤمن بالله ويطبق الإسلام وشعائره ويفي بالوعد إذا وعد ويقيم الحد على العاصي ولو كان قريباً، ويحترم أهل الذمة إذا بقوا على عهدهم معه، **ولدينا أكثر من دليل على كل نقطة ذكرناها**:

١. فمثلاً بالنسبة لإيمانه القوي بالدين الإسلامي نقول: «إن عثمان بن أرطغرل قد أسس دولة تعتز بالإسلام، ويعز بها الإسلام، ويلوذ إليها المسلمون، وهذا ما يؤكده المؤرخ التركي أحمد رفيق في موسوعته المطبوعة باللغة التركية بأحرفها العربية «بيوك تاريخ عمومي» أي التاريخ العام الكبير، حيث يقول: كان عثمان متديناً للغاية، وكان يعلم أن نشر الإسلام وتعميمه واجب مقدس، وكان معتنقاً لفكر سياسي واسع ومتين، ولم يؤسس عثمان دولته حبّاً في السلطنة، وإنما حباً في نشر الإسلام [٢٦] .

٢. وأما عن وفائه بالعهد إذا وعد نقول: «ولقد بلغ من شدة حرص العثمانيين على التزام آداب الإسلام في الوفاء بالعهد، أنهم ظلوا طوال عدة قرون، كما يروي المؤرخ إسماعيل حامي دنشمند في كتابه: «موسوعة التاريخ العثماني»، يدخلون قلعة أولوباد بوساطة القوارب على الرغم من وجود جسر يوصل إليها، وذلك لأن أمير القلعة البيزنطي كان قد اشترط على عثمان بن أرطغرل حين استسلم للجيش العثماني، أن لا يمر من فوق الجسر أي عثماني مسلم إلى داخل القلعة» (٢٧).

٣. وأما بالنسبة لإقامة الحد والعقوبة على من خالف الإسلام ولو كان قريبه نقول: إن كتب التاريخ شوّهت حقيقة العثمانيين، عندما ذكرت أن أبناء سلالة عثمان كانوا يقتلون أخوتهم أو أعمامهم خوفاً من تنافس الأخوة على الحكم، وذكرت الكتب الأجنبية أن هناك فتوى من شيخ الإسلام بذلك، ولكن الحقيقة لا توجد فتوى بذلك أولاً، وأما ادعاء القتل فقد أعمت الأباطيل والأكاذيب عيون المؤرخين الأجانب وبدلوا الحقائق أباطيل. فمثلاً لم يقتل عثمان عمه دوندار حسداً وإنما قتله لأنه تحالف مع الأعداء، والدلالة على ذلك ما ذكره «خير الله أفندي» الذي عاصر عثمان بن أرطغرل من أن دوندار كان طرفاً في مؤامرة اتفق على تدبيرها بالتعاون مع حاكم مدينة بيله جيك البيزنطي، تستهدف اغتيال عثمان، تمهيداً لوثوب دوندار إلى الزعامة بدلاً من عثمان، فلما كشفت المؤامرة، أصرّ عثمان وهو الحريص على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية على تنفيذ حكم الله في عمه جزاء اقترافه لجريمة موالاة أعداء الإسلام، والتآمر معهم ضد جماعة المسلمين (٢٨).

يُعد عثمان بن أرطغرل بن سليمان رجلاً مؤمناً مسلماً دافع عن دار الإسلام، ويعتبر المؤسس الأول للدولة العثمانية. «لقد وضع عثمان الحجر الأساس في بناء الدولة العثمانية عام ١٣٠٠م عندما أغارت جموع التتار على سلطنة قونية السلجوقية التي كان عثمان يعمل في خدمة أميرها علاء الدين كيقباد الثالث. وأسفرت الغارة عن مقتل الأمير علاء الدين وولي عهده غياث الدين عام ١٣٠٨م، فأمست السلطنة بدون سلطان، فوجد عثمان في ذلك فرصة ليعلن زعامته على السلطنة تحت اسم «بادي شاه آل عثمان» معلناً بذلك ولادة إمارة بني عثمان، فأصبحت المتنفس الوحيد للحماس الديني في الإسلام في الأناضول، فجاءها كل راغب في الجهاد، واجتذبت إليها أعداداً من المتحمسين لنصرة الدين (٢٩).

وفي الأيام الأخيرة من حياة عثمان أوصى ابنه أورخان الذي استلم الحكم بعده بوصية نستشف منها روح الإسلام والدفاع عنه قال فيها: «اعلم يا بني، أن نشر الإسلام، وهداية الناس إليه، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم، أمانة في عنقك، سيسألك **الله** عز وجل عنها... يا بني، إنني أنتقل إلى جوار ربي وأنا فخور بأنك ستكون عادلاً في الرعية، مجاهداً في سبيل **الله** لنشر دين الإسلام. يا بني أوصيك بعلماء الأمة أدم رعايتهم، وأكثر من تبجيلهم، وأنزل على مشورتهم، فإنهم لا يأمرون إلا بخير، ... وأعلم يا بني، أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق **الله**، وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين **الله**، وأننا لسنا طلاب جاه ولا دنيا» (٣٠) .

وتوفي عثمان عام ١٣٢٤م تاركاً لابنه أورخان إمارة مترامية الأطراف وجيشها الغازي في كل مكان في الأناضول مدافعاً عن دار الإسلام ومحاصراً مدناً هامة مثل بورصة وغيرها. وذكر محمد فريد بك المحاميَ أن عثمان توفي عن عمر يناهز السبعين عاماً ودفن في مدينة بورصة أو بروسة وكانت هذه المدينة قد فتحها ابنه أروخان بينما كان عثمان آنذاك على فراش الموت، وأصبحت هذه المدينة عاصمة جديدة للأتراك العثمانيين، وقد بنى فيها السلاطين فيما بعد ثلاثة مساجد هي يشيل جامع، أولو جامع، ييلدرم (٣١) .

أورخان بن عثمان ١٣٢٤م – ١٣٦٠م:

استلم أورخان الابن الثاني لعثمان زمام أمور الإمارة العثمانية بعد وفاة والده، بينما استلم الابن الأكبر لعثمان وهو علاء الدين مركز الصدر الأعظم أي رتبة رئيس الوزراء، وتفرغ أورخان للفتوحات الإسلامية.

وعن سياسته فقد قام أورخان بمتابعة الحروب والغزوات التي كان قد سار عليها والده عثمان، وقام بأعمال كالتي قام بها والده مثل سك العملة والمناداة باسمه يوم الجمعة على المنابر الإسلامية في منطقته، ومهادنة إخوانه في الشرق الإسلامي وهم السلاجقة. وكانت سياسة أورخان أيضاً إيجاد أراضي وقف لصرف مرتبات الجنود من الوقف ومن الغنائم التي كان يأخذ خمسها للدولة، وكان يعطي الشيوخ المتصوفة معاشات ومنحاً خاصة؛ وذلك بسبب احترامه لرجال الدين المسلمين.

استطاع أورخان أن يفتح مدينة بروصة عام ١٣٢٦م بعد حصارها منذ زمن

والده، وقد اتخذها عاصمة له لحسن موقعها، وأرسل الجيوش العثمانية إلى المدن الأخرى في آسيا الصغرى ففتحوا مدناً كثيرة، أما هو فقد اتجه نحو أزمد فدخلها فاتحاً مظفراً وتبعتها مدينة إزنك بعد سنتين، وقد عامل سكان المدن المفتوحة باللين والرفق والمحبة، حتى أنه لم يعارضهم في إقامة شعائر دينهم وسمح لمن يريد المهاجرة من المناطق المفتوحة إلى أوروبا، بينما بقي الكثير منهم في بيوتهم وكل فرد كان آمناً مطمئناً وذلك بسبب الأمن داخل دولته (٣٢) .

وأسس أورخان مدارس عالية في بورصة وأزنك وأزمد وقيل إنه أسس جامعة عثمانية في إزمد بعد أن فتحها عام ١٣٢٧م وكانت أول جامعة عثمانية في زمنه وكانت من أعظم المعاهد التعليمية عند المسلمين (٣٣) .

وقد سك أورخان عمله جديدة اسمها أقجة وهي قطعة بيضاء كان قد كتب على الوجه الأول من العملة الشهادتين (أشهد أن لا إله إلا **الله** وأن محمداً رسول **الله**) ، وأما الوجه الآخر من العملة فكان مكتوب عليه اسم أورخان والدعاء له بكلمات هي «خلّد **الله** ملكه» (٣٤) .

وبعد الفتوحات التي انتصر في معاركها أورخان وجيشه، أصبحت منطقة الأناضول كلها بيده إلا بعض المناطق التي كان من السهل عليه الوصول إليها وهي على الساحل الشمالي للأناضول مثل طرابزون. هكذا نستطيع القول إن البر الآسيوي كان تحت إمرة أورخان ما عدا الساحل من طرابزون على ساحل البحر الأسود وحتى القسطنطينية وبحر مرمرة.

كانت علاقة أورخان مع الإمبراطور البيزنطي يوحنا السادس حسنة وعلاقة طيبة، وقد طلب يوحنا المساعدة من العثمانيين ضد منافسه على الحكم يوحنا الخامس باليولوغوس، واستعد أورخان لمساعدة الإمبراطور البيزنطي، فجهز أورخان جيشاً قوياً عام ١٣٤٥م بقيادة ابنه سليمان الذي استطاع أن يعبر به مضيق الدردنيل على سفن بيزنطية إلى الجبهة الأوروبية، فوصل تراقية. واستمر سليمان في زحفه في البلقان حتى استطاع استرجاع مدينة سالونيك من ملك صربيا وأرجعها إلى حاكم القسطنطينية البيزنطي. وازدادت العلاقات الحسنة بين أورخان والإمبراطور

البيزنطي عندما أعطى الإمبراطور ابنته ثيودورا هدية إلى أورخان كي يتزوجها على مساعدته له ضد خصمه.

وبعد انتصار أورخان وسليمان في البلقان وتراقية استلم العثمانيون مراكز حساسة إستراتيجية في أرخبيل غاليبولي، الأرخبيل الذي يتحكم في المواصلات البحرية بين الأناضول وتراقية. ووطد العثمانيون قوتهم في الهلسبونت بعد توقيعهم اتفاقية جنوة عام ١٣٥٤م، وأصبحت أوروبا والبلقان تحت رحمة الجيوش العثمانية بعد دخولهم البلقان (٣٥) .

عندما انتهت مهمة سليمان في البلقان طلب الحاكم البيزنطي من سليمان مغادرة البلقان بعد هذه الانتصارات التي تمت على يديه، حتى أنه اتخذ غاليبولي مقراً له وقاعدة لانطلاق جيوشه على المدن البيزنطية في الجبهة الأوروبية، وقام أيضاً بتوطين كثير من الأتراك في منطقة البلقان الأوروبية معتمداً عليهم في حروبه المستقبلية. ويعتبر سليمان أول قائد تركي دخل المناطق البيزنطية في البلقان فاتحاً. واستغل سليمان وجوده في المناطق الأوروبية، فاكتشف مدى ضعف المناطق البيزنطية في حالة هجومه على مدنهم في البلقان.

وحدثت بتاريخ ١٣٥٤/٣/٢م زلازل جعلت سليمان يفسر حصول الزلازل بضرورة بقائه في البلقان ولا يغادرها بعد أن فسر له المفسرون أن هذا الزلزال دلالة على أن **الله** منح هذه المناطق للمسلمين وعليهم عدم مغادرتها. وقد أجاب سليمان إلى الحاكم البيزنطي في القسطنطينية بأن الزلزال يعني أن تبقى القوات الإسلامية في البلقان (٣٦) .

وقد توفي سليمان عام ١٣٥٨م مخلفاً وراءه جبهة إسلامية عريضة في البلقان. وتوفي والده بعد سنتين تقريباً.

الجيش الانكشاري زمن أورخان:

كان الجيش العثماني مؤلفاً من المتطوعين والمندفعين للجهاد في سبيل **الله**، وكان هؤلاء الغزاة يقيمون على الحدود البيزنطية. وقد ذكرت الكتب التاريخية أن أورخان أنشأ جيشاً جديداً هو الجيش الانكشاري «يني شري»، ولكن اختلفت الروايات التاريخية في تكوين هذا الجيش الجديد.

فقد ذكرت أكثر الكتب التاريخية نقلاً عن مصادر أجنبية أن هذا الجيش الجديد قد تكون بسبب كثرة الغنائم التي جمعها أورخان، فكان أورخان يأخذ ١/٥ خمس الأسرى في الحرب وتقوم الدولة بتربيتهم تربية إسلامية بحيث لا يعرفون لهم أباً أو أماً لأنهم يكونون أثناء جمعهم من المناطق المسيحية لا يتجاوزون العاشرة من العمر، وكان الشيخ بكطاش شيخ الطريقة البكطاشية في أماسيا قد بارك هذا الجيش وسماه بالجيش الجديد (٣٧) . وهذه روايات أجنبية القصد منها مس سمعة الإسلام والتنديد بالطريقة الإسلامية في تأليف الجيش وكذلك لقلب الحقائق أي أن الجيش بدلاً من أن يكون مسلماً يكون بذلك مسيحياً.

ولكن الحقيقة في كيفية تكوين الجيش الانكشاري هي كالآتي:

لم يكن الجيش العثماني جيشاً تشكل من أطفال النصارى بل كان جيشاً إسلامياً تشكل من أبطال الإسلام (٣٨) . لقد كان افتراءً واضحاً وكذباً مكشوفاً على العثمانيين بأنهم كانوا ينتزعون أطفال النصارى من أحضان آبائهم وأمهاتهم ليكرهوهم على اعتناق الإسلام وتبنى هذا الافتراء والكذب كل من المؤرخين الأجانب ومنهم بروكلمان، وجيبونز، وجب، وسومرفيل وغيرهم من المؤلفين الذين كان قصدهم الطعن في الإسلام. حتى أنهم ذكروا أن العثمانيين كانوا قد فرضوا ضريبة اسمها ضريبة الغلمان على جميع الشباب من سن العاشرة حتى الخامسة عشر من أبناء المسيحيين، وعرفت هذه الطريقة أي جمع الشباب المسيحيين «بالدفشيرما» وأخذت الدولة خمس هؤلاء الشباب. أما كلمة دفشيرما "Dos, or me" فتعني بالتركية الإسقاط أو السقوط (٣٩) . وتطلق عادة على المواليد حديثي الولادة الذين تجهض بهم أمهاتهم فيخرجون إلى الدنيا أمواتاً، أو على الذين تلدهم أمهاتهم سراً، ثم يقذفون في الطرقات. وأطلقت هذه الكلمة على كل لقيط أو مشرد لأي سبب من الأسباب. وأضاف زياد أبو غنيمة في كتابه: أنه في بلاد العرب يجري اللسان كثيراً بهذه الكلمة، فيقال «رجل داشر»، يراد به الرجل الذي لا يعرف له ولي أمر يرجع إليه في شؤونه وكذلك «امرأة داشرة» يراد بها المرأة التي لا يعرف لها ولي أمر ترجع إليه في شؤونها» (٤٠).

والحقيقة أن ما قيل حول نظام الدفشيرما ليس سوى أباطيل دسّت على تاريخ العثمانيين فلم يكن نظام الدفشيرما كما يزعم الأجانب الحاقدون لإرغام النصارى على الإسلام، وإنما كان نظاماً إنسانياً أخذت الدولة على عاتقها بموجبه مسؤولية

رعاية اللقطاء والمشردين من الأطفال النصارى الذين تركتهم الحروب المستمرة أيتاماً ومشردين فدربتهم وعلمتهم الدين الإسلامي وأدخلتهم في الجيش. فالعثمانيون المسلمون يحترمون الشريعة الإسلامية فلم ينتزعوا الأطفال من أحضان أمهاتهم لإجبارهم على الإسلام أو لتنفيذ ضريبة يُطلق عليها ضريبة الغلمان، كما ادعى المؤرخون الأجانب أن المعارك في أي بلد ما وعبر التاريخ وخاصة المعارك الطاحنة والحاسمة التي وقعت بين المسلمين والبيزنطيين خلفت وراءها عدداً كبيراً من الأطفال قد فقدوا آباءهم وأمهاتهم نتيجة المعارك أو نتيجة هرب الأب والأم، وهو أمر يحدث في كل حرب، فلا عجب أن يتعهد العثمانيون بجمع هؤلاء الأطفال اليتامى المشردين الذين هاموا على وجهوهم في الطرقات في المدن المفتوحة بعد فقدانهم لأمهاتهم وآبائهم، ولا عجب أن يتعهد العثمانيون هؤلاء الأطفال بالرعاية وتأمين مستقبلهم. لقد قدم العثمانيون الحنان اللازم لهم. وللأسف الشديد أن المؤرخين المسلمين قد نقلوا عن المؤرخين الأجانب كيفية نظام الدفشيرما أي جمع أبناء النصارى من أحضان أمهاتهم وقد انطلت هذه الأباطيل على معظم هؤلاء المؤرخين المسلمين وعلموها في مدارسهم وجامعاتهم.

إن الحقيقة حول تشكيل الجيش الانكشاري هي أن أورخان لم يجبر أحداً من أسرى النصارى لا بموجب نظام الدفشيرما (اللقطاء) ولا بموجب ضريبة الغلمان المزعومة لتشكيل جيش جديد. إن الإسلام يرفض مبدأ الإكراه في الدين وأورخان رجل مسلم متدين كأبيه، بل إن أخاه الأكبر علاء الدين الذي أشار عليه بتشكيل هذا الجيش الجديد كان مسلماً متصوفاً وعالماً في الشريعة الإسلامية. ثم ما حاجة أورخان إلى ضم الآلاف من نصارى المسيحيين لتشكيل جيش يكون عمود الدولة في الوقت الذي يتقاطر على الحدود الإسلامية البيزنطية آلاف المسلمين المتطوعين حباً في الجهاد في سبيل **الله**. إن المعارك التي خاضها أورخان تؤكد أنه كان يعتمد فيها على المجاهدين الذين كان يطلق عليهم بالتركية Akincilar أي المندفعون (أهل النفير) الذين كانوا يستجيبون لنداء الجهاد كما قال تعالى: "انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا في سبيل **الله** بأموالكم وأنفسكم". صدق **الله** العظيم.

وبسبب كثرة الفتوحات والحروب والغزو أدرك أورخان أنه بحاجة إلى جيش نظامي يكون موجوداً دائماً، فاستشار أخاه الأكبر علاء الدين وعدداً من القادة

الآخرين، فأشار عليه علاء الدين وقائده قره خليل بفكرة إيجاد جيش نظامي يكون دائم الاستعداد للحرب. واقتنع أورخان بهذه الفكرة، فجمع ألفاً من المجاهدين من فرسان عشيرته ومن الروم الذين أسلموا وحسن إسلامهم ومجاهدي النفير، وذهب أورخان بهم إلى شيخ الطريقة البكطاشية كي يبارك بهم، فباركهم هذا الشيخ ودعا لهم النصرة في الحروب في سبيل الإسلام. وقد سماهم "يني شري" أو انكشاري أي الجيش الجديد. وكانت راية الجيش من قماش أحمر في وسطها هلال وتحت الهلال صورة لسيف أطلقوا عليه اسم ذي الفقار تيمناً بسيف سيدنا علي كرم **الله** وجهه (٤١) . ولم يلبث الجيش الجديد أن تزايد عدده بسبب كثرة المتطوعين وأصبح يضم آلافاً من المجاهدين في سبيل **الله**؛ لأن الهدف الرئيس من تشكيل الجيش الجديد هو الجهاد في سبيل **الله** ونشر الإسلام وفتح المزيد من أراضي البيزنطيين.

ونقول أخيراً أن السلطان أورخان لم ينتزع غلاماً واحداً من حضن أمه أو أبيه، ولم يكره أحداً من النصارى على اعتناق الإسلام، وأن كل ما زعمه بروكلمان وغيره من المستشرقين غير صحيح وإنما قصد الإساءة إلى الدولة العثمانية وإلى الإسلام عموماً.

توفي أورخان بن عثمان سنة ١٣٦٠م وعمره (٨١) سنة ودام حكمه ٣٥ سنة قضاها مجاهداً في سبيل **الله**، ودفن في مدينة بروصه في مقبرة أمراء وسلاطين آل عثمان، وخلفه في الحكم ابنه مراد الأول.

السلطان الغازي مراد الأول بن أورخان (١٣٦٠م – ١٣٨٩م):

تابع مراد الأول سياسة والده وجده عثمان في فتح الحصون البيزنطية ونشر الإسلام في البلقان كلها. ونستطيع أن نطلق عليه مؤسس الدولة العثمانية رسمياً في المناطق الأوروبية؛ لأنه استطاع فتح بلاد البلغار والصرب ومقدونيا. كانت أولى فتوحاته في أدرنة التي اتخذها عاصمة له عام ١٣٦١م وهو من فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م وبهذا استطاع أن يعزل العاصمة البيزنطية؛ لأنه قام بالفتوحات في غربها وسيطر عليها، ثم عبر نهر ماريتسا وسيطر على المناطق المجاورة، وفتح مدينة فيلا بوليس (غاليبولي) عام ١٣٦٣م والوادي المجاور لها، المشهور بزراعة الأرز والقمح وهو الذي كان يمون العاصمة القسطنطينية بالمواد الغذائية، وبسيطرته

عليه يكون قد قطع الغذاء عن العاصمة. وإلى جانب أهميته الاقتصادية، فهو مهم من الناحية الإستراتيجية؛ لأنه يقطع الاتصال بين اليونان والبلغار. وكان نتيجة سقوط أدرنة والمدن الأخرى، أن قامت وحدة بين المسيحيين في مناطق البوسنة وهنغاريا وصربيا وذلك كي يطردوا الأتراك العثمانيين من البلقان، ولكن السلطان مراد الأول تصدى لهم وكسرهم، ونتيجة نجاحه في هذه المعركة تقدم غرباً وتوغل أكثر في المناطق المسيحية الواقعة في البلقان وفتح المدينة تلو الأخرى، وهذا العمل أغضب البابا المسيحي، فأخذ على عاتقه العمل لإيقاف مراد عند حده، حيث نادى المسيحيين في كل أوروبا سنة ١٣٦٦م بضرورة طرد الأتراك وتشكيل وحدة صليبية أوروبية قوية تكون أقوى من الأتراك كي تقذف بهم في المضيق والبحر وتطردهم إلى الأناضول. ولكن مناداة البابا لم تجد أذناً صاغية إلا عند حاكم منطقة سافوي (أماديوس) الذي استطاع استرجاع غاليبولي [٤٢] بعد معارك عنيفة جرت بينه وبين العثمانيين.

كان أسطول حاكم سافوي قوياً أقوى من الأسطول العثماني وهذا أدى إلى نجاحه في استرجاع غاليبولي من المسلمين. وسلم مراد غاليبولي للبيزنطيين كي يحافظوا عليها ورجع إلى بلاده. ورغم نجاحه في كسر العثمانيين واسترجاع غاليبولي إلا أنه لم يتابع ملاحقة العثمانيين بسبب ظروف داخلية في بلاده. وبعد أكثر من عشر سنوات طلب أحد البيزنطيين حماية العثمانيين له من خصمه مقابل إعطاء غاليبولي هدية للمسلمين عام ١٣٧٩م.

إن الخطة الحربية التي اتبعها مراد الأول في سيره في بلاد البلقان ونجاحه في معظم الحروب هي أنه قسّم الجيش إلى ثلاثة أقسام أو جبهات في آن واحد، **وهذه الجبهات هي**:

١. جبهة الوسط وذلك قرب نهر ماريتسا حيث استطاع فتح مدينة صوفيا عام ١٣٨٥م ومدينة نيش عام ١٣٨٦م.

٢. الجبهة اليمنى حيث يقع فيها نهر تونجا.

٣. الجبهة اليسرى والجنوبية حيث وصل العثمانيون إلى سيريز عام ١٣٨٣م وحاصروا سالونيك عام ١٣٨٧م وهي ثاني أكبر مدينة بيزنطية.

ونتيجة هذه الحروب العثمانية الناجحة على البيزنطيين فرض عليهم مراد دفع الجزية لذلك خاف زعماء أوروبا فقام بعضهم وأعلنوا خضوعهم ودفع الجزية، وصمم بعضهم الآخر على مقاومة الزحف العثماني.

ويجب أن لا ننسى مدى تفكك الجبهة البيزنطية والأوروبية من صراعات داخلية، لا يمكن أن تكون الدولة العثمانية في منأى عنها، بل يجب أن يكون لها دور فعال في لعب حوادث تاريخية نتيجة هذا التفكك الأوروبي. وللدلالة على التفكك الأوروبي قام ملك بلغاريا وهو الملك شيشمان وطلب حماية السلطان العثماني عندما علم أن وحدة أوروبية ستقوم بضربه، وكانت الدول الأوروبية قد تحالفت على ضرب شيشمان هي ولاشيا وهنغاريا. فتصدى العثمانيون وملك بلغاريا شيشمان لهذا الحلف الأوروبي وساروا نحو نهر الدانوب، وبسب القوة العثمانية خاف حاكم ولاشيا وانفصل عن الوحدة الأوروبية وأدار ظهره للأوروبيين والهنغاريين (٤٣) . وبذلك انفصمت عرى الوحدة الأوروبية. وأدى تحرك العثمانيين في البلقان للدفاع عن شيشمان أن سيطر العثمانيون على مناطق في البلقان لم يخرجوا منها، وهكذا بقيت القوى العثمانية في البلقان تتحدى الدول الأوروبية جميعها حتى عام ١٣٨٩م عندما قامت معركة قوصوه بتاريخ ١٥/حزيران سنة ١٣٨٩م.

وتجدر الإشارة إلى أنه قبل قيام معركة قوصوه «ميدان الطيور السود» رجع ملوك أوروبا الذين انفصلوا عن الوحدة الأوروبية إلى الوحدة من جديد فمثلاً رجع حاكم ولاشيا للوحدة الأوروبية، حتى أن شيشمان نفسه انفصل عن السلطان العثماني علماً بأنه كان يحميه ورجع إلى الوحدة الأوروبية. وعندما قامت المعركة، كانت الجبهة الأوروبية وحدة واحدة متواصلة قوية ولكن السلطان مراد تصدى لهم وانتصر في المعركة.

وبينما كان السلطان يتجول بين القتلى الأوروبيين إذ غدر به أحد الجرحى البيزنطيين فضرب السلطان ضربة أردته قتيلاً عام ١٣٨٩م. ولكن استطاع العثمانيون من أسر ملك الصرب لازار ثم قتلوه بناءً على أوامر أبناء مراد وهم بايزيد ويعقوب.

ولو رجعنا للوراء ونظرنا إلى تاريخ مراد الأول وحروبه في البلقان لوجدنا أنه استطاع كما قلنا سابقاً أن يفرض الجزية على ملوك أوروبا مثل ملك البلغار وملك الصرب وذلك عام ١٣٧٩م. وعندما تأخرا في دفع الجزية قام مراد وجهز جيشاً لإخضاعهما وإجبارهما على دفع الجزية من جديد. وبعد معركة قوصوه عام ١٣٨٩م قضى الجيش العثماني على استقلال الصرب والبلغار نهائياً.

وحرص مراد الأول أثناء حكمه على أن يوازن توسعه في البلقان بتوسعات في الشرق أيضاً أي في جبهة الأناضول. فمثلاً استطاع الجيش العثماني أن يدخل أنقرة ذات الحضارة السلجوقية، وسيطر على مدينة قره صي التي كانت تفصل العثمانيين عن مضيق الدردنيل. ونتيجة انتصارات مراد في الجبهة الشرقية قام أمراء الغزاة في الشرق والتفوا حول أمير كرمان للانتقام منه إلا أنه هزمهم ومد نفوذه شرقاً. واتبع أساليب أخرى للسيطرة على أمراء الغزاة عدا عن محاربته لهم وأهم هذه الأساليب هي الزواج (٤٤) من أسر أمراء الغزاة ليصبح صهراً لهم، وكان أيضاً يقوم بشراء أراضيهم. فمثلاً تزوج بايزيد بن مراد الأول من بنت أمير كرمان فما كان من الأخير إلا أن قدم مهراً لابنته إعطاء مدينة كوتاهيه للعثمانيين (٤٥) . واتبع مراد سياسة الترحيل Sur-gun الجماعي من البلقان إلى الأناضول وبالعكس وذلك كي يكثر العنصر الإسلامي في البلقان.

ويجدر بنا أن نذكر شيئاً عن شخصية مراد الأول الإسلامية وجوانب مضيئة من شخصيته:

١. كان ملتزماً بالشريعة الإسلامية وتطبيقها. والدليل على ذلك أنه عندما تآمر ابنه ساوجي مع الأمير أندرونيقوس ابن الإمبراطور البيزنطي يوانيس، وسار الاثنان على رأس جيش من البيزنطيين وبعض المخدوعين من الجنود العثمانيين لمحاربة الجيش العثماني الإسلامي، كانت نتيجة المعركة هزيمة المتآمرين، فقرر مراد عرض هذا الأمر على علماء الشريعة، فحكموا على ساوجي ابن السلطان مراد بالموت جزاء خروجه على طاعة ولي الأمر وجزاء موالاته للكفار لقتال الجيش العثماني المسلم، وتدخل البعض لدى السلطان أن لا يعدم ابنه، ولكن السلطان أصر على إقامة وتنفيذ حكم الشريعة على ولده فأعدمه (٤٦) .

٢. لقد أمضى مراد الأول الليل طوله قبل قيام معركة قوصوه عام ١٣٨٩م داعياً الله النصر على أعدائه وكسر ملك الصرب لازار، فكان يقول في دعائه: «... إلهي ومولاي تقبل دعائي وتضرعي، وأنزل علينا برحمتك غيثاً يطفئ من حولنا غبار العواصف، واغمرنا بضياء يبدد من حولنا الظلمات، حتى نتمكن من إبصار مواقع عدونا فنقاتله في سبيل إعزاز دينك العزيز... إلهي ومولاي إن كان في استشهادي نجاة لجند المسلمين فلا تحرمني الشهادة في سبيلك لأنعم بجوارك ونعم الجوار جوارك. إلهي ومولاي، لقد شرفتني بأن هديتني إلى طريق الجهاد في سبيلك فزدني شرفاً بالموت في سبيلك» (٤٧).

٣. وقد استشهد السلطان مراد الأول في المعركة بطعنة جريح ملقى على الأرض ظن مراد أنه ميت.

٤. كانت العلاقات العثمانية مع جيرانهم السلاجقة، مثل أمير إمارة كرمان السلجوقية، علاقة طيبة ولكن عندما أعلن أمير الإمارة علاء أو غياث الدين الثورة على السلطان مراد زاعماً أنه الوريث الشرعي لزعامة دولة سلاجقة الروم اضطر مراد إلى القضاء على هذه الثورة، علماً أنه لم يكن يرغب أن يهدر دم مسلم بيد مسلم. ولكن بما أن علاء الدين خرج عن الصف فقد أدبه مراد.

أما علاقة السلطان مراد بالمماليك فكانت طيبة والدلالة على ذلك أنه عندما فتح أدرنة عام ١٣٦١ – ١٣٦٢م أرسل وفداً إلى سلطان مصر يبشره برفع الراية الإسلامية على أدرنة، وحين استشهد مراد كان السلطان المملوكي برقوق من أوائل الذين أرسلوا وفداً للتعزية بالسلطان (٤٨) الشهيد.

استشهد السلطان مراد الأول في معركة قوصوه عام ١٣٨٩م عن عمر يناهز الخامسة والستين بعد حكم دام ثلاثين عاماً، ثم نقلت جثته إلى بروصة حيث مقبرة سلاطين آل عثمان، وخلفه في حكم الدولة العثمانية ابنه بايزيد الذي لقب بالصاعقة.

«السلطان الغازي بايزيد الأول الملقب بالصاعقة (يلدرم *Yildirim*) ١٣٨٩م – ١٤٠٢م وحربه مع تيمورلنك»:

استشهد السلطان مراد الأول عام ١٣٨٩م في معركة قوصوه، فتولى زمام الأمور

بعده ابنه بايزيد الأول الذي لقب بالصاعقة وذلك لسرعة تحركه مع جيوشه من الأناضول إلى البلقان وبالعكس بسرعة فائقة. وعندما علم أمراء الغزاة في الأناضول باستشهاد مراد الأول قاموا بمحاولة الانفصال عن العثمانيين أو محاولة عدم الخضوع للسيادة العثمانية، فما كان من بايزيد الأول إلا أن سار إلى الأناضول قادماً من البلقان وأخضع الأمراء الذين أعلنوا عصيانهم. وكما حصل في الأناضول حصل في البلقان، حيث قام البيزنطيون بعدم دفع الجزية وعدم الخضوع للسلطة العثمانية، فقام بايزيد وهاجم عدة مدن كانت قد أعلنت العصيان، وأهمها مدينة كوسوفو التي قامت فيها ثورة ضد العثمانيين فسار بايزيد نحوها وأخمد الثورة فيها.

عندما استلم بايزيد الأول الحكم كان أخوه يعقوب في الأناضول يجمع الفرسان لإعدادهم للحرب القادمة مع البيزنطيين، وقد غضب يعقوب من استفراد أخيه بايزيد بالسلطة فتجمع حوله أمير كرمان برهان الدين وأمير جرميان وأمير حميد وغيرهم من الأمراء في الأناضول. فقرر بايزيد إخضاع الأمراء في الشرق ونجح في ذلك عام ١٣٩٠م.

لقد ارتكب بايزيد جريمة بشعة عندما أعدم أخاه الأصغر يعقوب؛ لأنه تعاون مع أمراء الغزاة لقلب نظام الحكم، وليس صحيحاً ما ذكرته الكتب الأجنبية الغربية أن بايزيد قتل أخاه بناءً على وجود فتوى إسلامية بقتل الأخ لأخيه بحجة المحافظة على وحدة المسلمين ومنعاً لوقوع الفتنة. لقد كان بينه وبين الشيوخ المسلمين جفاء واضح، والدلالة على ذلك أن القاضي شمس الدين محمد حمزة الفناري رد شهادة السلطان في إحدى القضايا، فلما راجعه في ذلك، أجابه القاضي: أنه رد شهادته لأنه تارك لصلاة الجماعة. وزاد الجفاء بينه وبين العلماء عندما علموا أن زوجته سيطرت عليه وكان يشرب معها الخمر دائماً، فأصبح مدمناً على شرب الخمرة ويقيم حفلات اللهو. وحدثت قصة طريفة تدلنا على عدم احترام العلماء لبايزيد، وذلك عندما زار العمال الذين يعملون في بناء المسجد «أولو جامع» في مدينة بورصة وكان بناؤه على وشك الانتهاء فالتقى خلال تجواله بالعالم المؤمن شمس الدين الفناري فسأله على مسمع من الناس عن رأيه في بناء المسجد، وهل يرى في البناء أي نقص؟ فأجابه العالم المؤمن بجواب ساخر دلالة على عدم الرضا عن سيرة بايزيد المنافية للإسلام

فقال له: «بالنسبة لنا نحن المسلمين فإننا لا نجد أي نقص في بناء المسجد، أما بالنسبة إليك يا بايزيد، فإنني أخشى أن تكون قد نسيت أن تضع خزانة تحفظ بها خمورك بجانب المحراب» (٤٩).

وكان بايزيد قد تزوج من أوليفيرا أخت ملك الصرب لازار، وكانت أم بايزيد مسيحية من اليونان، لذلك كان يشتاق كثيراً إلى المسيحيين وتعود الشرب والإدمان على الخمرة كأخواله (٥٠).

استغل ملك القسطنطينية جون الخامس انشغال بايزيد في الشرق فأعلن عصيانه وأبعد بقوته المسلمين عن حصار القسطنطينية، **لذلك رجع بايزيد من الشرق كالصاعقة إلى حصار القسطنطينية ورفض المساومة إلا إذا نفذت طلباته وهي**:

١. مضاعفة دفع الجزية.

٢. وضع ٦٠٠٠ رجل في الساحل الشمالي للقرن الذهبي.

٣. إنشاء شارع تركي في قلب العاصمة البيزنطية القسطنطينية وقد سمي هذا الحي العثماني بـ (سيركيشي Serceci) . والحقيقة أن رجوع بايزيد من الأناضول إلى البلقان ليس لأن حاكم القسطنطينية أعلن عصيانه، بل لأن سيجسموند ملك المجر المسيحي استرجع نيقوبوليس من المسلمين، ولبى رغبة نداء البابا بضرورة قيام حرب صليبية جديدة ضد الأتراك.

تجمع المسيحيون في بودابست وكانت أعدادهم ضخمة وقد وصلوا من بلدان مختلفة مثل بريطانيا وبولندا واسكتلندا وبوهيميا والنمسا وإيطاليا والسويد، وقام سجسموند ملك المجر بقيادة هذه الجيوش بعد أن باركها البابا، وزحف الملك إلى صربيا قاطعاً الدانوب واحتل في طريقه مدن أورسوفا وفيدين وقتل كل مسلم وجده في طريقه حتى وصل إلى نيقوبوليس. وكانت في المدينة حامية عثمانية قليلة لا تستطيع أن تقف أمام هذا الجيش المسيحي الجرار فسقطت نيقوبوليس بيد ملك المجر والجموع المسيحية.

عندما علم بايزيد بهذه الجموع المسيحية رجع فوراً من الأناضول عام ١٣٩٦م ووصل إلى نيقوبوليس حيث التقى بالجيوش المسيحية وقامت معركة حاسمة

وانتصر على الصليبيين، وكان هذا النصر قد رفع اسم بايزيد في العالم الإسلامي وأخاف الدول الأوروبية التي أصبحت تحسب حسابه. وقد أرسل السلطان إلى الشرق الإسلامي يخبرهم بهذه الانتصارات الإسلامية وبعث أسرى كثيرين للقاهرة ودمشق والقدس. فما كان ممن رأى هذه المناظر إلا أن تشجع، وذهب كثير من المتطوعين المسلمين إلى جبهة القتال في البلقان وازداد عدد الجيش العثماني، لذلك صمم بايزيد أن يستمر في فتوحاته في البلقان، ففتح مدناً كثيرة في مناطق ولاشيا وهنغاريا وبوسنيا وفيدين وبلغاريا وتقدم إلى ألبانيا. وبسبب هذه الانتصارات الإسلامية في البلقان لقب بايزيد بالصاعقة، وسلطان الروم، وألقاب أخرى مثل ملك المسلمين.

إن الانتصارات التي حققها بايزيد الأول في الجبهة الأوروبية في نيقوبوليس وزحفه نحو مناطق أخرى، جعلته يفكر ملياً في حصار القسطنطينية للمرة الثالثة. وبينما كان يحاصرها سمع خبراً عن زحف جديد قادم من الشرق نحو الأناضول هو جيش تيمورلنك.

تيمورلنك (١٥) ولقائه في معركة أنقرة مع بايزيد:

كان بايزيد مشغولاً بحروبه ضد البيزنطيين في أوروبا، وكان ينتقل من نصر إلى نصر، وعندما تمت على يديه فتح حصون بيزنطية جاءته الأخبار أن علاء الدين علي بك أمير كرمان قد زحف في بلاد الأناضول نحو أنقرة (العاصمة العثمانية القديمة) في الأناضول واحتلها، ثم زحف نحو بورصة حيث مقبرة سلاطين آل عثمان واحتلها، وعندما سمع بايزيد بهذه الأخبار قطع فتوحاته في البلقان ورجع مسرعاً كالبرق نحو الأناضول واستطاع تحقيق الانتصار على أمير كرمان وقتله بعد أن قامت معركة أنقرة عام ١٣٩٧م.

ثم سار السلطان بايزيد نحو الشمال حيث إمارة طرابزون المسيحية على البحر الأسود، ورجع إلى الجنوب حيث وصل إلى إمارة البستان، وهي إمارة تابعة للمماليك، وبذلك أصبح يقف على الحدود العثمانية المملوكية. وكانت نتيجة تحطيم أمراء الغزاة في الأناضول، وإعدام أمير كرمان، وإخضاع منطقة الأناضول للدولة العثمانية، أن قام أمراء الغزاة الذين هربوا من بايزيد إلى الشرق فطلبوا من تيمورلنك حمايتهم (٥٢)، ثم شجعوه كي يكمل الزحف الذي قام به من الشرق حتى وصل بغداد ليتابع زحفه

للأناضول.

وهناك رواية تاريخية تقول أن ملك القسطنطينية مع بعض ملوك أوروبا استنجدوا بتيمورلنك لمقاتلة السلطان بايزيد [٥٣] ، ورواية أخرى تقول عن تدخل تيمورلنك في أمور الدولة العثمانية: أن تيمورلنك بعث برسالة إلى بايزيد – السلطان العثماني – طلب فيها تسليم اللاجئ السياسي أحمد جلاي (سلطان بغداد) الذي هرب من بغداد عندما هجم تيمورلنك عليها. لكن بايزيد رفض تسليمه إلى تيمورلنك. فما كان من تيمورلنك إلا أن قرر إخضاع بايزيد وقتله في معركة فاصلة [٥٤] . وكان السلطان العثماني قد أحتضن ضيفه اللاجيء السياسي حاكم بغداد أحمد جلاي وأمده بالمعونة العسكرية والمادية للتصدي لتيمورلنك وذلك لاستعادة مركز الخلافة العباسية في بغداد، وكان لهذا الموقف العثماني تأثير كبير في توثيق العلاقات بين الدولة العثمانية وبين دولة المماليك التي تعتبر نفسها حامية للخليفة العباسي المتوكل على **الله**. وهناك رواية أخرى تقول أن أحمد جلاي هرب من بغداد خوفاً من تيمورلنك ملتجئاً إلى السلطان المملوكي برقوق في القاهرة. والحقيقة أن السلطان بايزيد عرض على السلطان المملوكي برقوق تشكيل جبهة إسلامية موحدة تلاحق «أهل الصليب» في عقر دارهم أوروبا [٥٥] .

الدولة العثمانية بعد تيمورلنك عام ١٤٠٢م:

بعد معركة أنقرة عام ١٤٠٢م وانتصار تيمورلنك على السلطان بايزيد ووقوع السلطان العثماني في الأسر، تنفس أمراء الغزاة الصعداء، ورجع كل أمير مبتهجاً إلى إمارته وعائلته، وذلك بعد أن انتهى الخطر عليهم من السلطان بايزيد الثاني. وكان قد بقي تيمورلنك في الأناضول ثمانية أشهر أي من تموز عام ١٤٠٢م حتى آذار عام ١٤٠٣م.

لم يكمل تيمورلنك زحفه للغرب ضد الأماكن العثمانية في الأناضول والبلقان علماً بأنه كان باستطاعته ذلك. بل اعترف أصلاً بحكم العثمانيين، واعترف بسليمان بن بايزيد حاكماً على البلقان [٥٦] ، ولحسن حظ سليمان أن الأوروبيين لم يستفيدوا من تحطيم دولة آل عثمان لأنهم لم يستغلوا الفرصة ويهجموا عليه في البلقان. ولو فعلوا ذلك لأصبحت دولة آل عثمان محطمة في الشرق من قبل تيمورلنك ومحطمة

في الغرب من قبل البيزنطيين. ولكن البيزنطيين لم يهجموا على سليمان لأنه اتبع سياسة مصالحة مع البيزنطيين (مع مانويل الثاني) ، أضف إلى ذلك أن هنغاريا كانت مشغولة في حروب خاصة مع دول وسط أوروبا.

كان لبايزيد أبناء آخرون عدا عن سليمان، فهناك محمد الذي كان مقيماً في أماسيا قرب سينوب، وعيسى الذي كان مقيماً في بورصة، وقد اعترفوا جميعاً بسيادة تيمورلنك عليهم.

توفي تيمورلنك عام ١٤٠٥م، فبدأ العثمانيون يبنون دولتهم من جديد، ولكن أبناء بايزيد وقعوا في خلافات وحروب أهلية عائلية واستمر هذا النزاع العائلي من عام ١٤٠٣ – ١٤١٣م.

الصراع بين أبناء بايزيد:

كان موقف سليمان ضعيفاً أمام أخوته وأمام أمراء الغزاة؛ وذلك لأنه اعتمد على وزير أبيه وهو علي جندرلي الذي كانت سمعته سيئة بسبب كثرة الضرائب التي فرضها على رعايا الدولة العثمانية، وزواجه من فتاة مسيحية، واعتراف تيمورلنك به حاكماً على البلقان من دون أخوته.

أما محمد الأول فقد كان أقوى أخوته حتى أنه حارب تيمورلنك في جبال الأناضول واتبع أسلوب الكر والفر، واستطاع أن يسترجع من جنود تيمورلنك مدن توقات وأماسيا (٥٧) . وبدأ في محاربة إخوانه بعد انسحاب تيمورلنك من الأناضول، واستطاع أن ينتصر على كل أخ من أخوته في معارك في الأناضول والبلقان حتى قضى عليهم جميعاً وقتلهم وكان آخرهم موسى الذي قتله عام ١٤١٣م.

موجز عن المعارك الأهلية بين أبناء بايزيد الصاعقة:

بعد رجوع تيمورلنك للشرق حصلت معارك بين الأخوة، كانت أول معركة في قرة صي بين محمد وموسى، وقد هرب موسى ملتجئاً إلى إمارة جرميان، وعندما سمع سليمان، حاكم أدرنة، عن هذه الحروب بين الأخوة ذهب كي يقضي على أخوته في الأناضول، فتعاون مع البيزنطيين، الذين اشترطوا عليه إذا ساعدوه أن يحصلوا على

مدينة سالونيك وتراقيا وأراضٍ قرب بحر مرمرة وأن يعفيهم من الجزية التي كانت مفروضة عليهم. وقد لبى سليمان طلب البيزنطيين، لذلك ساروا معه بعد حصولهم على طلباتهم إلى الأناضول لحرب أخوته.

جهز سليمان جيشاً آخر أرسله مع عيسى لقتال أخيهم محمد في الأناضول؛ وذلك لأن محمد أعلن نفسه سلطاناً وسك عملة باسمه كتب عليها أنه سلطان الدولة العثمانية الوحيد. قرر سليمان الهجوم على الأناضول حيث أخوه محمد، ولكن محمداً استعد للمعركة واستعمل أسلوباً حربياً ناجحاً حيث احتل مدناً خلف خطوط الدفاع لجيش سليمان وذلك عندما أرسل أخاه موسى إلى أدرنة عاصمة سليمان واحتلها. وعندما سمع سليمان بذلك رجع مسرعاً للبلقان فقتله موسى. ثم هاجم محمد البلقان وقضى على أخيه موسى قرب صوفيا في ١٤١٣/٧/١٠م، وهكذا أصبحت الأناضول والبلقان تحت حكم محمد الذي وحد مناطق الدولة العثمانية من جديد [٥٨] .

وقد نقل السلطان محمد عاصمة الدولة العثمانية من بروصة إلى أدرنة وهذا دلالة على اهتمامه بمتابعة الغزو. وبعد القضاء على أخوته بدأ في إعادة بناء الدولة العثمانية من جديد. وقد قضى معظم حكمه الذي استمر من ١٤١٣ – ١٤٢١م بالغزو والحروب، وذلك بعد أن اعترف به جميع رعايا الدولة العثمانية سلطاناً عليهم.

وقد جهز السلطان محمد جيشاً ذهب لقتال الشيخ بدر الدين وقد انتصر عليه في مقدونيا وشنقه عام ١٤١٧م [٥٩] ، بناءً على فتوى كان قد أصدرها مولانا سعيد أحد تلاميذ الشيخ التفتازاني ونصها: «من آتاكم وأمركم جميعاً على رجل يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه» [٦٠] . وللأسف أن المستشرقين ورجال التاريخ الغربيين الذين كتبوا عن تاريخ الدولة العثمانية كتبوا أن هذه الفتوى التي أصدرها مولانا سعيد عام ١٤١٧م [٦١] ، كانت عبارة عن السماح لسلاطين آل عثمان لقتل أخوتهم وأنها صدرت لهذا السبب أي لقتل الأخ لأخيه. وهذه كذبة تاريخية وكان القصد منها تشويه سمعة سلاطين آل عثمان المسلمين.

قام السلطان محمد بعدة فتوحات في البلقان والأناضول حتى استطاع إرجاع الدولة العثمانية إلى ما كانت عليه زمن والده بايزيد الصاعقة من القوة والاتساع. كما قام بتجنيد كثير من رعايا الدولة العثمانية بسبب كثرة الفتوحات التي رفعت

اسمه، وكذلك قام بالتجنيد كي يخضعهم لحكمه، وكي لا يقوموا بثورات محلية عليه.

كان السلطان محمد يسرع إلى البلقان قادماً من الأناضول عندما كان يسمع بزحف بيزنطي على أراضي الدولة العثمانية في البلقان. فقد سار لقتال الألبان لأنهم كانوا قد قتلوا كل عثماني مسلم في ألبانيا، وعندما وصلهم السلطان محمد انتصر عليهم واحتل كرواتيا وفالونا على الساحل وهاجم الموره وأغار على ولاشيا عام ١٤١٨م، كما هاجم تراتسلفانيا وهنغاريا، وقد اتبع أسلوباً جديداً حيث جلب كثيراً من الأتراك العثمانيين من الأناضول، وأسكنهم في البلقان وذلك لتقوية الحاميات التركية في البلقان (٦٢) . وتسمى هذه العملية باللغة التركية Surgun.

وبعد أن خضعت له البلقان كلها سار السلطان محمد إلى الأناضول حيث أمراء الغزاة، فأخضع أمير كرمان الذي كان قد اعترف به تيمورلنك ثم أخضع كلاً من الإمارات في منتشا وآيدين وأزمير.

توفي السلطان محمد في أدرنة عام ١٤٢١م ولم يذع نبأ وفاته خوفاً من تمرد الجيش. وقد أخفى نبأ الوفاة وزيراه إبراهيم باشا وبايزيد باشا، وأرسلا إلى ابنه مراد الذي كان في الأناضول بضرورة الحضور إلى أدرنة لأن والده مريض. وعندما حضر مراد إلى أدرنة – العاصمة العثمانية الجديدة – كان والده قد دفن قبل ٤١ يوماً، فاستلم مراد الثاني السلطة خلفاً لوالده محمد جلبي أو محمد الأول.

السلطان مراد الثاني:

استلم السلطان مراد الثاني السلطنة ولم يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً، وقد استمر حكمه بين عامي ١٤١٢ – ١٤٥١م، قد تكلمنا سابقاً عن حربه مع مصطفى المزيف الذي ادعى بنسبه إلى بايزيد.

لقد قام الإمبراطور مانويل وابنه جون بإرسال مصطفى المزيف إلى غاليبولي للقيام بالحروب ضد السلطان مراد الثاني، وقد نجح مصطفى فعلاً واحتل غاليبولي واستغل الفرصة أمير كرمان الذي وجد السلطان مراد مشغولاً بحربه مع مصطفى وهجم على الأراضي التابعة للسلطان والإمارات الأخرى فاحتل أراضي حميد، كما استفادت إمارات أخرى من انشغال السلطان مراد فتحركت إمارات منتشا وآيدين وصاروخان فطردت العثمانيين الإقطاعيين من هذه الإمارات، وبسبب الأوضاع

المتردية في الأناضول اضطر مراد الثاني إلى الرجوع للأناضول لتأديب الأمراء، ولإعادة بناء جيشه وتنظيمه لمواجهة أي هجوم محتمل من أمراء الغزاة. واستغل مصطفى الفرصة لانشغال مراد في الأناضول وهاجم أدرنة ودخلها. وهكذا أصبح مصطفى في الغرب (البلقان) ، أما السلطان مراد فقد أصبح في الشرق (الأناضول) . وقد أيد مصطفى كل من البيزنطيين وأمراء الإمارات الذين أقلقوا مراداً الثاني.

لم يكتف مصطفى بأدرنة والبلقان بل قرر الهجوم على السلطان مراد الثاني في بورصة لأنه كان يطمع في الاستيلاء على جميع أراضي الدولة العثمانية. وقد تصدى له السلطان مراد الثاني في معركة أولوباد حيث هرب مصطفى إلى أدرنة ثم إلى ولاشيا وقد تبعه السلطان وقبض عليه وقتله وبذلك انتهت ثورة مصطفى المزيف (٦٣) .

وقام مراد الثاني بتأديب الإمبراطور البيزنطي لأنه ساعد مصطفى في ثورته، فحاصر القسطنطينية ٥٠ يوماً، وهي المرة السادسة التي تحاصر فيها القسطنطينية من قبل سلاطين الدولة العثمانية. فما كان من إمبراطور القسطنطينية إلا أن أرسل عام ١٤٢٢م رسائل لحلفائه أمراء الغزاة لضرب السلطان مراد الثاني من الخلف وكانت الرسائل إلى كل من أمير كرمان وأمير جرميان وحتى رسالة إلى مصطفى الحقيقي أخي مراد الثاني (٦٤) . وقام هؤلاء جميعاً بمحاصرة بورصة عاصمة السلطان مراد الثاني حيث توجد مقبرة سلاطين آل عثمان. وهذا العمل أي حصار بورصة جعل السلطان يقرر الرجوع عن حصار القسطنطينية للدفاع عن بورصة ونجح مراد في فك الحصار عن بورصة وتمكن من القبض على أخيه مصطفى وقتله لأنه والى الأعداء. أما بالنسبة لأمراء كرمان وجرميان وغيرهم فقد صاهر أمير كرمان كي يتقي شره في المستقبل، وضم إمارات آيدين وصاروخان ومنتشه للدولة العثمانية بالقوة.

تفرغ السلطان مراد الثاني بعد نجاحه في الأناضول إلى التوجه نحو أدرنة كي يثبت الحكم العثماني فيها ويقوم منها بالغزو على الأراضي البيزنطية في البلقان.

ولذلك احتاج إلى جيش يكون أكثر عدداً و عدة ويكون متفرغاً للغزو والحروب لذلك قام السلطان بتشكيل نظام الدفشيرما أي جمع الشباب للجيش وكان هذا النظام قد اتبعه من قبل السلطان بايزيد الأول. **كما أسس السلطان جيش القابي قول وقسمه إلى قسمين:**

١. قوافل الفرسان السباهية وقد انضم له الأعيان ورجال الإقطاع.

٢. الإنكشارية وقد انضم له الجيش النظامي التابع للحكومة المركزية وكان يأخذ مرتباً شهرياً.

وتمكن بواسطة هذا الجيش الذي أصبح قوياً من محاصرة القسطنطينية، وأرسل فريقاً آخر من الجيش إلى منطقة ولاشيا عام ١٤٢٢ – ١٤٢٣م، وتمكن من أن يفرض الجزية على كل من هنغاريا وولاشيا وصربيا، وقد وقعت جميع هذه الدول على دفع الجزية مقابل شراء السلم وعدم هجوم مراد الثاني عليها.

بعد هذه الانتصارات التي أحرزها السلطان مراد الثاني وتهديده للقسطنطينية عدة مرات قام جون باليولوج من الكنيسة الشرقية بمحاولة حرب صليبية ضد المسلمين، وهي محاولة توحيد كل دول أوروبا، فقام باليولوج بزيارة روما عام ١٤٣٧م وهدفه من ذلك توحيد الكنيستين الشرقية (القسطنطينية) والغربية (روما) ، وكان قصده من ذلك تأييده من قبل جميع حكام دول أوروبا ونصرته وإرسال جيوشهم لمساعدته ضد المسلمين والدفاع عن القسطنطينية.

ولقي تأييداً من بعض حكام أوروبا ولكن أغلبية الشعب في القسطنطينية لم يؤيده بل فضلوا أن يكونوا تابعين للسيادة الإسلامية على أن يكونوا خاضعين لسيادة روما [٦٥] . وأخيراً تم الاتفاق على اللقاء بين الكنيستين من ممثلين يمثلون الكنيسيتين بتاريخ ٦/٧/١٤٣٩م في مدينة فلورنسا.

وفي عام ١٤٣٧م توفي ملك هنغاريا الملك سجموند، وحصل نزاع بين أفراد العائلة المالكة على حكم هنغاريا، فاستغل السلطان مراد الثاني الفرصة وهاجم هنغاريا ففتح حصن سيفر Severin وحاصر حصن سيبو Sibiu، وهاجم صربيا وفتح حصن سيمندريا عام ١٤٣٩م بعد انتصاره على ملك الصرب جورج برونكوفيش. وبانتصاراته هذه نجح مراد في كسر الوحدة الصربية الهنغارية.

أما ملك هنغاريا الجديد لادي سلاس فقد عين على ترانسلفانيا جون هنيدي الذي أصبح قائداً عاماً لجميع جيوش المجر، وهاجم العثمانيين وانتصر عليهم في عام ١٤٤٤م واسترجع حصن سيمندريا وطرد العثمانيين من الحصن، وأخذ يلاحق الجيوش العثمانية المهزومة، وبهذا الانتصار استطاع أن يبعث الأمل من جديد في

قلوب الأوروبيين الذين كانت كل حروبهم هزائم على يد المسلمين العثمانيين.

ولو رجعنا قليلاً إلى الوراء لنرى ماذا حصل في اجتماع فلورنسا عام ١٤٣٩م بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية، لعلمنا أن اجتماع فلورنسا تمخض عن ضرورة التحضير لحملة صليبية هامة تطرد المسلمين الأتراك من كل أوروبا، فأخذ جاناكي الأمر على عاتقه بالتجول في دول أوروبا حاثاً الجموع المسيحية لحرب صليبية، وكان يطالب بجيش تعداده (٨٠،٠٠٠) كي يستطيع طرد العثمانيين من أوروبا واحتلال المضائق الهامة مثل البوسفور والدردنيل كما حثهم على استرجاع الأراضي المقدسة من المسلمين في القدس. وقد لاقت دعوته هذه التأييد من بعض ملوك أوروبا، أما الإمبراطور البيزنطي فلم يؤيده، بل أرسل رسالة إلى السلطان مراد الثاني يخبره أنه لن ينضم إلى هذه الحملة الصليبية، لكنه قام بتشجيع إبراهيم حاكم كرمان لإثارة الشغب فقط على الدولة العثمانية، وقام إبراهيم فعلاً بالهجوم من الخطوط الخلفية على مراد الثاني، مما اضطر السلطان للرجوع من البلقان لقتاله، علماً بأن مراد الثاني كان يجهز جيشاً للقاء الحملة الصليبية ولقاء هنيدي، ولكنه اضطر مؤقتاً وقف تحضيراته واستعداداته كي يتخلص من إبراهيم حاكم كرمان. وتخلص منه بالفعل.

ذكرنا قبل قليل أن جون هنيدي انتصر على العثمانيين واسترجع حصن سيمندريا سنة ١٤٤٤م، وفرح الشعب الأوروبي بذلك وبعث فيه الأمل. وقد تشجع هنيدي لقطف ثمار انتصارات أخرى على العثمانيين، فأراد أن يخلد اسمه بالانتصارات على المسلمين وقد ارتفع اسمه عالياً في كل أوروبا فعلاً، ووجد الأوروبيون أنهم اكتشفوا الشخص الذي يستطيع تحدي العثمانيين، فطلب منه البابا تشكيل حملة صليبية بعد أن اقتنع الشعب الأوروبي بذلك من تشجيع اجتماع فلورنسا، وقد انضم إلى هذه الحملة الصليبية لقتال المسلمين معظم حكام أوروبا، وأهم الجيوش التي اشتركت هي الجيوش الصربية بقيادة جورج برونكوفيش، وقوات هنغاريا بقيادة الملك لادي سلاس، وزحفت هذه القوات الصليبية جميعها نحو المسلمين مستغلة غياب السلطان مراد الثاني في الأناضول، ووصلت الجيوش الصليبية إلى مورانا عام ١٤٤٣م ثم ساروا إلى مدينة نيش واحتلوها وخضعت معظم المدن الصربية الجنوبية للحملة، وتابعت الحملة الصليبية زحفها إلى بلغاريا واحتلوا صوفيا وشجعوا الألبان بالثورة

على العثمانيين، وكانت كل هذه الانتصارات قد حصلت قبل حلول فصل الشتاء (٦٦).

كان وضع القوات العثمانية صعباً أمام هذا الاجتياح الصليبي، والذي فرض على القوات العثمانية أن تكون مبعثرة في البلقان، وثارت ألبانيا على العثمانيين فزاد الوضع سوءاً على القوات العثمانية. وقام قسطنطين واحتل أثينا، وأصبحت أدرنة عاصمة العثمانيين في أسوأ حال لأن الجنود فيها لم يستلموا معاشاتهم مدة سنتين بسبب عدم وجود غنائم. وكانت كل هذه الأعمال قد قهرت مراد الثاني وزاد قلبه تفتيتاً وغضباً عندما توفي ابنه علاء الدين، فأصابه اليأس والغم، فاستشار رئيس وزرائه واستشار زوجته مارا ما العمل؟ فكان جوابهما له بنصيحة وهي ضرورة عقد صلح واتفاقية سلم مع هذه الحملة الصليبية لأن الوضع العثماني أصبح صعباً. ولهذا فقد اقتنع السلطان ووقع معاهدة أدرنة بتاريخ ١٢/٧/١٤٤٤م اعترف بها السلطان مرغماً، وجاء في بنودها سلخ صربيا وهنغاريا عن الدولة العثمانية بينما بقيت بلغاريا تحت السيادة العثمانية، وبعد ذلك تم الصلح ولكن السلطان مراد تنازل عن الحكم لابنه محمد عام ١٤٤٤م وذهب للإقامة في بورصة حزيناً مجروح الفؤاد.

لم يتقيد الصليبيون طويلاً بهذه المعاهدة لأن نشوة النصر أعمت عيونهم، فقام الملك لادي سلاس – رغم توقيعه على المعاهدة – بالتحضير للهجوم على المسلمين الأتراك، وقد شجعه البابا على ذلك، فصمم لادي سلاس على احتلال غاليبولي وسالونيك والمضائق (البوسفور والدردنيل) لأنه إذا نجح في ذلك فإن موقف الدولة العثمانية سيكون أصعب مما هو عليه. جمع لادي سلاس الجيوش الصليبية مرة ثانية في بوادبست وسار للمعركة ولكن برونكوفينش لم يسر معه بل أخبر السلطان العثماني بهذه الحملة سلفاً. أما جون هنيدي فقد استعد لمساعدة لادي سلاس والانضمام للحملة الصليبية الجديدة. فقام الحكام الأتراك وطلبوا من السلطان مراد الثاني العودة للحرب وترك عزلته في بورصة لأن ابنه محمد صبي لا يستطيع القيام بمواجهة هذه الجيوش الصليبية الجديدة. وقد وافق مراد الثاني على ذلك فقرر لقاء هذه الجموع الصليبية بتاريخ ١٠/١٠/١٤٤٤م، واستطاع السلطان مراد الثاني تحقيق النصر وألقى القبض على الملك لادي سلاس وأعدمه فتفرق شمل الصليبيين حيث هرب هنيدي تاركاً الآلاف من المسيحيين يلاقون حتفهم أمام الجيش العثماني المسلم على يد الانكشارية. وطالب الأعيان الأتراك بضرورة رجوع مراد الثاني إلى

حكم السلطنة العثمانية بدلاً من ابنه محمد الصبي، وقبل مراد ذلك بعد هذا الانتصار وأيده الانكشارية. أما ابنه محمد فقد بقي يحتفظ بلقب سلطان وعين كلاً من زاغة نوس باشا وشهاب الدين باشا كمرافقين للصبي محمد.

لم يسكت هنيدي على هذه الهزيمة التي لحقت بالجموع الصليبية، فجهز جيشاً مكوناً من ٥٠،٠٠٠ جندي وسار به إلى لقاء السلطان مراد الثاني الذي كان في ألبانيا. وعندما علم السلطان بهذا الزحف الجديد استعد للقائه، والتقى الجيش المسلم بقيادة السلطان مراد بالجيش المسيحي بقيادة هنيدي في كوسوفا عام ١٤٤٨م انتصر فيها السلطان مراد وقضى على هنيدي وجيشه، وتابع مراد زحفه إلى كافة المناطق التي كان قد فتحها في الأعوام السابقة في البلقان.

وتوفي مراد الثاني في ١٤٥١/٢/٥م واستلم ابنه محمد الفاتح السلطنة وبما أنه كان صبياً فقد استلم الوصاية على هذا الصبي الوزير جندرلي خليل.

هوامش الفصل الثاني:

١. رافق: بلاد الشام ومصر في الفتح العثماني ١٥١٦ – ١٧٩٨ حتى حملة نابليون بونابرت. ط ٢، دمشق، ١٩٦٨م، ص ٢٥.

٢. Shaw: History of The Ottoman Empire. P. 12.

٣. P. Wittek: The Rise of the Ottoman Empire. (London 1938) . P. 17- 19.

٤. M. A. cook: A History of The Ottoman Empire. To 1730. P. 5.

٥. محمد فؤاد كوبريللي: قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ص ٩ – ١٣.

٦. عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها. ج ١. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة. ص ٣٤– ٣٥.

٧. محمد فؤاد كوبريللي: مصدر سابق، ص: ق.

٨. زياد أبو غنيمة: جوانب مضيئة في تاريخ الأتراك العثمانيين. دار الفرقان، عمان، ١٩٨٣م.

٩. محمد فؤاد كوبريللي: المصدر السابق. ص ٦٦ – ٦٧.

١٠.المصدر نفسه. ص ٨٢، أنظر أيضا رافق: العرب والعثمانيون. ص ٣٠. ثورة بابا اسحق.

١١.المصدر نفسه. ص ١٤١.

١٢.زياد أبو غنيمة: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك. ص ١٩.

١٣.محمد فؤاد كوبريللي: المصدر السابق. ص ١٥٤.

١٤.Wittek: The Rise of The Ottoman Empire. P. 17.

١٥. رافق: العرب والعثمانيون. ص ٣٢ ٣٣.

١٦.Cook: A History of The Ottoman Empire to 1730. 17.

١٧.محمد فؤاد كوبريللي: المصدر السابق. ص ١٦٣ – ١٦٥.

١٨.محمد كوبريللي: المصدر نفسه، ص ١١٨– ١١٩.

١٩.Cook: A History of The Ottoman Empire to 1730. 10.

٢٠.Ibid. p. 15.

٢١.Ibid. P. 15.

٢٢.عبد العزيز محمد الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة. ص ٣٩.

٢٣.Cook: A History of The Ottoman Empire to 1730. 15.

٢٤.محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية. ص ٤٠.

٢٥.زياد أبو غنيمة: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك. ص ٣١.

٢٦.زياد أبو غنيمة: المصدر نفسه، ص ٣٣.

٢٧.زياد أبو غنيمة: المصدر نفسه. ص ٣٢.

٢٨.زياد أبو غنيمة: المصدر نفسه. ص ١٦٦.

٢٩.زياد أبو غنيمة: المصدر نفسه. ص ١٩. أنظر أيضاً الشناوي: دولة مفترى. ص ٣٩.

٣٠.زياد أبو غنيمة: المصدر نفسه. ص ٢١ – ٢٢.

٣١.الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها. ص ٤٣.

٣٢.زياد أبو غنيمة: مصدر سابق. ص ٧٩.

٣٣.بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس، عكا ١٩٧٤م.

٣٤.عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيين. ص ٣٤.

٣٥.رافق: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

٣٦.Shaw: History of The Ottoman Empire. P. 16.

٣٧.محمد فريد بك المحامي: مصدر سابق. ص ٤٠. أنظر أيضاً بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية. وذهب بروكلمان إلى أبعد من ذلك عندما قال أن أورخان انتزع أيضاً من الصبيان المسيحية وأدخلهم في جيشه الجديد. وقصد بروكلمان أن أورخان أراد أن يستبدل جنود المسلمين بمسيحيين.

٣٨.زياد أبو غنيمة: مصدر سابق، ص ١٢٢.

٣٩.زياد أبو غنيمة: المصدر نفسه ص ١٢٦– ١٢٧.

٤٠.زياد أبو غنيمة: المصدر نفسه ص ١٢٧.

٤١.زياد أبو غنيمة: المصدر نفسه ص ١٤٦.

٤٢.Shaw: History of The Ottoman Empire. P. 18.

٤٣.Cook: A History of The Ottoman Empire to 1730. 23.

٤٤.رافق: بلاد الشام ومصر. ص ٣٧.

٤٥.محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العثمانية. ص ٤٦.

٤٦.زياد أبو غنيمة: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك. ص ٢٩، ١٦٧.

٤٧.زياد أبو غنيمة: المصدر نفسه، ص ٤٠.

٤٨.زياد أبو غنيمة: المصدر نفسه، ص ٩٦.

٤٩.زياد أبو غنيمة: المصدر نفسه، ص ١٧٤.

٥٠.Shaw: History of The Ottoman Empire. P. 34.

٥١.قام تيمورلنك بعدة معارك نجح فيها كلها في الشرق، ثم سار نحو الغرب حيث وصل إلى جبال طوروس، ثم تقدم نحو شمال إيران حيث احتل شيراز وأصفهان، ثم وصل بغداد واحتلها عام ١٣٩٤م. وفي زحفه هذا هدد المماليك والعثمانيين على حد سواء. قرر تيمورلنك بعد هذه الانتصارات الزحف نحو دمشق لضرب المماليك، فاحتلها ثم هدد مصر، ثم ذهب إلى قتال العثمانيين في الأناضول، حيث التقى بايزيد الأول في معركة أنقرة عام ١٤٠٢م، السلطان العثماني وبدلاً من أن يكمل تيمورلنك هذا الانتصار ويزحف لإخضاع كل الممتلكات العثمانية رجع إلى الشرق.

٥٢.Ibid p 34.

٥٣.يوسف آصاف: تاريخ سلاطين آل عثمان. تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي. دار البصائر، دمشق، الطبعة الثالثة. ص ٤٦.

٥٤.محمد فريد بك المحامي: مصدر سابق. ص ٥٠.

٥٥.زياد أبو غنيمة: مصدر سابق. ص ٩٧.

٥٦.Shaw: History of the Ottoman Empire. p. 38.

٥٧.محمد فريد بك المحامي: مصدر سابق. ص ٥٢.

٥٨.Shaw: History of the Ottoman Empire. p. 38.

٥٩.ذكرت بعض الكتب التاريخية أن إعدام الشيخ بدر الدين كان سنة ١٤٢٠م. وكان الشيخ قد حوكم أمام هيئة من كبار العلماء والقضاة. وقد وقع الشيخ بدر الدين بنفسه على الفتوى اعترافاً بذنبه وتم إعدامه شنقاً على ملأ من الناس في السوق الرئيسي في مدينة شيراز. أنظر أيضاً أبو غنيمة: مصدر سابق، ص ١٧٦.

٦٠.زياد أبو غنيمة: المصدر نفسه. ص ١٧٥.

٦١.زياد أبو غنيمة: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

٦٢.Shaw: History of The Ottoman Empire. P. 41.

٦٣.Ibid. p. 44- 45.

٦٤. اتخذ مصطفى مدينة إزنك عاصمة له. وهو ليس مصطفى المزيف.

٦٥.Shaw: History of The Ottoman Empire. P. 50.

٦٦.Ibid. P. 51.

الفصل الثالث

بعض مظاهر الإدارة العثمانية

الفصل الثالث

بعض مظاهر الإدارة العثمانية

قبل البدء في الحديث عن الفتوحات العثمانية الأخرى زمن السلطان محمد الفاتح، يجدر بنا أن نتعرف على بعض مظاهر الإدارة في الدولة العثمانية. والقصد من ذلك هو فهم ما كان من نظام إداري عثماني في القرنين الرابع والخامس عشر، ومتابعة وصف مظاهر الإدارة العثمانية عن القرون اللاحقة، ومعرفة من كان يتحكم في أمور الدولة العثمانية، وكيف تطورت من عشيرة تركمانية إلى إمارة ثم سلطنة ثم إمبراطورية عثمانية واجهت الدول المسيحية وخاضت معها حروباً طاحنة وقضت على الإمبراطورية البيزنطية وعلى السلطنة المملوكية.

ولو نظرنا وتفحصنا أسلوب العثمانيين في الفتح وأسلوب المعيشة في بداية تأسيس الإمارة العثمانية لوجدنا أن العثمانيين اعتزوا بالإسلام وطبقوا شعائره في حياتهم اليومية وفي الفتوحات الكثيرة. وكانت بعض المناطق المفتوحة تخضع للسيطرة المباشرة للعثمانيين وتصبح أراضٍ عثمانية، والبعض الآخر يخضع للسيادة العثمانية الاسمية كأن يذكر اسم السلطان في خطبة يوم الجمعة أو يظهر اسمه على النقود.

كان العثمانيون يضعون في المناطق المفتوحة حاميات وقلاعاً قوية كي تبقى هذه المناطق تابعة للدولة العثمانية. وكان الجنود يأخذون إقطاعات يستقر فيها الجندي ويدافع عن أرضه التي أقطعها له السلطان، وكثيراً ما كانت الدولة العثمانية تعفي بعض القرى من الضرائب كي يشتروا ولاء هذه القرى للحكم والإدارة العثمانية وذلك خوفاً من الثورات ضد العثمانيين في هذه القرى والمدن. وكمثال على ذلك ما تذكره سجلات قونية وقيصرية من أن سكان هاتين المدينتين قد أُعفوا من الضرائب بسبب ولائهم الذي أظهروه للدولة أثناء قتال العثمانيين مع أوزون حسن (١).

واتبع العثمانيون أسلوب نقل جماعات تركية من الأناضول إلى البلقان أو إلى البلاد المفتوحة لإسباغ الصفة التركية عليها ولمحاولة أن يكون العنصر التركي الإسلامي مساوياً إلى حد ما مع سكان البلاد من غير الأتراك، وعملية نقل السكان تسمى: Surgun كما ذكرنا سابقاً.

وكمثال على نقل السكان من مكان لآخر ذاك الفرمان (القرار) السلطاني الصادر بتاريخ ١٥٧٢/٩/٢٤م والذي نص على نقل عائلات من ولايات سيواس وكرمان وذي القدر إلى جزيرة قبرص التي فتحها العثمانيون آنذاك (٢) . وربما كان القصد من نقل هذه القبائل إلى قبرص أو حتى من أي مكان لآخر في الدولة العثمانية هو لتأديب هذه القبائل وهذا هو أسلوب النفي، وربما كان أيضاً لزيادة العنصر التركي المسلم في المناطق المسيحية.

الأفراد الذين كان على عاتقهم إدارة أمور الدولة العثمانية:

١. السلطان العثماني:

كانت إمارة عثمان على رأسها أمير أو قائد قبيلة عثماني، وكان يرحل مع عشيرته في بداية تكون الإمارة، وكانت عاصمته في أي مكان يحل فيه مع عشيرته، حتى أن بعض أفراد عشيرته كان يرحل عنه إذا توقف الغزو أو توقفت الغنائم. وفي زمن الإمارة العثمانية كان الأمير عثمان يقوم بالصلح بين القبائل والعشائر إذا حصل بينها شجار أو صراع، فلم يكن الأمير إلا وسيطاً للصلح ولكنه كان يطبق الشريعة الإسلامية في أمور الصلح بين القبائل (٣) .

وعندما ازدادت الفتوحات العثمانية أصبح الأمير العثماني مشغولاً بأمور هامة أخرى عدا عن أمور أفراد عشيرته، وكان الأمراء العثمانيون في بداية أمر الإمارة أقوياء وظلوا كذلك حتى نهاية حكم السلطان سليمان القانوني. وكان الأمير العثماني قد حصل على لقب سلطان الروم (لأن المنطقة كانت تابعة للروم) من الخليفة العباسي في مصر عام ١٤٩٤م، وكان السلطان العثماني يلقب باديشاه أي الحاكم الأعلى، أو لقب خنكار Hunkar أي السلطان الأعظم.

وفي عام ١٣٦٠م استولى السلطان مراد الأول على مدينة أدرنة واتخذها عاصمة للدولة العثمانية عام ١٣٦٩م وأطلق على نفسه لقب "خليفة الله". كما اتخذ السلطان محمد الفاتح بعد أن فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م لقب "حامي الحرمين الشريفين". كان العثمانيون يعلقون أهمية كبيرة على هذا اللقب لأنه يدعم زعامتهم على العالم الإسلامي. ثم تمسك السلاطين من بني عثمان بلقب "خليفة" لأسباب سياسية، وأطلقوا هذا اللقب علناً على أنفسهم خاصة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين (٤).

نستطيع تقسيم فترة سلاطين الدولة العثمانية إلى قسمين، القسم الأول: وهم عشرة سلاطين حكموا ٢٦٧ سنة تقريباً (١٢٩٩ - ١٥٦٦م)، وقامت على سواعدهم عظمة الدولة من حيث الفتوحات في أوروبا وأسيا وأفريقيا. والقسم الثاني: وهم ٢٦ سلطاناً حكموا ٣٥٧ سنة تقريباً (١٥٦٦ - ١٩٢٢م). وفي زمنهم توقفت الفتوحات وبدأ التراجع والتقهقر التدريجي حتى سقوط الدولة العثمانية. وكان آخر السلاطين هو السلطان محمد السادس حيث حكمها بصفته سلطاناً حتى نوفمبر (تشرين ثاني) عام ١٩٢٢م، وأخرج من استنبول مبعداً بتاريخ ١٩٢٢/١١/١٧م إلى مالطا، واختار المجلس الوطني العثماني أميراً عثمانياً هو عبد المجيد بن عبد العزيز ليكون خليفة للمسلمين لا سلطاناً. ثم ألغيت الخلافة عام ١٩٢٤م، وغادر الخليفة استنبول مع أفراد أسرته في ١٩٢٤/٣/٤م (٥).

كان السلطان يقود الجيوش العثمانية في المعارك ضد الأعداء، فكان في مقدمة الجيش منذ بدء الإمارة العثمانية حتى بداية فترة ضعف الدولة العثمانية. وفي فترة الضعف لم يكن السلطان يسير إلى المعارك على رأس جيش بل كان يظل في القصر، وكثيراً ما كان السلطان يترك تصريف أمور الدولة في فترة ضعفها إلى كبار الموظفين مثل الصدر الأعظم أو الكزلار آغا، وكان ينصرف إلى حياة القصر الخاصة (حياة الحريم)، وبسبب ضعف السلاطين أخذ الجيش الانكشاري يفرض سلطته أحياناً على السلطان الذي أصبح موقفه ضعيفاً أمام الجيش.

كان السلطان يعين قبل وفاته وريثاً للعرش أحد أبنائه، واستمرت الحالة هذه طيلة فترة حكم العثمانيين إلا في بعض فترات كان الأخ يتبع أخاه في الحكم كما حصل عندما توفي السلطان أحمد الأول عام ١٦١٧م فخلفه أخوه مصطفى الأول لأن

أبناءه كانوا صغاراً. ثم صدر فرمان سلطاني فيما بعد جاء فيه أن تعطى أمور السلطنة إلى أكبر الأعضاء سناً في أسرة عثمان من الذكور، وهذا الفرمان قلل من نصيب الابن في تولي السلطنة بعد أبيه (٦) .

واجبات السلطان:

لقد حرص العثمانيون على صدق انتمائهم إلى الهوية الإسلامية، والدلالة على ذلك ما نجده في دستور الدولة العثمانية من واجبات السلطان **وأهم هذه الواجبات**:

١. أن يخضع السلطان لأحكام الشريعة الإسلامية خضوعاً كاملاً.

٢. أن يجل الشريعة الإسلامية ويبجل علماءها.

٣. أن يحمي مقدسات المسلمين وينظم شؤون الحج بعناية.

٤. أن يدافع عن تخوم المسلمين ضد أعدائهم (٧) .

وكان العثمانيون يطلقون على الجندي المسلم اسم Mahmatlick أي الجندي المحمدي، وذلك تيمناً باسم سيد المجاهدين محمد صلى **الله** عليه وسلم.

لقد أطلق لقب "سلطان" على أمير الغزو بعد أن توسعت الدولة العثمانية، ووصلت حدودها إلى البلقان، وكانت خزينة الدولة تختلف عن خزينة السلطان لأنه كثيراً ما كان يتبرع من أمواله الخاصة على مشاريع إسلامية هامة كي تخلد اسمه، فقد بُنيت مدارس دينية وجوامع وطبق نظام الشريعة الإسلامية في جميع دوائر الدولة العثمانية الحكومية من قبل السلاطين، كما أنشئت دوائر أخرى عدا عن الجوامع بعد أن توسعت الدولة مثل دوائر الوزارات (٨) .

رغم كل ما ذكرناه من الناحية الإسلامية إلا أن بعض السلاطين قد تزوج من مسيحيات، وكانت أمهات بعض السلاطين مسيحيات، وكانت هذه النساء تتخذ مرشدين مسيحيين وتؤثر هذه الأم المسيحية أو الزوجة المسيحية على السلطان كما حصل زمن بايزيد الأول الذي تحول من عمله كغاز على الأرض البيزنطية إلى معتدٍ على الإمارات الإسلامية التركمانية في الأناضول (٩) .

وفي الوقت نفسه يجب ملاحظة أن السلطان كان يقتل أخاه أو عمه أو قريبه لأن الأخ أو العم كان يوالي الأعداء ويساعدهم في هجماتهم على السلطان المسلم.

لم يتخذ السلاطين العثمانيين لقب خليفة إلا في نهاية القرن التاسع عشر، ولكن ذلك لا يعني أن اسم السلطان كان مجرد اسم يرفع على المآذن في الجوامع، بل كان يدعى له بأمير المؤمنين وبالخليفة على المنابر، أما في الوثائق الرسمية فلم يلقب السلطان بخليفة إلا في معاهدة كوجوك كاينارجا المعقودة بين الدولة العثمانية وروسيا عام ١٧٤٤م (١٠) . وكذلك لاحظنا اسم خليفة على السلطان في دستور الدولة العثمانية عام ١٨٧٦م، وكان قصد السلطان عبد الحميد من اتباعه لقب خليفة بالإضافة إلى كلمة سلطان، هو لإخافة الدول الأجنبية الأوروبية وأهمها بريطانيا، لأنها كانت تحكم ملايين المسلمين في الهند وغيرها من العالم، فكلمة خليفة عندما كان يسمعها المسلم في أي مكان كان يعتبر نفسه أنه تابع لذاك الخليفة حتى ولو لم يكن هذا المسلم من رعايا الدولة العثمانية.

ولقب السلطان محمد الفاتح سلطان البرّين والبحرين وذلك بعد أن فتح عاصمة الدولة البيزنطية «القسطنطينية» (١١) . وعندما دخل السلطان سليم الأول القاهرة بعد انتصاره على المماليك عام ١٥١٧م، وكان الخليفة العباسي مقيماً في القاهرة، سلّم الخليفة العباسي إلى السلطان سليم أمور الخلافة وتنازل عنها طوعاً (١٢) ، ولكن السلاطين العثمانيين لم يتخذوا لقب خليفة على أنفسهم إلا في وقت متأخر من حكم الدولة العثمانية، ولم نعرف عن تنازل الخليفة العباسي عن الخلافة للسلطان سليم إلا في وقت متأخر أيضاً.

٢. الصدر الأعظم:

كان هذا المنصب، الوزير الأعظم، أو «الصدر الأعظم» بمثابة رئيس الوزراء في وقتنا الحالي. وقد بدأ السلاطين العثمانيون بتعيين وزراء لهم بعد أن توسعت الدولة العثمانية نتيجة الفتوحات في الأناضول في آسيا الصغرى، والبلقان في أوروبا. ومثال على ذلك عندما عين السلطان أورخان الوزير علاء الدين كوزير أول ثم أصبح رئيساً للوزراء فيما بعد (١٣) .

وكان منصب الصدر الأعظم منذ ذاك الوقت وحتى عام ١٤٥٣م أي حتى فتح القسطنطينية يتقلده مسلمون أحرار من عائلة جندرلي مثل قرة خليل، ولكن لا يمنع هذا أن يكون رئيس الوزراء رجلاً أسلم وحسن إسلامه بعد أن كان مسيحياً، وهناك كثير ممن تقلد منصب الصدارة العظمى من أصل مسيحي.

كان هذا المنصب في بداية الدولة العثمانية عبارة عن تقديم المشورة للسلطان من قبل الشخص الذي يحظى بهذا المنصب، ثم أصبح الصدر الأعظم يتولى أموراً هامة يعينه السلطان لتنفيذها مثل قيادة الجيوش للمعارك وتنظيم أمور الجيش حتى أن السلطان سلمه خاتمه للتوقيع نيابة عنه (١٤) . ولم يكن ذلك إلا في فترة ضعف الدولة العثمانية، ولكن الوزير الأعظم كان يعيد الخاتم السلطاني عندما يعزل من منصبه.

أصبح مركز الصدر الأعظم مهماً منذ أن أصدر السلطان محمد الثاني (الفاتح) «القانون نامه» والذي حدد بموجبه وظيفة كل إداري في الدولة وأعطى الوزير الأعظم أهمية بالغة حتى جعله وصياً فعلياً على الدولة العثمانية (١٥) .

كما أن السلطان سليمان القانوني رفع مركز الصدر الأعظم وبين أهمية هذا المركز في القانون الذي أصدره، وعرف السلطان سليمان بالقانوني لكثرة القوانين التي أصدرها لتنظيم الدولة. فصدر في القانون مثلاً بصدد منصب الوزير الأعظم أن أي شخص يتقلد هذا المنصب يجب أن يكون مواظباً على أداء الصلاة في أوقاتها (١٦) .

كما كان للصدر الأعظم حرس خاص لحمايته وكانت له حاشية مثل السلطان. وقد اهتم السلطان بالوزير الأعظم ففوضه سلطات واسعة، فمثلاً أوجد السلطان محمد الرابع مقراً رسمياً في القصر للوزير الأعظم سمي مقره «بالباب العالي» وكان ذلك لوزيره الأعظم درويش محمد باشا عام ١٦٥٤م. وبدأ الوزير الأعظم يقوم بتدبير أمور الدولة من هذا المكان بدلاً من القصر السلطاني. وكان الوزير الأعظم يجمع الوزراء في قصره «الباب العالي» الذي أصبح المقر الأصلي للحكومة. ومع مرور الزمن أطلق لقب الباب العالي على الصدر الأعظم، فمثلاً ذكرت الكتب التاريخية «أصدر الباب العالي أمراً» أي الذي أصدره هو الصدر الأعظم (١٧) . ولأن مركز ومنصب الصدر الأعظم من أكثر المراكز الهامة في الدولة بعد السلطان لذلك اهتم السلطان باختيار الشخص المناسب لهذا المنصب.

وفي غياب الوزير الأعظم كان يقوم مقامه في شؤون هذا المنصب قائم مقام ويجب أن يكون هذا برتبة وزير كي يحل محل الصدر الأعظم. وفي غياب السلطان وغياب الصدر الأعظم كان بعض موظفي الدولة الكبار أو حكام الولايات ينوبون

محل الصدر العظم ويكونون برتبة وزراء، وكانت المجالس التي يحضرها هؤلاء الوزراء في غرفة ذات قبة في القصر لذلك أطلق عليهم وزراء القبة.

وفي القرن السابع عشر عندما دخل السلاطين العثمانيون في مرحلة الضعف كان الصدر الأعظم يقوم بمهام كثيرة من اختصاص السلطان في تصريف أمور الدولة، وبازدياد ضعف السلاطين ظهر وزراء عظام طغت شهرتهم على اسم السلطان نفسه مثل عائلة كوبريللي. وقد قام أفراد من هذه العائلة بملء هذا المنصب عن جدارة حتى أصبح هذا المنصب وراثياً في هذه العائلة (١٨) . واستطاعت هذه الأسرة أن تعيد للدولة العثمانية هيبتها رغم ضعف السلاطين.

وفي مرحلة ضعف السلاطين العثمانيين كان هناك تنافس بين الصدر الأعظم والكزلار آغا (وهو الموظف الذي كان يشرف على شؤون الحريم في القصر) وكان تنافسهما على تدبير أمور الدولة واضحاً، حتى أن الولاة في ولاياتهم انعكست عليهم هذه المنافسة وتقرر مصيرهم تبعاً لذلك التنافس والصراع. فمثلاً قام الكزلار آغا وعزل أسعد باشا العظم عن ولاية الشام عام ١٧٥٧م علماً بأن أسعد باشا كان يعتمد على الوزير الأعظم الذي هو في رتبته أعلى من رتبة الكزلار آغا (١٩) .

وكان بعض الموظفين تابعين للوزير الأعظم مباشرة مثل وظيفة الكاخيابيك، وهو بمثابة وزير الداخلية اليوم لأنه كان مسؤولاً عن تصريف أمور الدولة فيما يتعلق بالشؤون الداخلية.

٣. الكزلار آغا:

وهو الرجل الذي كان يشرف على شؤون الحريم في القصر. ويسمى أيضاً «آغا دار السعادة». كان الشخص الذي يصل إلى هذا المنصب يساعده عدد من الخصيان الطواشية وكان يؤتى بهم من القفقاس، أما في عهد السلطان مراد الثالث ١٥٧٤ – ١٥٩٥م فقد أصبح للخصيان الطواشية السود اليد العليا في شؤون الحريم (٢٠) .

وقد مرت على السلاطين العثمانيين فترات ضعف تحكمت والدة السلطان أو زوجة السلطان في الحكم لدرجة أن وقعت أم السلطان وزوجته في نزاع بينهما أثرت على مجرى الحوادث في الدولة (٢١) .

وحدثت في الفترة الواقعة بين ١٦١٧ – ١٦٢٣ أن دب نزاع بين الحريم في القصر وهن أمهات كل من مصطفى الأول، وعثمان الثاني، ومراد الرابع [٢٢] ، وأخذت كل واحدة تخطط أن يكون ابنها هو السلطان الفعلي في الدولة.

أصبح الكزلار آغا في منصب لا يحسد عليه في القرن الثامن عشر بسبب ازدياد نفوذه على الحريم وحتى على نفسه. حتى أن الكزلار آغا دخل في صراع مستمر، بسبب الحسد، مع الوزير الأعظم، علماً بأن رتبة الكزلار آغا من ناحية نظرية تأتي بعد رتبة الوزير الأعظم ورتبة شيخ الإسلام.

٤. الديـوان:

هو بمثابة مجلس رئاسة الوزراء، وقد تشكل الديوان في العهد العثماني بعد أن امتدت الدولة العثمانية وتوسعت، لذلك كان لا بد للسلطان من تعيين وزراء لإدارة شؤون مختلفة للاعتماد عليهم في تصريف أمور الدولة. ولم يكن هؤلاء الوزراء من سلالة آل عثمان، وعين السلطان أيضاً حكاماً إداريين (ولاة) لإدارة المناطق المفتوحة، وكانت وظيفة كل منهم برتبة وزير وهم من غير العثمانيين أيضاً. كما أنشئت في الدولة العثمانية وزارات أخرى مثل الدفتر دارية (وزارة المالية) وآغا الانكشارية (قائد الجيش) وغيرها من الوزارات.

والديوان هو مجلس كان يضم جميع رؤساء الدوائر في الدولة وجميع الوزراء، وكانت الاجتماعات فيه لبحث القضايا الهامة للدولة ولبحث أمور تتعلق بتقرير السلم أو الحرب، وكان السلطان يترأس اجتماعات الديوان حتى زمن السلطان محمد الفاتح الذي أعطى مهمة إدارة الديوان للصدر الأعظم. فأصبح الصدر الأعظم يترأس اجتماعات الديوان. وأهم الوزراء الذين كانوا ملزمين بحضور اجتماعات الديوان– عدا عن الصدر الأعظم– كل من الدفتر دار، وآغا الانكشارية، وشيخ الإسلام، وقاضي عسكر الأناضول، وقاضي عسكر الروملي (البلقان) ، وقاضي عسكر أفريقيا، وأمير البحر (قبودان باشا) ، وصاحب التوقيع المسؤول عن خاتم السلطان، وغيرهم من الوزراء. وكان الديوان يعقد أربع مرات أسبوعياً في أيام السبت والأحد والاثنين والثلاثاء [٢٣] ، واقتصرت مهمة السلطان على مقابلة مجلس الوزراء (الديوان) في نهاية كل أسبوع، والديوان هو مكان لاجتماع رؤساء الوزارات والموظفين الكبار في الدولة.

وكان يطلق على اجتماعات الأشخاص البارزين ديوان. وما زالت هذه الكلمة شائعة في وقتنا الحاضر وتعني اجتماع أفراد عائلة أو حمولة معينة في مكان مخصص لاجتماعات العائلة.

وقد اختلف نظام الديوان من ولاية إلى أخرى، ففي ولاية مصر مثلاً كان الديوان يعقد اجتماعاته كل أسبوع ٤ مرات، وذلك حسب القانون الذي صدر عام ١٥٢٥م، أما في ولاية الشام فكان الديوان يعقد جلساته عندما تستدعي الحاجة ذلك. كما اختلفت نوعية الأشخاص الذين كانوا يحضرون الاجتماعات حسب الظروف والمواضيع المطروحة [٢٤] .

وربما أنشأت الدواوين في الولايات خوفاً من أن يعلن الوالي استقلاله عن السلطنة العثمانية. لذلك أُنشئ ديوان إلى جانب كل والٍ مهمته إسداء النصح والإرشاد إلى الوالي وكذلك مراقبته. وكان الوالي يرجع إلى مشورة الديوان قبل تنفيذ أي عمل هام.

كان الديوان يتألف من كبار ضباط الفرق العسكرية وعدد من الموظفين والعلماء والأعيان في الولاية. لذلك أصبح من الصعب على الوالي القيام أو حتى التفكير بالقيام بالانفصال عن السلطان أو التصرف ضد رغبة الدولة [٢٥] . وكان وجود ضباط الجيش كأعضاء بارزين في الديوان قد هدد الوالي وأخذ ضباط يتدخلون في الأمور السياسية بالإضافة إلى وظيفتهم العسكرية.

كان السلطان يعين الوالي أو الباشا لمدة سنة واحدة قابلة للتجديد في بعض الحالات، لذلك تصرف بعض الولاة بمحاولة ابتزاز أموال الشعب في سنة حكمهم للولاية. ومن المفهوم أن السلطان كان قد أعطى الوالي صلاحيات واسعة لإدارة ولايته وصلت حتى إعطائه حق تنفيذ حكم الإعدام. ولكن الوالي خضع في الوقت نفسه لمراقبة الديوان.

٥. وزير المالية (الدفتر دار):

كان السلطان العثماني في بداية تأسيس الدولة العثمانية يحصل على خُمس الغنائم أثناء الحروب، وله إقطاعات تدعى الإقطاع الخاص، وكان يحصل على موارد من الغنائم ومن الإقطاع الخاص ويعطيها إلى الجنود ورجال الإدارة في الدولة، لذلك

لم يكن بحاجة إلى وزير مالية في بداية تأسيس الدولة، ولكن عندما أصبحت الدولة العثمانية تتسع تدريجياً نتيجة الفتوحات، بدأت في تشكيل جيش الانكشارية، وأعطت معاشات لهذا الجيش وللمسؤولين عن الإدارة. لذا رأى الوزير الأعظم جندرلي قرة خليل باشا (١٣٦٨ – ١٣٧٣) ضرورة إيجاد وزارة للمالية أو خزينة المالية، وعندما تأسست، أصبحت خزينة السلطان منفصلة عنها. وسميت خزينة الدولة بالخزنة الأميرية وكان المسؤول عنها الدفتر دار أو وزير المالية.

كان الدفتر دار يشرف على أربع دوائر مالية كلها تابعة لإدارته وهذه الدوائر هي:

١. **دائرة التسجيل**: وهي المسؤولة عن شؤون الإقطاعات وتسمى (الدفتر حانة) وكان رئيسها يدعى الدفتر أميني، وهو مسؤول عن مكاتب تابعة لإدارته وهي:

أ. *دائرة الإجمال*: Icmal وهي تتضمن ميزانيات الأشخاص في المقاطعات، وتعنى بالوثائق التي تحدد فيها حدود الولايات وجميع الإقطاعات.

ب. *دائرة المفصّل*: وهي التي تحتوي على سجلات مفصلة عن الداخل والخارج من المصروفات، وتعنى بالملكية الخاصة أيضاً.

٢. **دائرة المحاسبة**: وتحتفظ بالإيصالات (إيصالات الاستلام) .

٣. **دائرة المراقبة**: وتحتوي على سجلات معاشات الجيوش ومصروفات القصر.

٤. **دائرة الموقوفات**: وهي الدائرة التي تحتوي على سجل الأراضي [٢٦] .

وكان يساعد الدفتر أميني موظفان رئيسيان هما كاخيا الدفتر وكان مسؤولاً عن الإقطاع المعروف بإقطاع الزعامت، والموظف الآخر هو دفتر دار التيمار وكان عمله مختصاً بالإقطاع المعروف بإقطاع التيمار [٢٧] . وقد وجد مثل هؤلاء الموظفين أيضاً في الولايات.

وعندما أخذت الدولة العثمانية في الضعف التدريجي خفّت وظيفة الدفتر أميني المسؤول عن شؤون الإقطاعات، وزادت مسؤوليات الدفتر دار في العاصمة (المسؤول عن الشؤون المالية) لأن اعتماد الدولة أصبح يزداد على الموظفين والجند الذين يأخذون المعاشات النقدية بدلاً من الإقطاعات. وتسمى دائرة الشؤون المالية بالدفتر داريه التي يرأسها الدفتر دار وكانت مهمته حسابات الدولة من واردات وصادرات.

كما عين السلطان العثماني دفتر دار لمنطقة آسيا الصغرى (الأناضول) ، ودفتر دار لروميليا (البلقان) ، كما وجد دفتر دار لكل ولاية وكانوا مرتبطين بالعاصمة استنبول.

وكانت أراضي الدولة العثمانية مقسمه إلى إقطاعات؛ كي يسهل جمع الضريبة من كل مقاطعة. وكان يُعطى حق جمع الضريبة لأشخاص يسمون مقاطعجية أو ملتزمين. ولكنهم كانوا يعينون لمدة سنة واحدة على الأكثر، فكانوا يستغلون ظروف قصر مدة حكمهم ويزداد ابتزاز الأموال من الفلاحين، حتى أن البعض منهم استمر في عمله أكثر من سنة أثناء ضعف الدولة العثمانية، وتحدى الملتزمون الوالي والسلطان وبقوا على رأس عملهم يجمعون الأموال ولا يوصلونها إلى المحصل الذي عليه أن يوصلها إلى خزانة الدولة أو إلى الدفتر دار في استنبول، وكمثال على ذلك ظاهر العمر في فلسطين الذي كان يجمع الأموال والضرائب من الفلاحين بصفته ملتزم، وعليه أن يرسل الأموال إلى المحصل الذي يجمع الأموال من الملتزمين. وكان المحصلون يرسلون الأموال إلى الوالي الذي كان عليه أن يوصل هذه الأموال إلى العاصمة.

وفي أواخر القرن السابع عشر أصدرت الدولة العثمانية نظام المالكانة ويعني منح الالتزام للملتزمين مدى الحياة، وبذلك أصبح الملتزم (محصل الضرائب) لا يخاف على مركزه لذلك قل ابتزاز الأموال من الفلاحين؛ لأن الملتزم لم يعد مضطراً للإسراع في ابتزاز الأموال من الفلاحين [٢٨] .

٦. الجيش العثماني:

كان الجيش العثماني في بداية تأسيس الدولة العثمانية مكوناً من فرق من الجنود الأتراك المسلمين والخيالة، وكانت كل فرقة تتبع عشيرة على رأسها رئيس العشيرة ورجل دين مسلم [٢٩] . وكان هؤلاء الفرسان يحملون أسلحة مثل القوس والنشاب والسهام والسيف، وعندما كانوا يغزون الأراضي البيزنطية كانوا يحصلون على غنائم وفيرة. وكان على رأس هذه العشائر كلها السلطان كقائد للجيش.

نشأ العثمانيون الأوائل في الأناضول بين الإمارات المسيحية التي ناصبتهم العداء، لذلك اعتز العثمانيون بالإسلام كدعامة لقوتهم واتحادهم مع الإمارات

الأخرى. ولشعورهم بالأقلية بين المسيحيين؛ واعتمد العثمانيون على الإسلام أساساً لنشأة جيشهم وأساساً لنشأة دولتهم ثم إمبراطوريتهم (٣٠) .

كان السلطان العثماني يمنح إقطاعاً للجندي الفارس السباهي الذي قدم خدمة عسكرية واشترك في المعارك، ولو نظرنا إلى تكوين الجيش العثماني لوجدنا أنه مع مرور الزمن واتساع رقعة الدولة أصبح يضم عدا عن الجنود الإقطاعيين جنوداً يعتمدون على معاشات وهم الانكشارية وجنوداً لحماية السلطان وهم المرتزقة أو الجند الخاص. **ويتكون الجيش من الجنود التالية:**

أ. **الجنود الإقطاعيون:**

إن الجنود الإقطاعيين الذين يحصلون على إقطاع هم الفرسان أو السباهية (Sipahi) ، وكان الجندي يقدم خدماته للدولة مقابل إعطائه إقطاعاً بمثابة معاش أبدي يرتزق منه السباهي، وتختلف مساحة الإقطاعات من رتبة شخص إلى رتبة شخص آخر. فهناك إقطاع التيمار وهو إقطاع صغير يتراوح دخله السنوي بين ٣،٠٠٠ و٢٠،٠٠٠ أقجة (٣١) . وهي عملة عثمانية، وتعادل الأقجة ¼ درهم. وكان على صاحب التيمار أن يقدم إلى الجيش عدداً من الفرسان يتراوح ما بين اثنين إلى أربعة جنود يقومون أصلاً في خدمة أرضه (تيماره) .

وهناك إقطاع الزعامت، نسبة إلى الزعيم – ويتراوح دخل الزعامت من ٢٠،٠٠٠ إلى ١٠٠،٠٠٠ أقجة، وعلى صاحب الزعامت أن يقدم للجيش العثماني جندياً واحداً عن كل خمسة آلاف أقجة.

وهناك الإقطاع الخاص، وهذا النوع من الإقطاع كان يمنح إلى أفراد الأسرة العثمانية الحاكمة والمقربين إليهم والولاة في الولايات العثمانية. وكان دخل الإقطاع الخاص يزيد على ١٠٠،٠٠٠ أقجة. وكان هذا الإقطاع يختلف عن سابقيه؛ لأنه لا يخضع لمراقبة الدفتر دار.

كان إقطاع التيمار يمنح إلى شخص يدعى آلاي (٣٢) Alay، وكان مجموع هؤلاء الأشخاص يخضعون إلى بك يشرف عليهم كلهم. ومجموع أراضي تيمار تشكل سنجق. ومجموعة السناجق تخضع إلى بيلربي بك Beyler Beyi. فكانت رتبهم حسب التسلسل

العسكري الإقطاعي كما يلي (آلاي، بك، بيلربي) أما إقطاعاتهم حسب المساحة في الولاية فكانت كالتالي (تيمار، زعامت، خاص) .

وكان البيلربي أو بك البكوات الذي هو أعلى رتبة في الناحية العسكرية الإقطاعية يمنح الإقطاع إلى من يصلح للخدمة العسكرية. ولكن في عهد سليمان القانوني عام ١٥٣٠م سحب السلطان هذه الصلاحية من حكام الولايات وأصبح منح الإقطاع من اختصاص الحكومة المركزية، بينما بقي للوالي صلاحية منح تيمار صغير أو إعطاء توصية إلى من يستحق الإقطاع. ويأخذ صاحب التوصية هذه إلى العاصمة العثمانية كي يحصل من السلطان على براءة لكي يمنح الإقطاع له، ولكن التوصية من حاكم الولاية كانت لا تلزم السلطان بإعطاء البراءة إلى أي شخص كان. والبراءة من السلطان للحصول على تيمار هي أقوى وأضمن من التيمار الممنوح من حاكم الولاية للفرد الذي لم يحصل على براءة من السلطان (٣٣) . وكان التيمار يقسم إلى مجموعة حصص تخضع كلها إلى صاحب التيمار، ولكن الحصص لا تورث من الأب إلى الابن بينما التيمار كان يورث من الأب إلى الابن.

ذكرنا سابقاً أن الإقطاع الممنوح للسباهي كان بمثابة معاش أبدي له مقابل تقديم خدمة عسكرية للدولة، وكان السباهي يجهز جنوداً للحرب إذا تجاوز دخل إقطاعه حداً معيناً، ولكن بانحطاط الجنود الإقطاعيين تدريجياً أصبح بإمكانهم دفع ما عرف بمال البدل مقابل إعفائهم من الخدمة (٣٤) .

وذكر بروكلمان في كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» أن السفير الفرنسي في استنبول وصف الجنود السباهية ذاكراً إعجابه عن جمال الخيول المغطاة بجهاز يتلألأ بالذهب والفضة والجواهر، أما الفرسان أنفسهم فكانوا يلبسون ثياباً من قماش مقصب أو من حرير مختلف ألوانه مثل قرمزي أو أصفر أو زعفراني أو أزرق قاتم وكان سلاحهم القوس والنشاب والرمح والسيف المرصع بالحجارة الكريمة، ومجناً صغيراً وصولجاناً معلقاً بالسرج (٣٥) .

وكان المورد الرئيس للجندي السباهي هي الغنائم من الحرب والضرائب التي يجمعها من الفلاحين المقيمين في إقطاع، لذلك كانت دعوة السباهية بشكل جماعي للقيام بالحروب من شأنه تعطيل الحياة اليومية في الريف، لذلك كانت الدولة تسمح

لسباهي واحد من كل عشرة سباهية أن يتخلف عن الحرب، وكانت تعطي الدولة إجازات لهؤلاء للرجوع إلى الأرض كي يفلحوها وبخاصة أثناء توقف الحرب. وكان أسلوب منح إقطاع إلى الجندي السباهي له مساوئ وحسنات ومن مساوئه أن الجندي الإقطاعي يحاول التهرب من الخدمة العسكرية، وهذا جعل السلاطين يعتمدون على جنود آخرين بمرتبات شهرية مثل الانكشارية. أما حسنات الإقطاع فكان الجندي يرتبط بأرضه ويدافع عنها ويبذل الغالي والرخيص كي لا تخرج من يده للأعداء.

ب. الانكشارية (٣٦) :

ذكرنا في الصفحات السابقة بالتفصيل عن الجيش الانكشاري الذي تأسس زمن أورخان. ونضيف أيضاً عن هذا الجيش هنا: أن السلطان أورخان قام بتدريبه عسكرياً في مناطق مختلفة من الدولة في بروسة وأدرنة واستنبول. وقد وصل بعضهم إلى مراتب عليا في الدولة، كما أصبح بعض منهم مرافقين للسلطان أو وزراء عظاماً كرتبة صدر أعظم – وقد سمي هؤلاء الذين يدخلون في خدمة السلطان بعبيد الباب أو قابي قولاري، Kapi Kulari أو عبيد السلطان.

كان الجيش الانكشاري العمود الفقري للدولة في أوقات كثيرة، ويدعى قائده آغا الانكشارية ومركزه في استنبول، وكان الجيش الانكشاري مكوناً من ١٩٦ (أورطة) فرقة، وعدد كل فرقة يختلف حسب الزمان والمكان فكان يصل أحياناً من ٥٠ إلى ٥٠٠ جندي في كل أورطة (٣٧) . وبلغ عدد الجيش الانكشاري عام ١٦٦٠م حوالي ٥٤،٢٢٢ رجلاً (٣٨) .

وأصبح الجيش الانكشاري يتحكم في أمور السلطان نفسه منذ القرن الخامس عشر وكان أحياناً يفرض على السلطان تنفيذ بعض طلباته كزيادة المعاش أو إصدار قانون يناسبهم، ولكن كان الجندي في الجيش يمنع من الزواج حتى يحال على التقاعد، وفي زمن السلطان مراد الرابع (١٦٢٣– ١٦٤٠م) زاد تسلطهم وتعرض السلطان لبطشهم وزادت تحدياتهم للسلاطين الذين تبعوه.

وأرسل السلطان بعض الفرق الانكشارية إلى الولايات وربما كان ذلك نفياً لهم، أو ربما كان لمراقبة الوالي عن طريق الانكشارية، ولكن حصل اندماج وتزاوج بين الجيش الانكشاري والسكان المحليين فأخذ الجندي الانكشاري يقوم بالأعمال اليومية

ويشترك مع أصحاب الحرف والصناعات كي يكسب رزقاً بالإضافة إلى معاشه، ودخل الانكشارية بعض من السكان المحليين كي يستفيدوا من الامتيازات الممنوحة للجيش، فغلب الطابع المحلي على الانكشارية حتى أصبحوا يعرفون باليرلية (من كلمة Yer بالتركية وتعني المحل) .

واضطر السلطان إزاء اندماج الانكشارية بالسكان المحليين وابتعادهم عن عملهم الأصلي وهو خدمة الدولة كجنود أن يرسل جيشاً جديداً آخر ليحل محل اليرلية كي تكون أكثر خضوعاً للسلطان وهم القابي قولاري.

ومن الملاحظ أن الجيش الانكشاري كان فيه كثير من رجال الحركات الصوفية والدراويش وهذا يدل على ارتباط الانكشارية برجال الدين، وأهم هذه الحركات الصوفية الطريقة البكطاشية فكان في الأورطة رقم ٩٩ كثير من رجال البكطاشية الدراويش [٣٩] . فمثلاً عندما ثار جان بردي الغزالي على السلطان سليم الأول عام ١٥٢٠م واحتل قلعة دمشق التي كان فيها الجيش الإنكشاري وجد الغزالي فيها أكثر من ١٥٠ شخصاً من المتصوفة.

وقد حاول المؤرخون الأجانب الذين أرخوا وكتبوا عن تاريخ الجيش العثماني أن يكتبوا عبارات لاذعة ضد السلطان وشيخ الإسلام والإدارة العثمانية، فكتب بروكلمان أن الجيش الانكشاري هو من الغلمان النصارى الذين أسروا في الحرب [٤٠] ، بينما يذكر المؤرخ نفسه في مكان آخر في الكتاب معترفاً أن هذا الجيش هو مسلم فقال «والحق أن جميع المصادر الأوروبية حافلة بإطراء روح النظام التي تكشف عنها الجيش العثماني فلم يكن فيه مكان للخمر، أو القمار، أو البغاء، وهي آفات لم تسلم منها في يوم من الأيام جيوش أوروبا، لذلك العهد. وكانت الحرب ضد «الكافرين» لا تزال تعتبر واجباً دينياً. ولقد كان لذلك أثر كبير في ضمان الغلبة على النصارى، يوم كان الجيش العثماني في أوج قوته» [٤١] .

كتب السفير النمساوي في استنبول عام ١٥٥٤م تقريراً لبلاده يتلخص بعقد مقارنة بين الجيش العثماني وجيش الإمبراطورية الرومانية فقال: «إن دهشة بالغة تعتريه حين يعقد المقارنات بينهما» وقال: «إن هاتين الدولتين كانتا تقفان في مواجهة عسكرية ويقع الاشتباك المسلح بينهما، ففي الجانب الأول تجد الدولة

العثمانية وهي إمبراطورية عظيمة قوية على درجة كبيرة من الثراء وتحشد جيوشاً جرارة تسودها روح عسكرية عالية، وأفراد هذه الجيوش مدربون على الحرب يتحلون بالصبر والنظام والاتحاد والتيقظ، وفي الجانب الآخر توجد الدولة الرومانية المقدسة يتصف جنودها بالإغراق في الترف والميل إلى العناد والمشاكسة والاستخفاف بالنظام وحب الشهوات من الخلاعة والدعارة والفجور والإسراف في الأكل، ويخلص هذا السفير النمساوي من مقارناته إلى القول بأن العثمانيين قد أعدوا للغزو وتحقيق الانتصارات، أما جنود الإمبراطورية الرومانية المقدسة فقد أعدوا لتقبل الهزائم. وهذه شهادة لها قيمتها من عدة نواح، لأنها صادرة عن رجل معاصر ولا يمكن أن يتصف بالتحيز للعثمانيين؛ لأنه رجل عرف بدراساته العميقة في تاريخ الأتراك العثمانيين وهي دراسة تقوم على المشاهدة والاتصالات الشخصية برجالات الدولة العثمانية (٤٢) .

وكتب أستاذ أمريكي يدعى ليبير Lybyer درس النظم العثمانية فقال: "إن الجيش العثماني كان يجمع بين أفراده جميعاً شعور الولاء العميق للسلطان، وإذا صدرت الأوامر باستدعاء الجيش لحملة عسكرية كبرى اجتمع الجيش عن بكرة أبيه حول السلطان (٤٣) .

ت. الجيش الخاص أو المرتزقة:

اتخذ بعض الولاة في الدولة العثمانية جيشاً خاصاً لحمايتهم وكحاشية لهم وكانت تدفع رواتبهم من واردات الولاية أو من نتيجة فرض ضرائب إضافية على الشعب. واتخذ أيضاً الملتزمون جيشاً خاصاً عندما أصبح الملتزم أميراً محلياً مثل ظاهر العمر، الذي احتفظ بمثل هذه القوات لمواجهة جيش الوالي. وكان هذا الجيش الخاص أو الجند المرتزقة يسمى في بعض مناطق الدولة العثمانية بالسكبان. ثم أطلقت على كل من كان بدون عمل.

لجأ ولاة دمشق لتوظيف جنود من المرتزقة أو الجيش الخاص عندما انعدم الأمن وزادت تعديات اللصوص على قوافل الحج في الطريق المؤدي إلى الحجاز، كما انعدم الأمن أيضاً عندما اصطدم جيش اليرلية (الجيش المحلي) بجيش القابي قول (الجيش الذي بعثه السلطان ليحل محل اليرليه) ، لذا اضطر الوالي لاتخاذ جيش

خاص لحمايته. وكان أكثر المرتزقة من اللاوند والدالاتية والمغاربة والتفنكجية. وازداد عددهم في ولاية الشام في القرن الثامن عشر (٤٤) . واللاوند هم من الأكراد، والدالاتية من الأناضول، والتفنكجية من أصل محلي أي من بغداد والموصل وعملوا كشرطة عند الوالي.

ث. الأسطول:

لم يكن للعثمانيين أسطول بحري في بداية تأسيس الإمارة بل كانت حروبهم كلها في البر، ولكن عندما توسعت الإمارة العثمانية أصبح من المفروض عليهم بناء بعض السفن لحراسة السواحل، وقد جاء اهتمامهم بالبحرية بعدما انهزموا في معركة غاليبولي عام ١٤١٦م. فقد اهتم السلطان محمد الثاني بإنشاء أسطول عثماني استطاع أن يقف أمام الأساطيل الأوروبية التي كانت متفوقة في البحر المتوسط عبر القرون السابقة، فوصلت عدد السفن العثمانية عام ١٤٥٦م إلى ١٨٠ سفينة حربية، وفي زمن سليمان القانوني بلغ عدد السفن ٣٠٠ سفينة، وقد ساعد الأسطول العثماني الأسطول المغربي بقيادة خير الدين بربروسا الذي وصل في شهرة أسطوله إلى أن تحكم في غربي البحر المتوسط.

وذكر المستشرق بروكلمان مناقضاً نفسه عن الذين كانوا يديرون الأسطول العثماني فقال: إن ربابنة السفن العثمانية كانوا من اليونانيين والطليان والنصارى الفارّين من بلادهم إلى الدولة العثمانية بقصد الحصول على الغنائم الوفيرة، بينما ذكر أيضاً أن الأساطيل اليونانية والطليانية كان فيها ربابنة من الشرق الإسلامي، ثم يعود فيقول إن التجنيد للأسطول كان يتركز على الرعايا الوطنيين (٤٥) . والحقيقة أن الأسطول العثماني كان أسطولاً إسلامياً يديره أتراك مسلمون ومغاربه قدموا لخدمة السلطان. ويعترف بروكلمان بذلك في موضع آخر من كتابه فيقول « كانت سفن القرصان العاملة في شاطئ أفريقية الشمالية تؤلف – ابتداء من عهد بربروسا – جزءاً هاماً جداً من الأسطول العثماني. فقد كان هؤلاء القرصان يلتحقون بأسطول الدولة زرافات زرافات، كلما أزمع السلطان خوض غمار الحرب البحرية لينزلوا في حماية هذا الأسطول ويلحقوا أعظم الأذى بتجارة النصارى» (٤٦) .

كان الأسطول العثماني أقوى من أي أسطول أي دولة في أوروبا، ولكنه كان ضعيفاً أمام وحدة الأساطيل الأوروبية، وقد ثبت ذلك عندما هزم الأسطول العثماني والأسطول المصري أمام الأساطيل الأوروبية في معركة نفارين البحرية في اليونان عام ١٨٢٧م وكذلك هزم الأسطول العثماني أمام أسطول البندقية في معركة ليبانتو البحرية.

ولا يعني هذا أن الأسطول العثماني كان ضعيفاً إلى هذا الحد، بل كان يدافع عن سواحل الإمبراطورية العثمانية المتددة ولكن الجيش البري العثماني كان متفوقاً على الأسطول البحري.

٧. الموظفون الدينيون:

كان رجال الدين الإسلامي قد لعبوا دوراً هاماً في تصريف أمور الدولة العثمانية وأهم هؤلاء هم شيخ الإسلام المفتي، وقاضي العسكر، ونقيب الإشراف، وهناك رجال دين آخرون لعبوا دوراً هاماً مثل الفقهاء والشيوخ والخطباء في المساجد والوعاظ وغيرهم من رجال الدين.

وقد تشكلت مدارس دينية لتعليم أبناء الشعب العلوم الدينية ليصبح المتخرج من المدرسة عالماً بالعلوم الإسلامية وهؤلاء المتخرجون سيكونون هم حكماء الشعب وحكامهم. وقد أسست أول مدرسة عثمانية زمن أورخان في إزنك عام ١٣٣١م. كما بنى السلطان محمد الفاتح مدارس عثمانية كثيرة كانت تحمل اسمه. أضف إلى ذلك أن التدريس الديني كان يتم في المساجد وبخاصة في المسجد الذي بناه السلطان محمد الفاتح وسمي باسمه مسجد محمد الفاتح، وكان الطالب يدرس عدا عن العلوم الشرعية في المسجد والمدارس الإسلامية العلوم الأخرى مثل الصرف والنحو والبلاغة والشعر وعلم المنطق وعلم الفلسفة وعلم التفسير والعقيدة والأحاديث الشريفة وأصول الفقه (٤٧) . وكانت هناك أيضاً المدارس التي تدعى الكتاتيب.

وقام السلطان سليمان القانوني بإضافة علوم أخرى إلى العلوم الدينية مثل الفيزياء والرياضات والطب، وكانت هذه العلوم تدرس في مسجد سليمان القانوني الذي بدأ العمل لإنشائه عام ١٥٥٠ وانتهى عام ١٥٥٩م. وكان كل طالب علم يتخرج من هذه المدارس والمساجد يدخل الوظائف العليا، أما إذا لم يكمل تعليمه فيستطيع أن

يأخذ وظيفة أقل من زميله الذي يحصل على الشهادة العليا، أي يصبح كاتباً في دار القلم أي الدوائر الحكومية. ويمكن للطالب الذي يتخرج من المدرسة السليمانية (نسبة إلى سليمان القانوني) بعد أن درس العلوم الشرعية أن يصل إلى رتبة مفتي أو شيخ الإسلام وهذه الرتبة يقوم بتعيين صاحبها شيخ الإسلام أو السلطان.

ولمعرفة المزيد عن كل وظيفة من الوظائف الدينية الهامة يجدر بنا أن ندرس هذه الرتب الدينية وماذا كان يعمل صاحب الوظيفة الدينية، وكيف توصل لهذا المنصب.

١. المفتي أو شيخ الإسلام:

إن المفتي أو شيخ الإسلام هو أعلى مرتبة دينية يحملها رجل دين، وهذا المنصب لا يصل إليه إلا كل من توفرت فيه شروط العلم الديني الواسع، فيجب أن يكون عالماً بأمور الشريعة الإسلامية وأن يكون متخرجاً من مدرسة دينية درس فيها جميع العلوم الإسلامية. وقد لقب المفتي بشيخ الإسلام احتراماً له ولمنصبه الديني الرفيع. وكان مفتي استنبول هو الذي يقوم بتعيين مفتين للولايات العثمانية، كما أنه كان يعين القضاة الحنفيين في الولايات. ويجب أن نعلم أن الدولة العثمانية كانت تسير على المذهب الحنفي؛ لذا فإن شيخ الإسلام كان حنفياً ومركزه استنبول. أما بقية الولايات فكان الشعب يختلف من ولاية لأخرى، فبعض الولايات كانت شافعية أو حنبلية أو مالكية تتبع مذهباً يختلف عن مذهب أبي حنيفة الذي هو مذهب الدولة العثمانية. لذا فإن الولاية التي لا تتبع المذهب الحنفي كان الوالي في الولاية يقوم بتعيين مفتي الولاية حسب رأي قضاتها وشعبها فكان المفتي في ولاية ما شافعياً وفي أخرى مالكياً أو حنبلياً وكانت الدولة العثمانية تعترف به [٤٨] .

وكانت الفتوى التي يصدرها شيخ الإسلام ملزمة لكل الدولة العثمانية، حتى أن الفتوى يجب أن يلتزم بها السلطان نفسه، وكان يحق لمفتي استنبول إصدار فتوى بعزل السلطان [٤٩] إذا خالف الشريعة الإسلامية. ولكن نستطيع القول أن المفتي كان يحترم السلطان وكان السلطان يحترم المفتي، ويؤثر أحياناً على المفتي كي يصدر فتوى لتطبيقها ولكن بشرط أن لا تخالف الشريعة الإسلامية. وكان المفتي زمن سليمان القانوني هو الشيخ أبو السعود. وقد ذكر المؤرخ الفرنسي دي ساسون

الذي عاش في أواخر القرن الثامن عشر في الدولة العثمانية أن العثمانيين التزموا التزاماً صارماً بكل ما أوجبه القرآن، وأن الدولة كانت تسترشد برأي علماء الإسلام، وأضاف أن الوزارة العثمانية كانت تلجأ إلى المفتي وتستشيره في أمور السلم والحرب ولوضع قانون سياسي أو نظام عسكري أو القصاص من وزير أو قائد عام (٥٠) . فكان شيخ الإسلام هو مرجع السلطنة في الأمور الشرعية والمدنية على حد سواء، وكان يتمتع بمرتبة تسمو على مرتبة الوزراء (٥١) . وذكر محمد جميل بيهم في كتابه «العرب والترك»: إن التزام الأتراك العثمانيين بالإسلام كان من الصرامة بحيث أن مفتي الإسلام في زمن السلطان سليم الثالث ١٢٢٩هـ ١٨٠٧م أفتى بخلع السلطان عن عرش السلطنة لأنه «أدخل على الدولة بعض أنظمة الفرنجة المنافية للإسلام»، وتم خلع السلطان سليم الثالث عن عرش السلطنة فعلاً بموجب تلك الفتوى (٥٢) .

٢. **القاضي**:

كانت رتبة القاضي تأتي في المرتبة الثانية بعد شيخ الإسلام. وفي بداية قيام الدولة العثمانية عين السلاطين العثمانيون القضاة في المناطق المفتوحة وذلك لتطبيق الشريعة الإسلامية. فكان يسير مع الجيش في الفتوحات قاضي العسكر ويدعى قاضي عسكر الأناضول، وعندما اتسعت الفتوحات العثمانية، تم تعيين قاضٍ آخر هو قاضي عسكر الروملي. هذا بالإضافة إلى قاضي استنبول. وكان مذهب القاضي هو المذهب الحنفي لأن الدولة العثمانية على المذهب الحنفي.

«وحسب تنظيمات القضاء التي أجريت في القرن الثامن عشر اعتبر قاضيا العسكر وقاضي استنبول في مرتبة واحدة، يليهم قاضيا مكة في مرتبة واحدة ثم قاضيا عاصمتي السلطنة السابقتين بروسة وأدرنة، ثم قاضيا مركزي الخلافة الإسلامية دمشق والقاهرة» (٥٣) وربما أن القدس كان لها وضع خاص حيث كانت تتبع استنبول مباشرة.

وكان يتم تعيين القضاة في الولايات العثمانية الهامة من قبل شيخ الإسلام في استنبول (٥٤) ثم كان قاضي عسكر الأناضول هو المسؤول عن تعيين قضاة في الولايات الآسيوية وهؤلاء كانوا يسيرون على المذهب الحنفي. وكان يتم تعيين القاضي لمدة سنة واحدة، قابلة للتجديد. والقاضي هو صاحب السلطة القضائية

العليا في منطقته، فهو وحده الذي يقوم بالقضاء عند غياب المدعي العام في القضايا المدنية والجنائية وفقاً لمبادئ الشريعة الإسلامية.

وكان السلطان مراد الأول هو أول من أحدث منصب قاضي العسكر وكان على غرار مصري مملوكي (٥٥) . وكان هؤلاء القضاة (قاضي عسكر الأناضول وقاضي عسكر الروملي) يشرفان على الشؤون العسكرية حتى أنهما وصلا إلى الإشراف على القانون المدني، وألّفا محكمة الاستئناف العليا.

كان القاضي يقوم بالتحقيق لعقاب المذنب في الولاية وكان يساعده في التحقيقات الصوباشي (قائد الشرطة) وحاكم الولاية. وبالإضافة إلى واجباتهم اليومية كان بعض القضاة في الأناضول يجتمعون كل يوم أربعاء في مجلس رئيس الوزراء (الصدر الأعظم) كي يستمعوا إلى قرارات القضاة والشكاوى المتعلقة التي لم يتوصلوا فيها إلى حلول، وأهم هؤلاء القضاة الذين كانوا يلتقون أسبوعياً هم قضاة استنبول، وأيوب، وجالاتا، واسكودار (٥٦) .

٣. نقيب الأشراف:

الأشراف هم الذين يدعون بنسبهم إلى الحسن والحسين أحفاد النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وكان الأشراف موزعين في كل مكان من الدولة العثمانية. ورئيسهم في العاصمة العثمانية يدعى نقيب الأشراف. وقد تركزوا في مكة والمدينة وحلب. وأول من أسس هذا المنصب في الدولة العثمانية هو السلطان بايزيد الثاني. والسلطان هو الذي يقوم بتعيين النقيب من بين كبار القضاة، وكانت ميزتهم أنهم كانوا يضعون على رؤوسهم العمامة الخضراء (٥٧) . وكان الذي يعين نقباء الأشراف في الولايات هو نقيب الأشراف في استنبول.

لقد نظر الناس إليهم نظرة احترام وتقدير، وزاد احترام الناس لهم عندما تصدوا إلى الجيش الانكشاري الذي أخذ يتدخل في أمور الشعب. وكان تركيز إقامتهم في مدينة حلب.

كان يطلق على الأشراف لقباً آخر هو «الأسياد» فيذكر اسم الشريف مسبوقاً بكلمة سيد، وفي زمن قوة الأشراف كانت تسلط الأضواء على شريفين: أحدهما يحمل علم السلطان ويسير به في المواكب الرسمية والعسكرية وكان يتقدم على جميع ضباط

الجيش ويطلق عليه أمير العلم، أما الشريف الآخر فكان رئيس الأشراف ويطلق عليه نقيب الأشراف وكان يحتل المكانة الثانية في الهيئة الإسلامية للدولة العثمانية، أما في الاحتفالات التي كانت تقام في شهر رمضان فكان نقيب الأشراف يتقدم على مفتي الإسلام وكان يعين في منصبه مدى الحياة. وكان السلطان هو الذي يصدر فرماناً بتعيين نقيب الأشراف لهذا المنصب العالي ومقره استنبول [٥٨] .

هوامش الفصل الثالث:

١. رافق: بلاد الشام ومصر. ص ٥٩.

٢. رافق: المصدر نفسه. والصفحة نفسها.

٣. Shaw: History of The Ottoman Empire. P. 22.

٤. عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها. ص ٣٤٤.

٥. الشناوي: المصدر نفسه. ص ٣٤٥.

٦. رافق: مصدر سابق. ص ٤٣.

٧. زياد أبو غنيمة: جوانب مضيئة. ص ٢٤.

٨. Shaw: History of The Ottoman Empire. P. 23.

٩. Ibid. P. 24

١٠.رافق: مصدر سابق. ص ٥٩.

١١.بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية. ص ٤٧٢.

١٢.حسن عثمان: منهج البحث التاريخي. ص ١٧٣ – ١٧٨.

١٣. Shaw: History of The Ottoman Empire. P. 24. أنظر أيضاً زياد أبو غنيمه: مصدر سابق. ص ١٤٥.

١٤.رافق: مصدر سابق. ص ٦٣.

١٥.بروكلمان: مصدر سابق. ص ٤٧٣.

١٦.زياد أبو غنيمه: مصدر سابق. ص ٢٦.

١٧.رافق: مصدر سابق. ص ٦٤.

١٨.رافق: المصدر نفسه. ص ٦٤.

١٩.رافق: المصدر نفسه. ص ٦٥.

٢٠.رافق: المصدر نفسه. ص ٦٥.

٢١..Cook: A History of The Ottoman Empire p. 136

٢٢..Ibid. P. 136

٢٣.بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية. ص ٤٧٦.

٢٤.رافق: بلاد الشام ومصر. ص ٦٦.

٢٥.جلال يحيى: العالم العربي الحديث. المدخل. ص ٥١– ٥٢.

٢٦..Shaw: History of The Ottoman Empire. P. 119

٢٧.رافق: مصدر سابق. ص ٦٧.

٢٨.رافق: المصدر نفسه، ص ٦٩.

٢٩..Shaw: History of The Ottoman Empire. P. 25

٣٠.جلال يحيى: مصدر سابق. المدخل. ص ٤٨.

٣١.بروكلمان: مصدر سابق. ص ٤٥٨.

٣٢..Shaw: History of The Ottoman Empire. P. 26

٣٣.رافق: مصدر سابق. ص ٧٠. ذكر بروكلمان أن البراءة كان يصدرها الصدر الأعظم بينما ذكر رافق أن البراءة يصدرها السلطان.

٣٤.رافق: المصدر نفسه. ص ٧١.

٣٥.بروكلمان: مصدر سابق. ص ٤٦٢.

٣٦.أنظر في الصفحات السابقة تحت عنوان الجيش الانكشاري زمن أورخان.

٣٧.رافق: مصدر سابق. ص ٧٤.

٣٨.بروكلمان: مصدر سابق. ص ٤٦٦.

٣٩.رافق: مصدر سابق. ص ٧٦.

٤٠.بروكلمان: مصدر سابق. ص ٤٦٣.

٤١.بروكلمان: المصدر نفسه. ص ٤٦٨.

٤٢.عبد العزيز محمد الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها. ج ١ ص ٥١.

٤٣.الشناوي: المصدر نفسه. ص ٥٢.

٤٤.رافق: مصدر سابق. ص ٧٩. جيش القابي قول هو الجيش الذي بعثه السلطان ليحل محل اليرليه.

٤٥.بروكلمان: مصدر سابق. ص ٧٤. ذكر رافق أن أسطول البندقية كان فيه بحارة من أصل شرقي من سواحل آسيا الصغرى. أنظر كتابه بلاد الشام ومصر. ص٧٩.

٤٦.بروكلمان: المصدر نفسه. ص ٤٧١.

٤٧..Shaw: History of The Ottoman Empire. P. 133

٤٨..Ibid. P. 138

٤٩.رافق: بلاد الشام ومصر. ص ٨٣.

٥٠.زياد أبو غنيمة: جوانب مضيئة. ص ٢٧.

٥١.زياد أبو غنيمة: المصدر نفسه. ص ٢٨.

٥٢.زياد أبو غنيمة: المصدر نفسه. ص ٢٨ – ٢٩.

٥٣.رافق: مصدر سابق. ص ٨٤.

٥٤.كما حصل عندما قام شيخ الإسلام أبو السعود بتعيين المفتين وقاضي العسكر وجميع القضاة.

٥٥.بروكلمان: مصدر سابق. ص ٤٧٨.

٥٦.Shaw: History of The Ottoman Empire. P. 136.

٥٧.رافق: مصدر سابق. ص٨٥.

٥٨.عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها. ص ٤٤٠.

الفصل الرابع

محمد الفاتح وفتح القسطنطينية وسلاطين آخرون لعبوا دوراً مهماً في التاريخ العثماني

الفصل الرابع

محمد الفاتح وفتح القسطنطينية
وسلاطين آخرون لعبوا دوراً مهماً في التاريخ العثماني

ولد السلطان محمد الفاتح بتاريخ ١٤٣٢/٣/٣٠م، وهو سابع سلاطين الدولة العثمانية، كان والده مراد الثاني قد علمه مقاليد الحكم وهو في الرابعة عشرة من عمره، وليس صحيحاً ما ذكرته بعض الكتب التي لم تعتمد على المصادر التاريخية، من أن أم السلطان محمد الفاتح مسيحية، اسمها مارا بنت ملك الصرب، والصحيح أن أمه هي خديجة خاتون، حفيدة الأمير اسفنديار أمير مناطق سينوب وقسطموني (١) .

اهتم به والده، فعين له معلماً هو الشيخ شمس الدين، كي يعلمه الدين الإسلامي، كما عين له فرساناً كي يدربوه على الفروسية، وعينه حاكماً على مقاطعة أماسيا، ثم مانيسا، وعين بجانبه العلماء والقادة كي يقوموا بأعباء هذه المسؤولية، وعندما كان محمد الفاتح في الرابعة عشرة من عمره، تقلد أمور السلطة عام ١٤٤٤م، لأن والده مراد الثاني تدهورت صحته بسبب المعارك مع البيزنطيين، وبسبب وفاة ابنه علاء الدين.

تشجع القائد المجري هونياد (هنيدي) على مهاجمة الدولة العثمانية، لأن الشبل محمد الفاتح، كان قد تسلم أمور السلطنة، ثم رجع السلطان مراد إلى أدرنة بسبب الاعتداءات البيزنطية على الدولة العثمانية عام ١٤٤٥م، وبقي في الحكم حتى مات عام ١٤٥١م، ثم استلم محمد الفاتح مقاليد الحكم من جديد.

ليس صحيحاً ما ذكرته كتب المستشرقين، من أن السلطان محمد الفاتح قتل أخاه أحمد خوفاً من منافسته في الحكم، والصحيح أن أحمد كان طفلاً تقوم بعض النساء بحمايته، وعندما كانت تقوم بغسله، غرق في الماء، ولم تنتبه له من كانت ترعاه.

الإجراءات التي اتخذت لفتح القسطنطينية:

القسطنطينية من أقدم المدن وأعرقها في أوروبا، بنيت عام ٦٦٠ ق. م، بناها اليونانيون، وأطلقوا عليها بيزنطة، نسبة إلى القائد اليوناني بيزانس، وفي عام ٣٣٠م، أعلن الإمبراطور الروماني قسطنطين الكبير، نقل عاصمة الإمبراطورية من روما إلى بيزنطة وأطلق عليها روما الجديدة، ثم أطلق عليها لقب كونستنتينوبل، وهي كلمة مركبة من مقطعين، الأول هو اسم قسطنطين، والثاني كلمة بول، ومعناها المدينة، فأصبح الاسم الجديد لبيزنطة (مدينة قسطنطين أو كونستنتيبل) ، وقد بنى قسطنطين كنيسة ضخمة، ولكن دمر جزء منها بسبب حريق عام ٥٣٧م، فقام جوستنيان بترميمها وبناء قبتها على أحسن طراز، وتعتبر قبتها من أغرب قباب عصرها، وسميت الكنيسة باسم كنيسة القديسة صوفيا أو أياصوفيا، وتعرضت الكنيسة إلى تصدعات كثيرة بسبب الزلزال، فأعيد ترميمها عدة مرات.

إن موقع القسطنطينية استراتيجي عسكري، فهي نقطة التقاء قارة آسيا مع قارة أوروبا، وموقعها يتحكم في البحر الأسود، والبحر الأبيض المتوسط، وتحتضنها بحار ثلاثة هي القرن الذهبي (الخليج) ، الذي يشبه قرن الوعل، والبوسفور، وهو المضيق الذي يربط البحر الأسود بالبحر الأبيض المتوسط عن طريق بحر مرمرة، ومضيق الدردنيل، ويفصل القرن الذهبي المدينة القديمة عن المدينة الجديدة، كما يفصل البوسفور الجزء الأوروبي عن الجزء الآسيوي، أضف إلى موقعها الاستراتيجي، ووجود البحار والمضائق، تلك الأسوار المنيعة التي احتضنتها من الأعداء عبر العصور التاريخية، وأهميتها تكمن في أنها عاصمة العالم الأرثوذكسي، وفيها الكنيسة الشرقية.

كان الشيخ آق شمس الدين يقضي الساعات الطويلة يناقش السلطان محمد الفاتح حول ضرورة فتح القسطنطينية، وكيفية ذلك [٢] ، وقد ذكر له حديث شريف وهو: «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش» [٣] ، وكان السلطان يدرس دوماً خارطة القسطنطينية، كي يعرف نقاط الضعف والقوة في السور للاستفادة من وضع خطة للهجوم عليها، وقد درس محاولات قادة الجيوش الإسلامية عبر العصور عندما حوصرت القسطنطينية عدة مرات من قبل هؤلاء القادة المسلمين

منذ زمن الخليفة علي بن أبي طالب، حتى زمن سلاطين آل عثمان، وقد اتبع الفاتح السرية المطلقة في عملية التخطيط لفتح القسطنطينية، ولم يقل لأحد إلا للقادة الذين يثق بهم، ثم اتبع سياسة المصالحة مع جيرانه المسيحيين، مثل إمبراطور طرابزون الكاثوليكي، وملك الصرب وغيرهم، وذلك كي لا يساعدوا الإمبراطور البيزنطي عندما يقرر محمد الفاتح الهجوم على القسطنطينية، وقد فرح هؤلاء أصلاً بالصلح، لأنهم كانوا في أمس الحاجة إلى عدم هجوم محمد الفاتح عليهم، فتسابقوا لتلبية نداء السلطان بعقد معاهدات الصلح معه، أما بالنسبة للإمبراطور البيزنطي قسطنطين، فقد استغل فرصة انشغال محمد الفاتح بالحروب ضد أمراء السلاجقة في الأناضول، وبعث للسلطان محمد الفاتح يهدده باللاجئ السياسي العثماني أورخان، كما طلب منه زيادة دفع المال للقسطنطينية كي يبقى أورخان ساكتاً عن مطالبته بأمور السلطنة، وقد رفض السلطان محمد الفاتح طلب الإمبراطور قسطنطين، وكان هذا التهديد سبباً رئيسياً دفع محمد الفاتح إلى اتخاذ قرار بالتعجيل في فتح القسطنطينية.

قام السلطان محمد الفاتح ببناء قلعة على البر الأوروبي، بالقرب من مضيق البوسفور اسمها قلعة روملي حصار، أي قلعة الروم، وقد شارك بنفسه مع العمال في بنائها، القصد من البناء هو ضرب القسطنطينية بالمدافع الثقيلة من القلعة، وقد اتخذها مركزاً لقيادته، وكذلك كي لا تستطيع الجيوش المسيحية من الوصول إلى القسطنطينية أثناء الحصار، وهكذا تحكم العثمانيون في مضيق البوسفور تماماً.

رأى قسطنطين المدافع العثمانية مصوبة تجاه القسطنطينية، فحاول جاهداً أن يستعمل عدة طرق لفك الحصار. أرسل رسالة إلى السلطان محمد الفاتح نفسه أبدى فيها أنه مستعد لدفع الجزية مقابل فك الحصار، ولكن السلطان رفض ذلك. عندئذ اتصل قسطنطين بالملوك الأوروبيين للمساعدة، ومنهم من أراد قسطنطين مصاهرته، ولكنه فشل أيضاً، واتبع آخر سهم له وهو الاتصال بالبابا كي يساعده، واستعد قسطنطين للموافقة على توحيد الكنيستين تحت زعامة البابا، مقابل مساعدة البابا له، وفي الرسالة نبه قسطنطين البابا إلى أنه إذا سقطت القسطنطينية، فستكون روما أيضاً الهدف الثاني للسلطان محمد الفاتح (٤) ، والحقيقة أن الشعب في القسطنطينية لم يكن راضياً عن تصرفات إمبراطورهم قسطنطين، بوحدة الكنيستين الأرثوذكسية (القسطنطينية) والكاثولوكية (روما)، حتى أن الدوق الأكبر ناتوراس دوق القسطنطينية

قال: «إنني أفضل عمامة المسلم البيضاء، على قبعة الكاردينال الكاثوليكي الحمراء» (٥) ، أضف إلى ذلك أن الشعب لم يرق له الخضوع للبابا، وفي تلك الفترة كان أحد المجريين وهو أوربان قد صنع مدفعاً بعيد المدى، تبلغ وزن طلقة المدفع ١٢ قنطاراً، وقد عرض هذا الاختراع على الأوروبيين فرفضوه، وعرضه على محمد الفاتح فرحب به، وضع أوربان مدفعاً في أدرنة، ونقله إلى قرب سور القسطنطينية (٦) ، وفي أثناء الحصار أعلن آق شمس الدين أنه اكتشف قبر أبو أيوب الأنصاري، خالد بن زيد، الذي استشهد حين حصار القسطنطينية عام ٤٩ هـ، في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وبعد الفتح بنى له جامعاً، مسجداً ضخماً عام ١٤٥٨م، وجرت العادة بعد ذلك أن يتقلد كل سلطان سيف عثمان في داخل هذا الجامع في احتفال وتتويج مهيب (٧) .

وصلت جموع المسلمين إلى أسوار القسطنطينية بقيادة محمد الفاتح بتاريخ ١٤٥٣/٤/٥م وكان عدد الجيش العثماني حوالي ١٥٠،٠٠٠ جندي، أما عدد الجيش المدافع عن القسطنطينية فبلغ حوالي ٥٠،٠٠٠ جندي، وقد وصل متطوعون مسيحيون من مختلف الدول المسيحية للدفاع عن القسطنطينية، بالإضافة إلى النجدة البابوية المكونة من ثلاثين سفينة حربية، وبضع المئات من المتحمسين للدفاع عن الكنيسة الأرثوذكسية.

كان في مقدمة الجيش الإسلامي مع السلطان محمد الفاتح شيوخ المسلمين، مثل الشيخ آق شمس الدين، والشيخ القوراني، والشيخ خسروي، وكانوا يهللون ويكبرون ويذكرون للناس حيّ على الجهاد، وقسّم السلطان جيشه إلى ميمنة وعلى رأسها إسحق باشا، وميسرة وعلى رأسها دابي كراجا باشا، أما القلب فكان فيه السلطان نفسه، والوزير الأعظم جندرلي خليل باشا، والوزير ساروجه باشا، وأشرف على المرتفعات الجبلية القائد زاغنوس باشا.

حاصر العثمانيون القسطنطينية ٤٨ يوماً، وكانت المدافع طوال تلك الفترة تقصف القسطنطينية، إلى أن جاءت السفن البابوية الثلاثين، واخترقت الحصار الإسلامي، ووصلت القسطنطينية، فبعثت الأمل في نفوس المحاصرين، إلا أن السفن الإسلامية استطاعت في المعركة الانتصار على السفن البيزنطية، ثم تقدمت المدافع الإسلامية نحو السور، وبنى محمد الفاتح أبراجاً متحركة أعلى من سور القسطنطينية، كان يقصف منها الأبراج البيزنطية.

بدأت الدول الأوروبية تتحرك للدفاع عن القسطنطينية، ومساعدة الإمبراطور قسطنطين، فأعلن هونياد قائد المجر الحرب على السلطان محمد الفاتح، رغم وجود معاهدة صلح بينهما، وأعلن السلطان محمد الفاتح بضرورة عقد مجلس شورى حربي إسلامي، واستشار السلطان هذا المجلس، هل يكمل الحرب؟ أم يختار الانسحاب وفك الحصار بسبب كثرة النجدات الأوروبية؟ لكن المجلس قرر تكملة الحرب، واستمر المسلمون في قصف القسطنطينية، ثم اندفع المسلمون نحو السور بأكثر من ألفي سلم خشبي، كانت توضع قرب السور، وتوضع على رأسها المشابك على السور، ويصعد الجنود المسلمون عليها، ولكن البيزنطيين صدوا المسلمين، وحطموا أكثر السلالم، لذلك أمر السلطان محمد الفاتح في ١٤٥٣/٥/٢٩م، بوقف إرسال السلالم، وفتح ثغرات في السور للاندفاع منها لداخل المدينة، وقد اندفع التركي حسن أولو بادلي مع ثلاثين مجاهداً، وفتحوا ثغرة في السور دخلوها إلى المدينة، ولكن المدافعين عن المدينة رموا حسن وجماعته بالسهام، والزيت المقلي، فاستشهد حسن وجماعته، ثم دخل القائد المسلم قراجا بك من ثغر آخر في السور، ودخل السلطان محمد الفاتح من ثغر ثالث في باب المدفع، وهكذا تدفق المسلمون داخل القسطنطينية، واستطاع أحد الجنود المسلمين قتل الإمبراطور قسطنطين، وبدأ الجنود بالتهليل والتكبير من فوق الأسوار، وبدأ المؤذن يقول الله أكبر، ثم اندفع المسلمون إلى داخل المدينة، حتى وصلوا كنيسة أياصوفيا، التي امتلأت بالناس والجنود البيزنطيين، طالبين حمايتهم، لأن المسلمين يحترمون الأماكن الدينية المسيحية، وليس صحيحاً ما يدعيه الأجانب أن السلطان محمد الفاتح أباح القسطنطينية مدة ثلاثة أيام للجنود المسلمين من نهب وسلب واعتداء على الشرف وغير ذلك من الأعمال المناقضة للإسلام، وقصد المؤرخون الأجانب من ذلك تشويه سمعة السلطان محمد الفاتح.

دخل السلطان محمد الفاتح كنيسة أياصوفيا، وأعلن أنه يحق لكل هارب أن يرجع إلى القسطنطينية خلال ٢٠ يوماً، وسمح بدفن الإمبراطور المقتول، حسب تقاليد طقوس الديانة النصرانية، ثم قام محمد الفاتح لصلاة الظهر، فصلى في كنيسة أياصوفيا (٨) ، وتحولت إلى مسجد اسمه مسجد أياصوفيا، والحقيقة أن السلطان محمد الفاتح عامل المسيحيين معاملة حسنة لم يكن يتوقعها المسيحيون في القسطنطينية.

أما ردود الفعل الإسلامية بعد الفتح، فقد بعث السلطان محمد الفاتح خبراً إلى الممالك الإسلامية يزف لهم البشرى بنبأ الفتح، ووصلت البشائر إلى مصر والحجاز وبلاد فارس والهند، فاستقبل المسلمون في هذه الأماكن البشارة بالفرح والسرور، وبعث الفاتح رسائل إلى زعماء العالم الإسلامي يخبرهم عن هذا الفتح المبين، ففي رسالة إلى سلطان الشراكسة المماليك في مصر إينال شاه، قال فيها: «إن من أحسن سنن أسلافنا أنهم مجاهدون في سبيل **الله**، ولا يخافون فيه لومة لائم، ونحن على تلك السنة قائمون، وعلى تلك الأمنية دائمون، متمثلين بقوله تعالى: «قاتلوا الذين لا يؤمنون بـ**الله**»، ومستمسكين بقوله عليه السلام «من اغبرت قدماه في سبيل **الله**، حرمه **الله** على النار»، ولهذا فقد هممنا هذا العام معتصمين بحبل **الله** ذي الجلال والإكرام، متمسكين بفضل الملك العلام إلى أداء فرض الغزاء (من الغزو) الذي فرضه علينا الإسلام، مؤتمرين بأمره تعالى «قاتلوا الذين يلونكم من الكفار» وجهزنا عساكر الغزاة المجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجوراً وكفراً، والتي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها فخراً» (٩) . ثم بعث السلطان محمد الفاتح وفداً عثمانياً معه بعض الهدايا وأسيران من عظماء الروم إلى القاهرة، كي يرى المسلمون في مصر الوفد المنتصر على الأعداء.

ردود الفعل في العالم المسيحي بعد الفتح الإسلامي للقسطنطينية:

كانت ردود الفعل في العالم المسيحي متضاربة، وذات أهواء مختلفة، وتفسيرات متباينة لسقوط القسطنطينية، **فقال البعض**:

١. كان سقوط القسطنطينية بسبب كثرة المسلمين.

٢. وقال البعض الآخر، إن سقوط القسطنطينية كان بسبب نسيان بعض حاميات القسطنطينية أحد الأبواب مفتوحاً فدخل منه المسلمون.

٣. وقال البعض الآخر، إن سقوط القسطنطينية كان بسبب التفكك المسيحي، وعدم وحدة الكنيسة الشرقية والغربية، علماً بأن الإمبراطور في القسطنطينية استعد لقبول الوحدة مع الكنيسة الغربية، حتى أنه ركع أمام المندوب البابوي إيزيدور عام

١٤٥٢م، ولكنه ألغى معارضته من قبل بطريرك القسطنطينية غريغوريوس ماماس وكذلك لوقاس النوطاري، وبعد سقوط القسطنطينية بدأ العالم المسيحي الكاثوليكي يشعر بالخوف نتيجة المدّ الإسلامي الذي أخذ يدق أبواب العالم الكاثوليكي، وخاصة بعد هذا النصر الذي أحرزه محمد الفاتح، ثم أخذ السلطان الفاتح يعامل العالم الأرثوذكسي معاملة حسنة، وشعروا بذلك، وهذا زاد من شقة الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية.

ثم قام البابا نيقولا الخامس بتشجيع المسيحيين على ضرورة إرسال حملة صليبية ضد العثمانيين المسلمين، وقد لاقى نداء البابا قبولاً لدى الأمير فيليب دوق بورجونديا، وطلب من ملوك الغرب وحثهم على تجهيز حملة صليبية، ولكن هذا الحماس المسيحي خف بعد وفاة البابا نيقولا الخامس، وتبعه البابا بيوس الثاني، الذي لاحظ أن حماس العالم المسيحي قد أصبح يتلاشى، ثم بعث البابا بيوس الخامس برسالة إلى السلطان محمد الفاتح يدعوه فيها إلى اعتناق النصرانية، ويعده بأنه سيكفر عنه خطاياه إذا ما استجاب لدعوته، وتعهد بمنحه صك غفران، يضمن له مكاناً في الجنة، فكان جواب محمد الفاتح التهكم على البابا.

لقد لبى ملك المجر لادي سلاس نداء البابا لقتال العثمانيين، فقام بتجهيز جيش مجري، وعين على قيادته القائد (هونياد) ، وانضم إليهم ملك الصرب جورج برونكوفينش، الذي أراد الانتقام من العثمانيين بسبب سيطرتهم على أهم مدينتين من بلاد الصرب، هما سمندريا وأوسترونيجا.

نجح هذا الحلف في التغلب على الحامية العثمانية التي كانت بقيادة فيروز بك، إلا أن السلطان محمد الفاتح سار للقاء هذا الحلف الصليبي، وتمكن من هزيمته، فهرب هونياد إلى بلاد المجر، وأخضع كذلك ملك الصرب، ودفع هذا جزية للمسلمين، كدلالة على خضوعه للعثمانيين، كما استطاع محمد الفاتح السيطرة على التحالف الألباني – الإيطالي في معركة بيرات، وبعد هذا النجاح الذي أحرزه السلطان محمد الفاتح ضد التحالف المجري الصربي، والتحالف الألباني الإيطالي، قرر قتال فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس، فبعث القائد يونس باشا الذي استطاع السيطرة على الجزيرة، وعلى الجزر المحيطة التي كانت تحوي كثيراً من فرسان ألمانيا وفرنسا وإيطاليا، وكانوا يعيقون التجارة العثمانية.

ذكرنا أن السلطان محمد الفاتح تمكن من الانتصار على هونياد، ولكنه لم يقضِ عليه، لذلك قرر السلطان أن يسير بنفسه على رأس جيش، من ١٥٠،٠٠٠ جندي عثماني، و٢٠٠ باخرة، وسار هذا الجيش لحصار بلغراد، فخاف المسيحيون في أوروبا أن تسقط بلغراد، كما سقطت القسطنطينية، فنادى البابا المسيحيين طالباً النجدة والدفاع عن بلغراد، فوصلت المدينة فرقة أوروبية صليبية مكونة من ألف جندي، قبل وصول السلطان الفاتح إليها، وحاصر بلغراد بتاريخ ١٤٥٦/٦/١٣م، وهذه هي المحاولة الثانية العثمانية لحصار المدينة، واستطاع السلطان محمد الفاتح دخول بلغراد بتاريخ ١٤٥٦/٧/٢٠م، ولكن الحلف الصليبي الجديد استطاع أن يجبر الفاتح على تركها، ولكن بعد أن قتل هونياد وجيوفاني، وجرح السلطان محمد الفاتح (١٠).

وبعد عامين توفي ملك بلاد الصرب الأرثوذوكسي عام ١٤٥٨م وحصل هناك نزاع على العرش وطلب أحد ورثته المساعدة من ملك المجر الكاثوليكي، فغضب الشعب الأرثوذوكسي وطلبوا من السلطان محمد الفاتح مساعدتهم واستغل الفاتح الفرصة وأرسل الصدر الأعظم محمود باشا الذي تمكن من بسط السيطرة على كل بلاد الصرب وجعلها إحدى ولايات الدولة العثمانية، وأما بلاد اليونان وعاصمتها أثينا فحصلت فيها قصة مشابهة حيث كان يحكم أثينا كاثوليكي إيطالي ولم يعجبهم ذلك فطلبوا من السلطان الفاتح أن يخلصهم من الحكم الكاثوليكي، فذهب محمد الفاتح بنفسه إلى أثينا ودخلها عام ١٤٥٨م وهكذا بقيت بلاد اليونان تحت الحكم العثماني مدة ٣٧١ عاماً إلى أن استقلت بتاريخ ١٨٢٩م.

بعد هذه الانتصارات الحاسمة للسلطان الفاتح في بلاد المجر والصرب وألبانيا واليونان كرس الفاتح اهتمامه لتصفية الجيوب المسيحية في الأناضول وأهمها دولة طرابزون على البحر الأسود التي أصبحت ملجأ للهاربين من سكان القسطنطينية، وكانت أيضاً الأمل الباقي للصليبيين ونقطة انطلاق إلى الشرق الإسلامي. وكان يساعد ملك دولة طرابزون العميل حسن الطويل أحد أحفاد بهاء الدين الذي تعاون مع تيمورلنك ضد المسلمين العثمانيين. فقد حصل نسب ومصاهرة بين العميل وبين ملك طرابزون المسيحي وأخذ العميل في عقد المعاهدات السرية مع جنوة والبندقية والمناطق المسيحية ضد العثمانيين حتى أنه استطاع أن يحتل قلعة قرة حصار من أيدي العثمانيين، عندئذ قرر السلطان محمد الفاتح أن يهاجم حسن الطويل ويقضي

عليه وقد نجح السلطان فعلاً وأجبر العميل على الخضوع. وهكذا تفرغ محمد الفاتح لضرب مملكة طرابزون، وتوجه محمد الفاتح بنفسه ودخل دولة طرابزون (١١) عام ١٤٦٢م وعندما سمع العالم الأوروبي المسيحي بسقوط آخر معقل لهم من الممالك المسيحية في الأناضول أصابتهم الدهشة والذهول.

بعد انتصاراته في الأناضول قرر الفاتح أن يتوجه إلى بلاد الأفلاق (رومانيا) لأن حاكمها دراكول الشيطان استغل فرصة وجود الفاتح مشغولاً في حروبه مع دولة طرابزون فأخذ يهاجم بعض المواقع العثمانية القريبة من رومانيا. وكان يساعد الشيطان في هجومه على الممالك العثمانية ملك المجر الجديد وهو ماثيوس بن هونياد أو هنيدي. ولما علم الشيطان أن السلطان الفاتح متوجه إلى حربه أخذ يتوسل إلى الفاتح بحمايته من ملك المجر وقد انطلت هذه الحيلة على الفاتح فبعث قوة عثمانية لمساعدة دراكول الشيطان ضد ملك المجر بقيادة حمزة بك. وعندما وصلت هذه القوة العثمانية رومانيا استقبلها الشيطان استقبالاً حافلاً ولكن أثناء الليل أقام لهم خوازيق ونصبهم عليها كان أكبرها للقائد حمزة. وعلم الفاتح بهذه الحيلة فقرر الهجوم على الشيطان للانتقام منه وكان الفاتح على رأس جيش عثماني يقدر تعداده بـ ١٥٠،٠٠٠ جندي، وصل الفاتح إلى معسكر الشيطان وقد راعه ما شاهد من منظر ٢٠،٠٠٠ خازوق عليها الأطفال والشيوخ وأجساد آلاف الرجال المسلمين والمسيحيين.

وقد التقى الفاتح بالشيطان في معركة حاسمة فهرب الشيطان ملتجأً إلى ملك المجر الذي سجنه ١٥ عاماً، ولكن هرب الشيطان بعدها ثم قتل، ثم ضم الفاتح بلاد الأفلاق (رومانيا) لحظيرة الدولة العثمانية بعد الانتصار على الشيطان.

وتابع الفاتح انتصاراته وفتوحاته، ثم قام بمراسلة ملك بلاد البوسنة حيث دعاه إلى الاستسلام، لكنه رفض، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حيث قتل الوفد المسلم الذي بعثه الفاتح لبلاد البوسنة، عندئذ قرر محمد الفاتح الهجوم على بلاد البوسنة، وبعد معارك طاحنة التجأ ملك البوسنة إلى قلعة حصينة لكن الفاتح تمكن من القبض عليه، ثم أصدر الشيخ البسطامي فتوى تنص على إعدام ملك بلاد البوسنة لأنه قتل الوفد المسلم سابقاً. أما ابن ملك البوسنة فقد أعلن إسلامه وأصبح من رجالات الدولة العثمانية المخلصين. ومما يجدر ذكره أن الفاتح كان قد تعرض أثناء حربه مع ملك

بلاد البوسنة إلى مواجهة حلف صليبي برعاية البابا، وقد ضم هذا الحلف جيوش المجر والبندقية، لكن الفاتح استطاع أن يقضي على هذا الحلف الصليبي.

القسطنطينية ومسجد محمد الفاتح [١٢]:

بعد هذه الانتصارات في الجبهة الأوروبية، تفرغ السلطان محمد الفاتح لنقل المسلمين من الأناضول إلى القسطنطينية لأنه اتخذها عاصمة للدولة العثمانية، وقد أمر الفاتح أهالي قونية الأغنياء والفقراء على حد سواء بالسكن في العاصمة الجديدة – القسطنطينية.

تفرغ السلطان الفاتح لبناء مسجد يحمل اسمه «مسجد الفاتح» في القسطنطينية وكان قصده أن يصبغ المدينة بالصبغة الإسلامية. وقد استغرق بناء جامع محمد الفاتح سبع سنوات وعشرة أشهر، أي من شباط عام ١٤٦٣م حتى كانون الأول عام ١٤٧١م. وقد أشرف على هندسة المسجد التركي المسلم عاتك سنان، وكان العمال جميعهم من المسلمين. كما بنى السلطان الفاتح ثماني مدارس حول المسجد لتدريس مختلف العلوم الشرعية والأدبية، وبنى بالقرب من الجامع مستشفى يدعى «دار الشفاء» وكان يحوي ٧٠ سريراً.

العلاقات العثمانية المملوكية:

في عام ١٤٧١م ساءت العلاقات العثمانية المملوكية تدريجياً بسبب حوادث حصلت، أهمها الاعتداء المملوكي على منطقتي مرعش والبستان، وكان العثمانيون يعتبرونهما ممالك عثمانية، وكان عليها الحاكم شهوار بك أخو زوجة السلطان الفاتح. وقد أعدم المماليك هذا الشخص في باب زويله بالقاهرة وعينوا بدلاً منه أخاه شاه بوداك. وقد غضب السلطان الفاتح من هذا العمل، فزادت العلاقات سوءاً وتوترت العلاقات بينهما. وزاد التوتر عندما رفض السلطان المملوكي الملك الأشرف سيف الدين قاتيباي السماح للسلطان محمد الفاتح بناء محطات استراحة للعثمانيين الحجاج على الطريق المؤدية إلى مكة المكرمة واعتبرها إهانة له، وزادت العلاقات سوءاً بعد وفاة السلطان محمد الفاتح عندما التجأ جم أخو بايزيد وهما أبناء السلطان الفاتح ورحب المماليك باللاجئ السياسي جم، وهكذا تدهورت العلاقات بالتدريج

إلى أن جاء السلطان سليم وحسم الموقف عسكرياً وتمكن من دخول دمشق والقاهرة والقضاء على دولة المماليك. وأصبحت كل بلاد الشام ومصر أجزاء من الديار العثمانية كما سنرى فيما بعد.

استغل الصليبيون انشغال السلطان الفاتح بأمور داخلية وقرروا التحضير لحملة صليبية جديدة على القسطنطينية. وقد شجعهم على هذا العمل أن العلاقات المملوكية العثمانية ساءت كثيراً. وقد عزم البابا بول الثاني على مراسلة المماليك كي ينضموا إلى صفوف الدول الأوروبية في القضاء على العثمانيين، ولكن المماليك رفضوا خوفاً من نقمة أهالي سوريا ومصر على السلطان المملوكي إذا تحالف مع أعداء الإسلام.

أما في الجبهة البيزنطية فتشكل حلف صليبي دعا له البابا، فتوجه أسطول مكون من عدة سفن نحو القسطنطينية، حيث احتل الأسطول الصليبي مدن أزمير وأنطاكيا وبعض المواقع الساحلية في الأناضول وهي على الطريق المؤدية إلى القسطنطينية فدمر الصليبيون مساجد أزمير وقتلوا آلاف المسلمين ووضعوهم على خوازيق نصبت لهم. وعندما سمع حاكم البغدان بهذا الانتصار الصليبي قام بثورة على العثمانيين وأعلن عصيانه عن دفع الجزية، وشجعه على ذلك حاكم موسكو الذي انضم إلى الحلف الصليبي.

ذهب السلطان محمد الفاتح إلى شمال البحر الأسود وجرت معركة بينه وبين حاكم البغدان انتصر فيها الفاتح، وبعد انتصاره رجع إلى استنبول لمجابهة الحلف الصليبي. ثم تابع السلطان انتصاراته فهاجم ألبانيا وحاصر مدينة أشكودار وهزم جيش البنادقة، وبعد معركة أشكودار أصبح السلطان على مرمى حجر من إيطاليا بعد أن انتصر على ألبانيا، واستمرت السيادة العثمانية على بلاد الأرناؤوط (ألبانيا) أكثر من ٤٣٣ عاماً أي منذ عام ١٤٧٩م حتى اندلاع الحرب البلقانية عام ١٩١٢م.

الزحف العثماني إلى إيطاليا ورودس:

وجد السلطان محمد الفاتح بعد انتصاره في معظم المعارك، وبعد فتح القسطنطينية، أن الفرصة مناسبة للزحف إلى روما خاصة وأن الكنيسة الشرقية قد انتهت، وانتقل المركز الأرثوذكسي من القسطنطينية إلى موسكو. فبدأ الفاتح في التحضير وتجهيز الجيوش الإسلامية لقتال البابا، وقرر الفاتح دخول إيطاليا عن

طريق نابولي، وقد سار الجيش العثماني والأسطول حتى استطاع عام ١٤٨٠م أن يدخل ميناء أوترانتو قرب نابولي. عندئذ شعر البابا أن روما في خطر عندما سقط هذا الميناء بيد الجيش الإسلامي، حتى أن البابا فكر بالرحيل عن روما.

وكان العثمانيون يسمون روما بالتفاحة الحمراء (١٣) . وفي الوقت الذي حقق العثمانيون نصراً مؤزراً في ميناء (أوترانتو) خسروا المعركة في رودس مع فرسان القديس يوحنا. وقد استشهد من العثمانيين أكثر من ١٥ ألف مجاهد في رودس؛ وذلك بسبب خيانة القائد العثماني مسيح باشا الذي هو من أصل بيزنطي. لم يصبر الفاتح ولم يتحمل الخسارة التي لحقت بجيشه في معركة رودس مع فرسان القديس يوحنا، لذا جهز جيشاً قوامه ٣٠٠،٠٠٠ جندي وسار به نحو جنوب تركيا؛ وذلك كي يصل إلى رودس وينتقم من فرسان القديس يوحنا، ولكن أجله كان قريباً حيث توفي وهو في الطريق وذلك بتاريخ ١٤٨١/٥/٣م وترك لولده بايزيد حكم الدولة العثمانية المسلمة، ولكن بعد وفاته حصلت نزاعات بين أبنائه بايزيد وجم، وقد فرحت أوروبا النصرانية وبابا روما بوفاة السلطان الفاتح ومخاصمة أبنائه من بعده.

السلطان بايزيد الثاني والأمير جم:

توفي السلطان محمد الفاتح عام ١٤٨١م وترك ولدين هما: بايزيد الذي كان حاكماً زمن والده على مدينة أماسيا، وجم الذي كان حاكماً على بلاد القرمان وكان يقيم في قونية. كان الجيش الانكشاري قد أيد بايزيد الثاني بينما أيد الوزير الأعظم والأعيان جماً في النزاع الذي جرى بينهما للوصول إلى كرسي السلطنة. وحاول الوزير الأعظم إخفاء نبأ وفاة السلطان الفاتح كي يستطيع تنصيب الأمير جم سلطاناً على الدولة العثمانية. ولكن الانكشارية اكتشفوا الخطة فقتلوا الوزير الأعظم وعينوا بايزيد سلطاناً (١٤) . وعينوا إسحق باشا الصدر الأعظم، ولكن جماً نصّب نفسه سلطاناً في بروسة – رغم أنف بايزيد – وحاكماً على بلاد الأناضول.

استلم بايزيد مقاليد الحكم في الدولة العثمانية، ولكن الأمير جم عارضه في ذلك، بل طلب من أخيه بايزيد اقتسام الدولة العثمانية بينهما حيث يأخذ بايزيد بلاد البلقان ويأخذ جم بلاد الأناضول (آسيا العثمانية) . ولأن بايزيد رفض هذه القسمة جرت بينهما معركة في ١٤٨١/٦/٢٠م قرب مدينة يني شهر، انتصر

فيها بايزيد وهرب جم إلى قونية، ثم التجأ إلى المماليك في القاهرة حيث السلطان قايتباي، وبعد أن جهز جم جيشاً سار به للقاء أخيه شمالي حلب قرب كيليكيا بتاريخ ١٤٨٢/٥/١٩م. إلا أن بايزيد علم بذلك وجهز جيشاً للقاء أخيه فهرب جم إلى جزيرة رودس حيث يوجد فرسان القديس يوحنا، ثم قام رئيس الرهبان في رودس وسلم الأمير جم إلى البابا عام ١٤٦٨م فأخذ الأخير يهدد السلطان العثماني بسلطنة جم، لذلك اضطر بايزيد دفع أموال سنوياً إلى البابا كي يبقى محتفظاً بجم عنده. وبقي جم ١٢ سنة يهدد حكم أخيه بايزيد.

قام الملك الفرنسي شارل الثامن بالهجوم على إيطاليا في ١٤٩٥/١/٢٧م وعندما وصل إلى نابولي طلب من البابا تسليم جم له. وسلم البابا الأمير جم إلى ملك فرنسا.

ولكن البابا وضع السم في طعام جم. وتوفي جم قبل سفره إلى فرنسا وذلك عام ١٤٩٥م ودفن في بلدة جاييت قرب نابولي في إيطاليا (١٥) . وهناك روايات تقول إن البابا وضع السم في طعام جم لأنه رفض التنصر (١٦) . وربما كان هذا الرأي هو الأرجح، وبعد مدة أرسل جثمانه إلى القسطنطينية ثم إلى مدينة بورصة حيث مقبرة سلاطين آل عثمان ودفن هناك.

العلاقات العثمانية المملوكية زمن السلطان بايزيد الثاني:

كانت العلاقات العثمانية المملوكية قد ساءت خاصة بعد لجوء الأمير جم إلى السلطان المملوكي قايتباي في القاهرة. وكادت الحرب تشتعل بين الدولتين المسلمتين، لكن باي تونس – الأمير عثمان الحفصي – أرسل وفداً مكوناً من علي باشا الخادم والمفتي علي العربي ليتوسطوا بالصلح بين قايتباي – حاكم مصر – وبايزيد – حاكم الدولة العثمانية. ولما كان الخلاف بين الدولتين المسلمتين على القلاع الواقعة شمالي سوريا فقد اقترح السلطان بايزيد جعل تلك المنطقة وقفاً إسلامياً على الحرمين الشريفين (١٧) . وفي رواية أخرى أن تقسم تلك المناطق خاصة عندما عقد المماليك اتفاقية الصلح مع العثمانيين عام ١٤٩١م (١٨) واتفقوا على أن تكون الممتلكات جنوب كيليكيا تابعة للمماليك، أما المناطق الجبلية والشمالية فتكون تابعة للعثمانيين.

ولزم بايزيد جانب الصلح مع المماليك ولم يصطدم معهم حتى عام ١٥١٦م عندما اصطدم السلطان سليم مع المماليك، في معركة مرج دابق عام ١٥١٦م.

وفي تلك الأثناء جاء وفد من الأندلس يطلب النجدة من الدول الإسلامية في المشرق وهما دولة المماليك والدولة العثمانية. وقد رد قايتباي المملوكي على الوفد الأندلسي بأنه سوف يهدم كنيسة القيامة في القدس إذا استمر الأسبان في تعديهم على المسلمين في الأندلس [١٩] ، ولكنه لم يرسل جيشاً لمساعدة مسلمي الأندلس، بينما أرسل السلطان العثماني أسطولاً بقيادة كمال الدين، ولأن الدولة العثمانية وقعت في حروب مع الأرناؤوط – ألبانيا – وبلاد المورة لذا تحول الأسطول العثماني عن الذهاب للأندلس فالتقى بالأساطيل الأوروبية التي تفوقت على الأسطول العثماني وأغرقته [٢٠].

العلاقات العثمانية الأوروبية:

كانت علاقة السلطان بايزيد مع الدول المسيحية تختلف عما كانت عليه زمن أبيه، ففي زمن أبيه كانت العلاقة بينهما حروب مستمرة، بينما في زمن بايزيد كانت علاقات صلح وتبادل سفراء مع الدول الأوروبية، فمثلاً أرسلت روسيا سفيراً لها إلى البلاط العثماني حاملاً معه الهدايا رمزاً لحسن الجوار، وأما العلاقة مع بولونيا فكانت حسنة في بداية الأمر، ثم ساءت عندما اختلف العثمانيون مع البولونيين على مناطق البغدان فادعى كل فريق أن بلاد البغدان تابعة له وجرت بينهما حروب نتيجة ذلك.

وأما علاقة الدولة العثمانية مع إيطاليا فكانت حسنة، إلا أن إيطاليا أوقعت حرباً بين العثمانيين والبنادقة مما شجع السلطان بايزيد أن يرسل جيشاً يسيطر به على مدينة ليبانتو من منطقة اليونان، وكانت هذه المدينة تابعة للبنادقة.

كان السلطان بايزيد – بعد انتهاء الحرب مع الدول الأوروبية – قد اتبع سياسة المصالحة بين الدفشيرما والأعيان الأتراك، واستطاع أن يسيطر عليهما، ثم أعطى زمام أمور السلطنة العثمانية إلى الوزير الأعظم، وانصرف هو إلى الزهد والعلم، حيث جمع في بلاطه مشاهير العلماء.

الصراع على السلطنة بين أبناء بايزيد:

لولا سوء الأوضاع بين السلطان بايزيد وأبنائه لاستطاع السلطان فتح بلاد كثيرة في حوض البحر الأبيض المتوسط خصوصاً قرب البندقية. وأهم أولاده: أحمد وكركود وسليم. كان الابن الأكبر أحمد حاكماً على ولاية صاروخان، وكان يطمح أن يكون سلطاناً بعد والده بايزيد، لكن الجيش الانكشاري رفض ذلك لأن أحمد كان قد خسر كثيراً من المعارك ولا يصلح لقيادة الجيش. أما الابن الثاني كركود فكان منقطعاً إلى العلوم والموسيقى مثل والده ولم يرشحه الجيش الانكشاري. أما الابن الثالث سليم فكان يحب الحرب وكان يسير في مقدمة الجيوش دوماً، لذا فقد نال تأييد الجيش الانكشاري له، خاصة عندما انتصر سليم على الشاه الصفوي قولي المقيم في شرقي الأناضول بين القبائل التركمانية. وكان سليم يقود الانكشارية من نصر إلى نصر، لذا عندما أصبح سلطاناً زاد عدد الانكشارية فأصبح عددهم ٣٥،٠٠٠ جندي وقد منحهم مرتبات أكثر مما كانوا يحصلون عليه زمن والده.

كان سليم حاكماً على طرابزون، وكان أصغر أخوته. وخاف سليم أن يتولى السلطنة بعد وفاة أبيه، أخوه أحمد، أو ابن أحمد واسمه علاء الدين الذي احتل بورصة عام ١٥١٢م (٢١) لذلك زحف سليم إلى أدرنة وأعلن نفسه سلطاناً، فجهز والده جيشاً استطاع به كسر جيش ابنه سليم وكاد أن يقتله لولا تدخل الانكشارية الذين طلبوا من بايزيد العفو عن ابنه، بينما استطاع ابنه أحمد أن يحتل بروسة وصاروخان فجهز والده جيشاً كسر ابنه وأدبه ثم أعلن الابن الطاعة. ولكن سليماً لم يسكت بل زحف بجيشه إلى القسطنطينية فاستقبله الانكشارية، وأرغموا السلطان بايزيد على التنازل عن العرش إلى ابنه سليم (٢٢) وذلك عام ١٥١٢م. وقد توفي السلطان العثماني بايزيد في العام نفسه ١٥١٢م بينما كان أحمد ذاهباً إلى بروسة حيث قتل فيها عام ١٥١٣م في معركة مع أخيه سليم. أما كركود فقد هرب إلى بلاد الفرس طالباً حق اللجوء السياسي مع الصفويين لكن سليماً لحقه وجرت معركة بين العثمانيين والصفويين عام ١٥١٤م هي معركة شالديران (٢٣) ، انتصر فيها سليم على الصفويين لكنه لم يظفر بأخيه كركود. واستطاع سليم أن يصل إلى مدينة تبريز (٢٤) و أخضع الصفويين ثم رجع إلى القسطنطينية كما سيأتي ذلك فيما بعد.

العلاقات العثمانية الصفوية:

كانت العلاقات العثمانية الصفوية قد تدهورت عندما قام الشاه إسماعيل مؤسس الدولة الصفوية بنشر تعاليمه الشيعية بين القبائل التركمانية في الأناضول، واعتبر بايزيد هذا العمل تدخلاً سياسياً وليس دينياً فقط. ولم يكتف إسماعيل الصفوي بذلك بل جهز جيشاً بقيادة شاه قولي سار به إلى الأناضول، فطلب بايزيد المساعدة من المماليك، ولكن السلطان المملوكي اكتفى بأن أمر الحاميات المملوكية في حلب بمساعدة السلطان العثماني إذا دخل الجيش الصفوي الأراضي المملوكية فقط [٢٥] . وقد جهز السلطان بايزيد العثماني جيشاً لملاقاة الصفويين عام ١٥١١م، وقد انتصر عليهم ولكنه لم يتابع الزحف نحو إيران وبقيت الجبهة الصفوية العثمانية ساخنة حتى عام ١٥١٤م عندما حصلت معركة شالديران سابقة الذكر.

السلطان سليم الأول ١٥١٢م ـ ١٥٢٠م:

وصل السلطان سليم الأول إلى عرش السلطنة خلفاً لأبيه بايزيد عام ١٥١٢م بعد أن توفي بايزيد. وقد حاول كل واحد من أبنائه أن يصل إلى الحكم، ولكن سليم كان أقوى أخوته جميعاً لأنه كان عسكرياً، وقد لقب بـ «ياوون» بالتركية أي الشجاع [٢٦] . وقد دعمه الجيش الانكشاري للوصول إلى الحكم.

حروبه مع الصفويين:

ظهرت في بداية حكم السلطان تحديات الشيعة الصفويين [٢٧] ضد سليم حيث ثار الشيعة في آسيا الصغرى بقيادة شاه قولي [٢٨] . وكانت ثورته قد نشبت في أواخر أيام حكم السلطان بايزيد والد السلطان سليم الأول. اعتمد الثائر شاه قولي على دعم الشيعة له في إيران، لكن السلطان سليم لم يسكت على وجود ثورة في أسيا الصغرى ضد الدولة العثمانية وخاصة أن شاه قولي قد احتل كوتاهية وحاصر بورصة، لذلك أرسل السلطان سليم جيشاً مكوناً من ثمانية آلاف جندي وطارد الشاه قولي حتى تمكن من القضاء على ثورته وقتله. ثم قتل السلطان آلاف الشيعة الموجودين في آسياه الصغرى، وفر ما تبقى من الجند (القزلباش) [٢٩] إلى إيران، عندئذ تأثر وغضب الشاه إسماعيل في إيران عندما سمع أن آلاف الشيعة يقتلون في آسيا الصغرى، فأراد

الانتقام من السلطان سليم. لذلك أرسل الشاه إسماعيل رسالة إلى المماليك في مصر طالباً منهم العون في قتال العثمانيين [٣٠] ، فوعده المماليك بالمساعدة سراً إذا وصل في تقدمه إلى آسيا الصغرى ولم يعلم سليم بذلك. قام سليم الأول بالزحف من أدرنة إلى آسيا الصغرى على رأس جيش كبير ثم زحف إلى تبريز لقتال الصفويين، واستطاع سليم الانتصار على الشاه إسماعيل الصفوي ودخل عاصمته تبريز عام ١٥١٤م في معركة شالديران، وأعلنت المساجد في خطبة الجمعة باسمه، وبقي هناك مدة ثمانية أيام ثم انسحب منها لقلة المؤن وشدة البرد القارس.

انسحب سليم إلى القوقاز شمالاً وعسكر في «قره باغ» على أمل أن يعود في العام القادم لاستكمال احتلال إيران، لكنه لم يعد بسبب ما ذكرنا من قلة المؤن، وعدم رغبة الانكشارية في متابعة الحرب لملاحقة الشاه إسماعيل في الهضاب الجرداء وصعوبة اختراقها. كان الشاه قد اتبع سياسة الأرض المحروقة أثناء حربه مع العثمانيين، إذ أحرق كل ما يمكن أن يستفيد منه العثمانيون. وهذه السياسة كان قد اتبعها الصفويون باستمرار في معظم الحروب. بعد انتصار سليم على الصفويين في شالديران حصل على خزائن الشاه من تبريز كما أخذ كثيراً من العلماء الإيرانيين معه إلى الدولة العثمانية.

كانت نتيجة معركة شالديران الانتصار الساحق للسلطان سليم الأول العثماني، وهزيمة الشاه إسماعيل الصفوي. **أما نتائج المعركة فنستطيع حصرها في ثلاث نقاط مهمة هي:**

١. فعالية المدفعية والبنادق التي استخدمها العثمانيون ضد القوى الصفوية التي كان أغلبها من الفرسان ويستعملون السيوف.

٢. ضم منطقة الأناضول الشرقية إلى الدولة العثمانية، ومن أهم مدنها ديار بكر ومرعش وهذه المناطق غنية اقتصادياً. لذلك استطاع العثمانيون السيطرة على الطرق التجارية الهامة خاصة طرق نقل الحرير الفارسي بين تبريز وحلب، وبين تبريز وبورصة ماراً بهضبة الأناضول. كما استفاد العثمانيون من ضم هضبة الأناضول عسكرياً حيث كانت هذه الهضبة عائقاً للغزاة القادمين من الشرق قاصدين ضرب العثمانيين.

٣. أصبح واضحاً للشاه الصفوي – بعد المعركة – ضرورة تنظيم الجيش من جديد، خاصة وأن القبائل التركمانية الشيعية المعروفة بالقزلباش قد ضعفت ولم تعد تساعده علماً بأن الشاه يعتبر مرشدهم الأكبر، والقزلباش (أي الرأس الأحمر) هم جماعة وضعوا على رؤوسهم لباساً متميزاً عن غيرهم من الشيعة، حيث كان لباس الرأس عبارة عن لفّة حمراء كبيرة مكونة من ١٢ لفة تمجيداً للأئمة الشيعة الإثني عشرية.

وبعد وفاة الشاه إسماعيل عام ١٥٢٤م خلفه ابنه طهماسب الأول وقد حدثت في زمنه ثورة قبائل القزلباش وقد أحرجوا موقف طهماسب، لذلك وجد أنه مضطر لإيجاد جيش جديد، بدلاً من القزلباش، كي يعتمد عليه في مواجهة العثمانيين، وهذا الجيش الجديد، الذي اعتمد عليه، كان مكوناً من عناصر شركسية وجورجية. لكن نستطيع القول أن الجبهة العثمانية الصفوية بقيت مدة ثلاثين عاماً هادئة بسبب معاهدة أماسيا.

هوامش الفصل الرابع:

1. زياد أبو غنيمة: السلطان المجاهد محمد الفاتح، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٣م. ص ١٤.
2. أطلق محمد الفاتح على القسطنطينية بعد فتحها اسم "إسلام بول" أي مدينة السلام، أو مركز السلام.
3. علي حسون: العثمانيون والروس، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢م.
4. زياد أبو غنيمة: مصدر سابق، ص ٣٦.
5. زياد أبو غنيمة: المصدر نفسه، ص ٣٧.
6. محمد فريد بك المحامي: الدولة العلية العثمانية. ص ٥٩، وانظر زياد أبو غنيمة: السلطان محمد الفاتح. ص ٣٩.
7. زياد أبو غنيمة: المصدر السابق، ص ٤٦، ص ١٢٢.
8. زياد أبو غنيمة: المصدر نفسه، ص ٨٧.
9. زياد أبو غنيمة: المصدر نفسه ص ٩٩- ١٠٠.
10. زياد أبو غنيمة: المصدر نفسه ص ١١٦.
11. زياد أبو غنيمة: المصدر نفسه ص ١٣٠.
12. زياد أبو غنيمة: المصدر نفسه ص ١٤٥.
13. زياد أبو غنيمة: المصدر نفسه ص ١٨٢.
14. بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية. ص ٤٤٢.
15. محمد فريد بك المحامي: مصدر سابق. ص٧٠.
16. إحسان النمر: نظرات وتحقيقات في التاريخ العثماني، مطبعة النصر التجارية، نابلس، ص٥٥.

يقول بروكلمان أن بايزيد هو الذي طلب من البابا وضع السم لأخيه جم، وهذا كذب وافتراء على بايزيد، وقصد بروكلمان طعن الإسلام بهذا الكلام.

١٧.إحسان النمر: مصدر سابق، ص ٥٦.

١٨.Shaw: History of the Ottoman Empire. P. 73

١٩.إحسان النمر: نظرات وتحقيقات في التاريخ العثماني، ص ٥٦.

٢٠.إحسان النمر: المصدر نفسه. ص ٥٧.

٢١.Cook: History of the Ottoman Empire. P. 69

٢٢.إحسان النمر: المصدر السابق، ص ٥٧. انظر أيضاً:

Shaw: History of the Ottoman Empire. P. 76

٢٣.شالديران أو جالديران: هو سهل شرقي الأناضول بالقرب من الحدود الروسية التركية الإيرانية. يقع بين مدينة Khoy ومدينة Tabriz.

٢٤.تبريز هي مدينة غربي إيران. وهي ثاني مدن إيران الكبرى وعاصمة إقليم أذربيجان.

٢٥.Shaw: History of the Ottoman Empire. P. 78

بينما ذكر فريد بك المحامي في كتابه تاريخ الدولة العلية العثمانية أن الشاه إسماعيل طلب من المماليك المساعدة لضرب الدولة العثمانية لإيقاف سيرها، موضحاً للمماليك أن الدولة العثمانية خطر على المماليك والصفويين، وإذا لم يتحدا فسوف يقوم السلطان العثماني بضرب كل منهما على حده. انظر. ص ٧٣ – ٧٤.

٢٦.إحسان النمر: مصدر سابق، ص ٥٦.

٢٧.الصفويين نسبة إلى الشيخ صفي الدين (١٢٥٢ – ١٣٣٤م) .

٢٨.رافق: العرب والعثمانيون، ص ٥٦.

٢٩.لباس خاص يوضع على الرأس لونه أحمر مكون من ١٢ لفة.

٣٠.محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٧٢.

الفصل الخامس

سيطرة العثمانيين على بلاد الشام ومصر وشمالي إفريقيا ومتابعة الفتوحات في البلقان

الفصل الخامس

سيطرة العثمانيين على بلاد الشام ومصر وشمالي إفريقيا ومتابعة الفتوحات في البلقان

كانت هناك أسباب رئيسة شجعت السلطان سليم على مواجهة المماليك وإعلانه عليهم حرباً شعواء، علماً بأن المماليك والعثمانيين كليهما مسلمان سنيان. وكانت هذه الأسباب منها تاريخية حصلت سابقاً قبل قدوم السلطان سليم، ومنها ما حدث في زمنه. **وأهم هذه الأسباب ما يلي:**

النزاع على إمارة البستان:

تقع هذه الإمارة بين مرعش وملاطيا، وهي إحدى الإمارات التركمانية في الأناضول. وسميت هذه الإمارة بهذا الاسم نسبة إلى عاصمتها البستان، كما سميت أيضاً إمارة ذي القدر نسبة إلى أسرة ذي القدر التي حكمت هذه الإمارة. وقد جرى صراع بين المماليك والعثمانيين حول السيطرة والتدخل في أمور هذه الإمارة، لدرجة أن أفراد الأسرة الحاكمة تنازعوا على حكم الإمارة.

والحدث الهام الذي حصل مع السلطان العثماني سليم في هذه الإمارة، أنه عندما ذهب لقتال الصفويين عام ١٥١٤م، كان قد طلب من علاء الدولة حاكم إمارة البستان تقديم بعض الشباب للانضمام للجيش العثماني لقتال الصفويين، ولكنه رفض، لذا عندما رجع سليم بعد انتصاره على الصفويين في معركة شالديران عام ١٥١٤م تفرغ لقتاله. فبعث السلطان سليم جيشاً بقيادة سنان باشا عام ١٥١٥م قدر عدده (حوالي ١٠،٠٠٠ جندي) انكشاري، وانتصر العثمانيون على علاء الدولة وقتلوه وعينوا بدلاً منه شاه سيوار أو شهوار الذي حكم إمارة البستان تحت الراية العثمانية [(١)] . وقد غضب المماليك من العمل الذي قام به سليم الأول.

إيواء المماليك لجم ابن السلطان محمد الفاتح [٢] :

هرب الأمير جم إلى القاهرة وطلب اللجوء السياسي، ورحب به السلطان المملوكي قايتباي حتى أنه ساعده في الهجوم على السلطان العثماني بايزيد (أخو جم) ، وعندما فشل جم في المعركة ضد أخيه هرب إلى رودس حيث لجأ إلى المسيحيين وهم فرسان القديس يوحنا. وبقي جم يهدد أخاه بايزيد مدة تزيد على ١٢ عاماً حتى توفي عام ١٤٩٥م في أوروبا.

قدم العثمانيون مساعدات عسكرية ضخمة إلى المماليك في بداية القرن السادس عشر وذلك للدفاع عن الأراضي المملوكية على سواحل البحر الأحمر ضد البرتغاليين، ففي عام ١٥١١م نجح العثمانيون في إيصال ٤٠٠ مدفع وأربعين قنطاراً من البارود إلى المماليك [٣] . وذلك لصد البرتغاليين عن البحر الأحمر، ولحماية الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز، هذا مع العلم أن مدن المشرق العربي والآستانة قد ملئت بالمهاجرين المسلمين من الأندلس [٤] .

لقد كان اندفاع البرتغاليين للشرق لهدفين هامين هما: الدافع الديني، والدافع الاقتصادي، ويرجع العامل الديني إلى احتدام الصراع بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس، أما العامل الاقتصادي فيرجع إلى رغبة البرتغاليين في المشاركة في أرباح التجارة الشرقية. وقد عبر الملك عمانويل الأول (١٤٩٥ – ١٥٢١م) الذي قامت في عهده أول حملة بحرية إلى الشرق في خطبة طويلة له عن أغراض الحملة وذلك عند انطلاق الحملة فقال: إن الغرض من اكتشاف الطريق البحري إلى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق [٥] ، وكان قائد الحملة فاسكودي غاما، وكانت حملته مزودة بالمدافع وترفع الصليب، وقد نجح البرتغاليون في الوصول إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح واحتكروا تجارة الشرق وضعفت الموانئ العثمانية والعربية تجارياً.

كان لا بد من الصدام المملوكي العثماني نتيجة الأسباب التي ذكرناها سابقاً. لذلك زحف الجيش المملوكي بقيادة السلطان قانصوه الغوري متوجهاً من القاهرة إلى حلب فوصلها وعسكر فيها. وزحف السلطان العثماني سليم الأول للقاء المماليك قرب حلب. واصطدم الجيشان المسلمان في معركة مرج دابق [٦] قرب حلب بتاريخ

١٥١٦/٨/٢٣م. وانتصر العثمانيون في المعركة وهزموا المماليك وقتل السلطان المملوكي قانصوه الغوري في المعركة. ثم دخل السلطان سليم حلب وكان يصحبه الخليفة العباسي الذي كان مرافقاً للسلطان المملوكي المقتول. **وكان انتصار العثمانيين في المعركة لعدة أسباب**:

١. خيانة خير بك والي حلب المملوكي الذي خان المماليك وانضم إلى السلطان العثماني أثناء المعركة.

٢. استعمال السلاح الناري والمدافع العثمانية في المعركة، علماً بأن المماليك لم يستعملوا هذه الأسلحة بل استعملوا السيف والرمح واحتقروا من يستعمل الأسلحة النارية التي أسموها أسلحة الشيطان لأنها صنعت في البلاد الأوروبية.

دخل السلطان سليم حلب، ودُعي له في خطبة الجمعة، ولقب بخادم الحرمين الشريفين، ولم يكن قصد السلطان سليم التقدم أكثر في الأراضي المملوكية بل اكتفى بحلب فقط، كما لم يكن قصده الذهاب لكسر المماليك في مصر، والدليل على ذلك أنه عرض على السلطان المملوكي الجديد طومان باي تقديم خضوعه للعثمانيين مقابل إسناد السلطان سليم حكم مصر إلى طومان باي، ولكن الأخير رفض وأصر على الحرب، لذلك سار السلطان سليم فيما بعد بتشجيع من خير بك المملوكي والي حلب لمتابعة الزحف نحو دمشق. ووصل الجيش العثماني حماه ثم حمص ثم دمشق. وقدم زعماء دمشق ولاء الطاعة للعثمانيين وكان على رأسهم قضاة المذاهب الأربعة، وقام السلطان سليم بأعمال هامة في دمشق كي يحبب الأهالي به فألغى الضرائب ووزع الأموال على الأهالي وعزل واليها المملوكي واحترم العلماء في دمشق، كما زين ثوب المحمل الشريف الذي يرافق قافلة الحج إلى الحجاز، وزار قبر العالم المسلم محيي الدين بن عربي في الصالحية بدمشق. ووصف ابن طولون في كتابه «مفاكهة الخلان» هدير المدافع قرب دمشق والتي أخافت الأهالي وظن الناس في دمشق «أن السماء انطبقت على الأرض» [٧].

اكتفى السلطان سليم بهزيمة المماليك ودخوله دمشق، ولكن خير بك شجعه على الزحف حتى القاهرة، وقد فكر السلطان سليم ملياً في الموضوع لأن فيه مخاطر كثيرة ربما تجر الدولة العثمانية إلى الهاوية، ومن أهم هذه المخاطر اجتياز الجيش العثماني

صحراء سيناء، وقرب الجيش العثماني من الخطر البرتغالي المقيم على سواحل البحر الأحمر، والخوف من استغلال الصفويين انهماك سليم في الحرب والزحف نحو القسطنطينية، كل هذه المخاوف جالت في خاطر السلطان سليم، وأخيراً قرر تجاهل هذه المخاطر كلها والزحف نحو القاهرة لقتال المماليك. سار سليم على رأس جيشه جنوباً فدخل القدس ثم اتجه نحو الساحل الفلسطيني فدخل غزة، ومن هناك بعث القائد سنان باشا لرصد الطريق من غزة إلى القاهرة والتقى بالغزالي الذي كان قد هرب من دمشق إلى القاهرة، وجرت معركة بينهما انتصر فيها العثمانيون ثم رجع سنان باشا إلى غزة وشجع سليم الزحف نحو القاهرة.

وقد تابع السلطان سليم الزحف حتى وصل الريدانية ودارت هناك معركة بين الجيش العثماني والجيش المملوكي في الريدانية بتاريخ ١٥١٧/١/٢٣م، وقد دخل العثمانيون القاهرة بعد انتصارهم في المعركة.

قام خطباء مساجد القاهرة بمدح سليم من على منابر المساجد رغم أن الحرب كانت مستمرة في شوارع القاهرة بين العثمانيين والمماليك، لكن في أحد أيام الجمعة خطب الخطباء للسلطان طومان باي بدلاً من السلطان سليم، وهذا دلالة على أن النصر لم يكن محققاً للعثمانيين في بداية الأمر. ولكن أثناء معركة الريدانية هرب طومان باي (السلطان المملوكي) والتجأ إلى شيخ بدو البحيرة حسن بن مرعي، الذي قام بتسليم طومان باي إلى السلطان سليم، فقام السلطان العثماني بإعدامه في باب زويلة في القاهرة بتاريخ ١٥١٧/٤/١٣ (٨) . وكما فعل سليم في دمشق من احترام للعلماء والأهالي وإعفاء السكان من الضرائب، فعل كذلك مع أهالي القاهرة، وكان قصده من ذلك أن يكسب محبة سكان القاهرة وأن يقدموا له ولاء الطاعة.

كان السلطان سليم أثناء وجوده في مصر قد تلقى رسالة من شريف مكة المكرمة السيد بركات بن يحيى يعلن ولاءه للعثمانيين، لذلك عينه السلطان والياً على الحجاز وجدة، وهذا التعيين من قبل السلطان العثماني سار على نهجه السلاطين فيما بعد. «وقد أضفى ضم الدولة العثمانية للأماكن الإسلامية المقدسة، أضفى عليها زعامة دينية في العالم الإسلامي، وتأكيداً لهذه الزعامة في العالم السني، وهي الزعامة

التي ترتبت على هزيمة الصفويين وتضييق نطاق انتشار المذهب الشيعي بعد موقعة شالديران» [٩] . وقد أضاف سليم إلى ألقابه على أثر موقعة مرج دابق لقب خادم الحرمين الشريفين، ثم أوقف كثيراً من الأماكن وربط كثيراً من الأوقاف على المسجد الأقصى المبارك ثم على الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز.

لمع اسم بركات بن يحيى (شريف مكة) في الحجاز، فأخذ يوسع نفوذه، فقام بإعلان الحرب على الأمير حسين الكردي حاكم جدة المملوكي كي يصبح خاضعاً للعثمانيين، لكن حاكم جدة هرب إلى زبيد في اليمن وتحالف مع الأمير برسباي المملوكي هناك، وقتلا السلطان عامر بن عبد الوهاب في صنعاء، وبوفاته انقرضت الدولة الطاهرية في اليمن عام ١٥١٧م. وبقيت اليمن تخضع للمماليك إلى أن جاء العثمانيون ودخلوها، وسنذكر ذلك فيما بعد.

أبقى السلطان سليم الموظفين المماليك في مصر في وظائفهم، ولكنه اشترط عليهم طاعة الدولة العثمانية، ومكث السلطان سليم في مصر حتى ١٠/٩/١٥١٧م، وقد عين على مصر خير بك حاكماً ثم قرر الرجوع إلى بلاد الشام. ولم يجرد السلطان سليم المماليك من إقطاعاتهم ولم يعتبرهم أسرى حرب، واكتفى بتعيين قاضٍ ليوحد القضاة، ووالٍ يجلس مع جنده ليحكم بينهم، ولكن الوزير يونس باشا انتقد السلطان سليم لهذا التهاون مع المماليك حتى أنه أنّب السلطان سليم على عمله فقام السلطان وقتل يونس باشا وسمي الموقع الذي كان فيه يونس باشا أثناء قتله بخان يونس، وما زال هذا الاسم حتى الآن في قطاع غزة [١٠] .

رجع السلطان سليم من مصر إلى دمشق مصطحباً معه العلماء والصناع وأصحاب الحرف، ثم سار إلى العاصمة العثمانية. وفي دمشق قضى سليم على «الزعران» الذين قاموا بمحاولة الشغب ضد المماليك وضد العثمانيين، خاصة عندما سمعوا بعدم انتصار العثمانيين في مصر كلياً في معركة الريدانية. وقد عين سليم على حكم دمشق الغزالي الذي كان قد اشترك في الحرب ضد العثمانيين في معركة مرج دابق عام ١٥١٦م، والغزالي من زعماء المماليك، كان قد خان المماليك في معركة الريدانية، ومكافأة له على ذلك عيّنه السلطان العثماني والياً على دمشق. كما طرد السلطان سليم التنوخيين من جبل لبنان وعين محلهم المعنيين، زعماء منطقة الشوف، الذين ساعدوا العثمانيين في معركة مرج دابق، ورجع السلطان سليم من دمشق إلى استنبول (القسطنطينية) العاصمة.

ذكرنا سابقاً أن الخليفة العباسي المتوكل على الله كان بصحبة السلطان قانصوة الغوري المملوكي في معركة مرج دابق، ولكن عندما هزم المماليك وقتل قانصوة الغوري وانتصر السلطان سليم في المعركة، اصطحب السلطان سليم الخليفة معه من حلب حتى مصر، وفي القاهرة «أضفى السلطان سليم على الخليفة المتوكل على الله ضروباً من الثقة والنفوذ، حتى عظم أمره وهيبت سطوته وقبلت شفاعته وأصبحت داره ملجأ لذوي الحاجة سادة وغير سادة. وكانت هذه لا شك سياسة حازمة من السلطان سليم» (١١) . وقد تنازل الخليفة العباسي في القاهرة إلى السلطان سليم عن حقه بالخلافة وسلّمه الآثار النبوية الشريفة وهي البيرق والسيف والبردة، وسلمه مفاتيح الحرمين الشريفين (١٢) ، من هنا جاء لقب خادم الحرمين الشريفين.

ويذكر إحسان النمر في كتابه «نظرات وتحقيقات في التاريخ العثماني» أن السلطان سليم أشار على الخليفة عندما قرر الرجوع إلى استنبول أن يحمل المخلفات النبوية ويذهب بها إلى العاصمة استنبول بحراً. وبعد قليل توفي السلطان فعاد الخليفة بنفسه للقاهرة دون المخلفات النبوية إلى مصر وأقام فيها يتقاضى راتباً إلى أن توفي، فلم ينتخب غيره وبذلك انتهت هذه الخلافة الاسمية (١٣) . وقد وضعت المخلفات النبوية في سراية خاصة تعرف بسراية «طوب قبو»، وقد خصص لها حرس خاص. ومن الجدير بالذكر أن الدكتور حسن عثمان ذكر في كتابه منهج البحث التاريخي (١٤) أنه عثر على مخطوطة يرجع تاريخها إلى السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ – ١٥٦٦م) وقد نصت نصاً صريحاً على لقبي الخلافة والإمامة معاً. ومكان هذه المخطوطة في مكتبة جامعة القاهرة، وهي صورة لمجموعة من مجموعات القوانين التي أصدرها السلطان سليمان القانوني في أوروبا وتحتوى على بعض ألقاب السلطان وهذا هو نصها: «خليفة رسول رب العالمين، وحايز الإمامة العظمى، ووارث الخلافة الكبرى» كما عثر الدكتور حسن عثمان على بعض المراسلات السلطانية مع حكومة النمسا في أوائل القرن السابع عشر وهي محفوظة في أرشيف فينا التاريخي وتحتوي على لقب الخليفة وتستند إلى القرآن الكريم لتبرير قيام الخلافة (١٥) . لكن سلاطين آل عثمان لم يهتموا بلقب الخلافة اهتماماً جدياً إلا بعد أن أصاب دولتهم الضعف الواضح منذ أوائل القرن الثامن عشر وبخاصة بعد توقيع «معاهدة كوجوك كاينارجا» عام ١٧٧٤م التي سمحت فيها روسيا للسلطان الإبقاء على بعض الصلاحيات الدينية

في شبه جزيرة القرم التي احتلها الروس، باعتباره خليفة للمسلمين وهو ادعاء أقرّه الروس ولم يقره الفقهاء المسلمون (١٦) .

ذكرنا قبل قليل أن السلطان سليم رجع إلى استنبول، وقد وصلها في ١٥١٨/٧/٢٥م بعد أن مر على حلب وأقام فيها مدة شهرين. وبعد إقامته في العاصمة العثمانية استنبول سافر إلى أدرنة مستريحاً من عناء السفر والحروب، والتقى هناك بابنه سليمان الذي كان حاكماً على أدرنة طوال غياب سليم في الوطن العربي. ومن أدرنة بدأ السلطان سليم يعد العدة لغزو جزيرة رودس لكن المنية عاجلته فتوفى بتاريخ ١٥٢٠/٩/٢٢م. سمع الأوروبيون نبأ وفاة السلطان سليم ففرحوا وكأن غمامة سوداء انقشعت من أمام أعينهم (١٧) . عاش سليم ٥٤ عاماً، قضى منها على عرش السلطنة ٨ سنوات، وهو أول سلطان لم يطلق لحيته، وكان رجال الدولة يعيبونه بذلك (١٨) . كان شاعراً ونشر ديوانه عام ١٩٠٤م بأمر من القيصر الألماني ولهلم الثاني، وقدم هذا الديوان هدية للسلطان عبد الحميد الثاني (١٩) .

السلطان سليمان القانوني:

ولد السلطان سليمان القانوني بتاريخ ١٤٩٤/٤/٢٧م وهو عاشر السلاطين العثمانيين، اعتلى عرش السلطنة العثمانية بعد وفاة أبيه السلطان سليم. وقام الجيش الانكشاري في القسطنطينية بتنصيبه سلطاناً خلفاً لأبيه بتاريخ ١٥٢٠/٩/٣٠م.

كان سليمان يتقبل التعازي بوفاة أبيه ويلبس اللباس الأسود حداداً عليه، وفي الوقت نفسه كان يقوم الناس بعد تعزيته بتهنئته بالسلطنة والخلافة. وكان يقوم بتقديم النقود والهدايا على الانكشارية كعادة السلاطين عندما يصلون إلى منصب السلطنة. وقد أرسل مجموعة رسائل إلى مختلف الأمصار يخبرهم بوصوله إلى سدة الحكم ويقدم لهم النصائح الكثيرة في إدارة ولاياتهم، وكان يكتب لهم الآية الكريمة: «إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم» (٢٠) .

الحروب العثمانية الأوروبية زمن سليمان القانوني:

١. فتح بلغراد:

كان السلطان سليمان القانوني قد أرسل وفداً إلى بلاد المجر يطلب من ملكها دفع الجزية أو الحرب، لكن ملك المجر قتل الوفد العثماني لذلك قرر السلطان الزحف لقتاله.

سار السلطان بنفسه على رأس الجيش العثماني، وأرسل أحمد باشا بيلربي الروملي على رأس فرقة عسكرية ثانية لمحاصرة مدينة شابتس، ثم تبعه السلطان مصحوباً بالصدر الأعظم بيري باشا لمحاصرة بلغراد (وهي مدينة هامة في بلاد المجر) . وقد بدأت المدافع العثمانية دك أسوار بلغراد من منطقة الدانوب. وقطع العثمانيون الماء عنها وحاصروها حصاراً شديداً حتى استطاعوا دخول قلعتها، وخضعت أخيراً بلغراد بعد معارك حامية مع حاميتها وذلك بتاريخ ١٥٢١/٨/٢٩م [٢١] . وهكذا تم فتح هذه المدينة المجرية لتصبح تابعة للعثمانيين.

٢. فتح رودس:

بعد انتصار السلطان العثماني على أعدائه في المجر، قرر سليمان الزحف إلى جزيرة رودس، حيث فرسان القديس يوحنا. وأراد أن تكون الطريق البحرية سليمة بين القسطنطينية ومصر، لأن جزيرة رودس تعترض الطريق البحري إلى مصر. كان السلطان سليم قبل وفاته قد جهز حملة كبيرة لفتحها ولكن عاجلته المنية قبل القيام بالفتح، وكان السلطان محمد الفاتح قد قام عام ١٤٨٠م بحروب ضد رودس لكن الفاتح لم يستطع فتحها. ومن المعروف أن رودس كانت تقوم بعرقلة السفن التجارية الإسلامية في شرقي البحر المتوسط وتعرقل سير الحجاج العثمانيين إلى مكة المكرمة عبر البحر المتوسط، كل هذه العوامل السابقة شجعت السلطان سليمان على التوجه نحو رودس لفتحها، فجهز حملة بتاريخ ١٥٢٢/٦/٢٦م وكان هو على رأسها، وسارت الحملة في آسيا الصغرى باتجاه بحر مرمرة، كما أرسل الأسطول العثماني لمحاصرة الجزيرة بتاريخ ١٥٢٢/٦/٢٤م. وقد طلب السلطان من رهبان الجزيرة مغادرتها قبل قصفها، واستعد أن تؤمن السلامة لهم عند مغادرتهم الجزيرة، ولكنهم رفضوا طلبه، لذلك بدأ في دك وقصف الجزيرة بالمدافع العثمانية الثقيلة والتي ما زالت بعض قللها (طلقاتها) في جزيرة رودس حتى الآن. بعد هذا الحصار والقصف الشديد أعلن رئيس الرهبان – فيليب دي ليل آدم– وجميع الرهبان موافقتهم على مغادرة الجزيرة، وقد وافق السلطان سليمان على ذلك، لذا ابتعد الأسطول العثماني ميلاً عن الجزيرة كي يسمح لمن يريد مغادرة الجزيرة بحرية. وقد غادر الجزيرة كل الرهبان وعائلاتهم وبعض الأهالي وذلك بتاريخ ١٥٢٢/١٢/٢١م. ومنذ ذاك التاريخ سطعت شمس الدولة العثمانية على جزيرة رودس.

بعد هذا الانتصار في رودس أخذ السلطان يتدخل في حكم المناطق التابعة لغير المسلمين، فمثلاً أرسل بعض الجيوش العثمانية إلى بلاد القرم وذلك لمساعدة حاكم مسيحي على حاكم مسيحي آخر لاعتلاء العرش في بلاد القرم عام ١٥٢٢م. وفي عام ١٥٢٤م صمم السلطان سليمان أن تصبح بلاد الأفلاق تابعة فعلياً للدولة العثمانية بدلاً من أن تكون تابعة اسمياً وتدفع الجزية فقط. لذلك أرسل جيشاً عثمانياً استطاع أن يدخل عاصمتها وبذلك أصبحت بلاد الأفلاق تخضع للشمس العثمانية.

٣. فتح عاصمة المجر:

أرسل الملك الفرنسي فرنسيس الأول عام ١٥٢٥م رسالة إلى السلطان العثماني طلب فيها المساعدة لقتال شارلمان ملك بلاد (النمسا وهولاندا وإسبانيا والبلاد المنخفضة) . وكانت هذه البلاد كلها تابعة لشارلمان الذي هو أحد أفراد سلالة فريدناند وإيزبيلا اللذان طردا المسلمين من الأندلس. وقد كان هناك عداء واضح بين ملك فرنسا وشارلمان. وصل الوفد الفرنسي إلى القسطنطينية وطلب المساعدة الفعلية من الدولة العثمانية لفرنسا. وافق السلطان العثماني على ذلك وأرسل رسالة إلى ملك فرنسا يخبره بالموافقة لمساعدته (٢٢) . كما وافق السلطان على مهاجمة ملك المجر، أحد حلفاء شارلمان، كي لا يقوم بتقديم المساعدة لشارلمان. وفي ١٥٢٦/٤/٢٥م سافر السلطان العثماني على رأس جيش كبير قدر عدده بـ ١٠٠،٠٠٠ جندي من القسطنطينية إلى بلاد المجر، ووصل السلطان في زحفه إلى مدينة موهاكس، ودارت على أرضها معركة حامية الوطيس بتاريخ ١٥٢٦/٨/٢٨م، بين السلطان العثماني وبين لويس ملك المجر. وقد انتصر السلطان سليمان بسبب كثرة المدافع التي كانت ترمي الفرسان المجرية بقذائفها، وقد قتل قائد المجر لويس ولم يعثر على جثته، عندئذ قام أهالي عاصمة المجر (بودا) وسلموا مفاتيح العاصمة للسلطان سليمان كي يدخلها دون حرب. ودخلها بالفعل في ١٥٢٦/٩/١٠م بعد أن طلب من الجيش الانكشاري عدم التعرض لأهاليها. وقد عين السلطان سليمان القانوني على بودا عاصمة المجر ملكاً هو (جون زابولي) أمير ترانسلفانيا، ورجع السلطان إلى القسطنطينية بعد أن حمل معه كثيراً من الكتب العلمية النادرة الموجودة في خزائن مدن المجر.

وصل السلطان عاصمته في ١٥٢٦/١١/٢٣م، وبعد سنة واحدة جاءه وفد أرسله زابولي يطلب النجدة لأن ملك النمسا فرديناند (أخ لشارلمان) ادعى أنه أحق بالملك من زابولي بسبب قرابته مع ملكها المقتول لويس في معركة موهاكس. غضب سليمان القانوني من ملك النمسا لأنه خلع زابولي الذي كان قد عينه سليمان حاكماً على المجر، وقد استعد سليمان لإرسال جيش لمساعدة زابولي وإعادته إلى عرش الملك.

وفي عام ١٥٢٩م سار السلطان سليمان وبصحبته ثلاثة وزراء هم: إبراهيم باشا وإياس باشا وقاسم باشا، وساروا على رأس جيش قدر عدده بـ ٢٥،٠٠٠ جندياً وثلاثمائة مدفع. وصل السلطان موهاكس التي كان قد هزم فيها لويس. والتقى هناك بالملك المخلوع زابولي. وساروا جميعاً إلى بودا عاصمة المجر، ووصلوها بتاريخ ١٥٢٩/٩/٣م وقد هرب منها فرديناند ملك النمسا الذي خلع زابولي إلى مدينة فينا عاصمة النمسا لكن السلطان سليمان لم يكتف بهذا النصر بل صمم على ملاحقته وذلك بعد أن عين على بودا عاصمة المجر أحد ضباط الانكشارية لحفظ الأمن.

٤. الحرب مع النمسا:

قرر السلطان سليمان القانوني ملاحقة فرديناند إلى فينا عاصمة النمسا، لذا تحركت الجيوش العثمانية بتاريخ ١٥٢٩/٥/١٠م ومر السلطان في زحفه وطريقه على عاصمة المجر بودا، وبعد استراحة قليلة فيها سار إلى فينا التي وصل إلى أسوارها بتاريخ ١٥٢٩/٩/٢٧م. بقي السلطان سليمان محاصراً فينا حتى ١٥٢٩/١٠/١٤م. وأطلق مدافعه عليها طيلة فترة الحصار، لكن فرديناند دافع عن المدينة ولم يستطع السلطان دخولها، وقرر السلطان الرجوع عن أسوار فينا لأسباب منها: نفاد الذخيرة للمدافع أولاً، وبسبب قرب حلول موعد سقوط الثلج، لأن الجو أصبح شديد البرودة وبسبب الأمطار الغزيرة التي عطلت الجنود الانكشارية من التقدم ثانياً. وقد ترك السلطان فينا مؤقتاً مصمماً على الرجوع في الوقت المناسب.

كانت هذه هي أول مرة لم يحقق السلطان سليمان فيها نصراً على أعدائه، لكن رغم فشله في فتح مدينة فينا، إلا أنه استطاع أن يعيد (زابولي) إلى حكم عاصمة المجر بودا، وفي عام ١٥٣١م اعتدى ملك النمسا فرديناند على زابولي لطرده عن حكم بلاد المجر للمرة الثانية، لكن الحامية الإسلامية والمجرية ردت فرديناند على أعقابه، وقد

وصل الخبر إلى السلطان سليمان القانوني عن هذا الاعتداء الغادر، فقرر سليمان أن يعيد الكرة والهجوم على ملك النمسا وعاصمته فينا، فسار بتاريخ ١٥٣٢/٤/٢٥م قاصداً فينا وذلك لحصارها مرة ثانية. وفتح سليمان في طريقه عدة حصون تؤدي إلى العاصمة النمساوية فينا، ففتح حصون حول استريا وبلغراد، وعلم سليمان أن الإسبان والألمان والنمساويين جاءوا لمساعدة ملك النمسا ومعهم المدافع الكثيرة للاستعداد للمعركة، وانتظر سليمان بعض الوقت لدراسة الموقف وقرر أخيراً الرجوع وتأجيل الهجوم خاصة بسبب حلول فصل الشتاء القارص، وبذلك لم تدخل فينا تحت الراية العثمانية. رجع سليمان إلى القسطنطينية بتاريخ ١٥٣٢/١١/١٨م. وفي أوائل عام ١٥٣٣م قرر فرديناند عقد الصلح مع السلطان سليمان خوفاً من هجوم آخر متوقع من قبل سليمان، ووقعت المعاهدة بينهما في ١٥٣٣/٦/٢٢م، وهذه هي أول معاهدة بين النمسا والدولة العثمانية، وفيها اعترف ملك النمسا بالملك زابولي ملكاً على بودا.

السيطرة العثمانية على العراق:

بعد أن انتصر السلطان سليم الأول على الصفويين في معركة شالديران عام ١٥١٤م أصبحت تحت سلطته الموصل وديار بكر وماردين ومناطق أخرى في شمالي العراق. وعين على هذه المناطق حكاماً عثمانيين. ويسكن هذه المناطق الأكراد. وكانت علاقتهم حسنة مع العثمانيين وقدموا ولاءهم للسلطان العثماني عام ١٥١٤م.

كانت بغداد والبصرة في ذاك الوقت تحت حكم الشاه الصفوي، لكن الزعيم الكردي ذو الفقار خان استطاع أن ينتزع بغداد من الصفويين الإيرانيين وحكمها باسم السلطان العثماني من عام ١٥٢٤ حتى ١٥٣٠م وذكر اسم السلطان العثماني في خطبة الجمعة وحكمها ست سنوات قبل أن يستعيدها الإيرانيون.

واستطاع الشاه طهماسب أن يدعم أشقاء «ذو الفقار» الكردي بالسلاح وطلب منهم أن يقتلوا أخاهم حاكم بغداد الموالي للعثمانيين فقتلوه عام ١٥٣٠م، وانتهت بذلك وصاية استنبول على حاكم بغداد، وأخذ النفوذ الصفوي يزداد فيها [٢٤] . كما قام الشاه طهماسب إثارة القزلباش في الأناضول ضد العثمانيين فقامت ثورة فيها بقيادة قلندر حلبي عام ١٥٢٧م، كما كسب الشاه طهماسب مناطق أخرى كانت تحت السيادة العثمانية.

إن التعديات الصفوية بالإضافة إلى استنجاد السنة في بغداد بالسلطان العثماني، شجعت السلطان سليمان القانوني على إرسال حملة قوية بقيادة الصدر الأعظم إبراهيم باشا لاحتلال العراق. سار الصدر الأعظم بقيادة الجيش العثماني عام ١٥٣٣م من استنبول إلى حلب ثم ديار بكر ثم تبريز وانضم له الأمراء المحليون فازداد عدد الجيش العثماني، فدخل تبريز في ١٣/٧/١٥٣٤.

وسار السلطان سليمان القانوني على رأس جيش آخر متجهاً إلى تبريز لدعم الصدر الأعظم، وكان قد أصدر الصدر الأعظم أوامر مشددة للجيش بعدم التعرض للأهالي في بغداد، فحاز على رضاهم عندما زار الأماكن المقدسة السنية والشيعية خاصة.

ثم تقدم إلى بغداد الأعيان وحكام المناطق القريبة من بغداد وأعلنوا ولاءهم للسلطان العثماني، وكان من بينهم أمير البصرة البدوي راشد بن مغامس [٢٥]. وأعلن اسم السلطان العثماني في خطبة الجمعة في البصرة والمناطق المحيطة بها. وهكذا أصبحت الراية العثمانية تهدد البرتغاليين في منطقة الخليج القريبة من البصرة. ونتيجة اصطدام البرتغاليين بالعثمانيين في السنوات التي تلت ذلك، قرر العثمانيون إيجاد قاعدة بحرية لهم في البصرة عام ١٥٤٦م، تكون مسؤولة عن منطقة الخليج. والحقيقة أن وصول البرتغاليين للخليج العربي والهند كان كارثة على التجارة العربية حيث منعوا تجارة الشرق الأقصى من الوصول إلى مصر والشام. كما أنهم أحرقوا السفن العربية في السواحل الأفريقية والآسيوية.

وقبل مغادرة السلطان سليمان القانوني بغداد عين عليها والياً هو سليمان باشا وأبقى فيها حامية عثمانية من ٢٠٠٠ جندي، ثم غادرها السلطان إلى أذربيجان ماراً بكركوك وتبريز حيث أعلن الشاه الصفوي تقديم ولاء الطاعة للسلطان العثماني مقابل إبقاء تبزيز تحت إدارة الشاه.

وصل السلطان إلى عاصمته استنبول سنة ١٥٣٥م، ومن المعروف أن الشاه استعمل في الحرب مع العثمانيين سياسة الأرض المحروقة مما منع سليمان من التوغل في إيران وقد اتبع هذه الطريقة الحكام الصفويون السابقون.

وقد قسمت العراق إلى أربع ولايات هي بغداد ويتبعها ١٨ صنجقاً، والموصل ويتبعها ٦ صناجق، والبصرة بلا صناجق، وولاية شهر زور ويتبعها عشرون صنجقاً. وتقع هذه الولاية في مناطق جبال كردستان على الحدود مع الصفويين. وكان الشاه طهماسب قد اتفق مع السلطان العثماني في معاهدة أماسيا في ١٥٥٥/٥/٢٩م على تخطيط الحدود بين الدولتين خصوصاً في مناطق جورجيا وأرمينيا وجبال زاغروس. وسمح سليمان للشيعة بزيارة مكة والمدينة بحرية تامة.

ودخل العثمانيون بجيشهم منطقة القطيف عام ١٥٥٠م في منطقة الخليج ثم مدوا نفوذهم إلى الأحساء في المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية عام ١٥٥٢م. واتخذ العثمانيون الأحساء قاعدة أمامية للدفاع عن الخليج ضد البرتغاليين المتمركزين في مضيق هرمز، وكذلك قاعدة أمامية ضد الصفويين. واشترك والي البصرة ووالي الأحساء في صد غزوات البدو في مناطق الحدود مع الجزيرة العربية. كما قامت حروب بين والي الأحساء العثماني وحاكم البحرين فطلب الأخير المساعدة من البرتغاليين في هرمز [٢٦] .

السيطرة العثمانية على اليمن:

هناك أسباب شجعت العثمانيين على مد بصرهم إلى اليمن، فبعد أن استولى السلطان سليم الأول على مصر عام ١٥١٧م وجد أن العثمانيين مضطرون للدفاع عن البحر الأحمر وسواحله من الهجمات البرتغالية المتكررة على الحدود الجنوبية من شبه الجزيرة العربية، كما أن ضعف المماليك في اليمن لمواجهة البرتغاليين شجعت العثمانيين للدفاع عنها، وكذلك ضعف القوة المملوكية في اليمن زادت من رغبة العثمانيين مد نفوذهم الفعلي المباشر لليمن. ورغم كل هذه المشجعات إلا أن العثمانيين لم يصلوا اليمن إلا في عام ١٥٣٨م أي بعد ٢١ عاماً من دخولهم مصر.

ويرجع تأخر وصول العثمانيين لليمن حتى عام ١٥٣٨م لأسباب منها أن السلطان سليمان عند اعتلائه العرش وجه كل اهتمامه للحروب في أوروبا ضد الصليبيين. كما أن حاكم اليمن أعلن خضوعه للدولة العثمانية زمن السلطان سليم لذا لا داعٍ لمحاربته. ورغم ذلك بقي نفوذ العثمانيين في اليمن اسمياً وضعيفاً، وظلت خطواتهمٍ لتدعيم نفوذهم هناك تتسم بالضعف حتى سنة ١٥٣٨م.

وفي هذه الفترة الزمنية من ١٥١٧ – ١٥٣٨م طرأت حوادث كثيرة على اليمن والبحر الأحمر، نذكر منها أن البرتغاليين أرسلوا حملة قوية بقيادة لوبوسوريز عام ١٥١٧م إلى البحر الأحمر بقصد تحطيم قوة المماليك هناك والعمل على تدمير جدة وإقامة اتصال مباشر مع الحبشة. وعندما وصل قائد الحملة البرتغالي إلى عدن قادماً من جنوب أفريقيا لم يهاجم عدن بل تقدم إليها بسلام وطلب من واليها الطاهري الأمير مرجان أن يمده بالمؤن اللازمة وبعض المرشدين البحريين لتوصيل الحملة إلى جدة، فأطاعهم الأمير مرجان خوفاً من بطشهم. ولكن الحملة البرتغالية فشلت في احتلال جدة بسبب التحصينات حول جدة أولاً ومطاردة سلمان الرومي للحملة البرتغالية ثانياً فتراجعوا إلى جزيرة قمران. وتبعهم سلمان الرومي وأسر بعض السفن البرتغالية المعتدية وبعض بحارتها وأرسل الأسرى إلى استنبول. وهكذا ولى هارباً من سلم في المعركة من البرتغاليين إلى عدن ثم هرمز (٢٧) .

لقد كانت عدن محطة استراحة للبرتغاليين رغم أنهم لم يسيطروا عليها فعلياً. وقد لام الكتاب الغربيون الحملة البرتغالية لعدم ضم اليمن للبرتغاليين خاصة بعد أن اكتشفت الحملة البرتغالية ضعف اليمن وعدن أمام البرتغاليين وأنهم كانوا يستطيعون ضمها، وبسبب ضعف المماليك هذا في سواحل البحر الأحمر وخاصة في اليمن زاد الطمع الأوروبي في إرسال حملات للسيطرة على السواحل العربية والمقدسات في فلسطين، هذا بالإضافة إلى أن أحد الكتبة الموظفين عند قانصوه الغوري راسل الأوروبيين وأخبرهم عن ضعف قوة المماليك في السواحل العربية (٢٨) .

ذكر بعض المؤرخين البرتغاليين أن الأمير مرجان أمير عدن قدم مفاتيح عدن إلى قائد الحملة البرتغالية لوبو سوريز للتعبير عن خضوعه للبرتغاليين، ولكن في الحقيقة أنه لم يسلم مفاتيح عدن وإنما حسب قول المؤرخين العرب (ومنهم بو محزمة) ، أن الأمير مرجان «قدم لهم الضيافة العظيمة» (٢٩). ونستدل أيضاً على أن مرجان لم يقدم لهم مفاتيح المدينة بدليل استعداداته بتحصين عدن بعد ذلك خوفاً من رجوع البرتغاليين إليها بعد خروجهم منها للشرق، والتحصين أيضاً كان خوفاً من مفاجأة البرتغاليين لعدن مرة ثانية (٣٠) . كما أن الأمير مرجان استعد للدفاع عن عدن سنة ١٥٢٠م عندما علم بوجود حملة برتغالية كبيرة بالقرب من عدن (٣١) .

وقد أرسل الأمير مرجان رسائل للسلطان سليم العثماني شكا فيها أعمال حسين الكردي وسلمان الرومي إمام عدن، وفي الوقت نفسه اعتذر في رسالته عن موقفه المسالم من البرتغاليين، وأرسل خطاباً آخر إلى شريف مكة شرح فيه أحداث عدن وطلب منه «مساعدة رسوليه في الوصول إلى استنبول وقد أحسن السلطان العثماني وفادة هذين الرسولين» (٣٢) .

ولا ننسى أن البرتغاليين كانوا يرسلون حملاتهم البحرية إلى البحر الأحمر وسواحل أفريقيا ويلاقوا الترحيب الكامل من النجاشي ملك الحبشة، حتى أنه طلب منهم مساعدته للوقوف أمام القوى الإسلامية؛ لأنه محاط بها من جميع الأطراف، وكانت المراسلات قد جرت بين النجاشي والملك البرتغالي حول كيفية تطويق السواحل الإسلامية، وكتب في رسائله أقذع النعوت والعبارات السيئة ضد قادة المسلمين والمقدسات الإسلامية والشتائم للمسلمين وملوكهم (٣٣) . وطلب في رسائله من ملك البرتغال أن يقوم مع البرتغاليين والإسبان والقوى الأوروبية الأخرى باحتلال جدة ومكة والمدينة والقاهرة والقدس.

وفي عام ١٥٣٠م قامت حملة برتغالية بقيادة «دي سلفيرا» باحتلال عدن وفرض قائد الحملة على حاكم عدن توقيع معاهدة اعترف حاكمها بموجب هذه المعاهدة بسيادة البرتغاليين عليها وبدفع الجزية السنوية للبرتغال، واشترط قائد الحملة على حاكم عدن عدم توجه السفن العدنية لجدة شمالاً. وترك البرتغاليون حامية برتغالية في عدن لتطبيق المعاهدة. وما أن عاد قائد الحملة البرتغالية لبلاده حتى نقض أمير عدن المعاهدة وقتل البرتغاليين، وأرسل حاكم عدن رسالة يطلب من السلطان سليمان القانوني حمايته من البرتغاليين، وأخبره فيها بالدخول في طاعة العثمانيين (٣٤) .

وقد تميزت الفترة بين ١٥١٨ – ١٥٣٨م (٩٢٤ – ٩٤٤هـ) باضطرابات كثيرة في اليمن وذلك نظراً لوجود قوى مختلفة تتصارع على النفوذ فيها، فهناك القوة المملوكية التي اعترفت بالسيادة العثمانية عند دخول العثمانيين مصر سنة ١٥١٧م، وهناك القوة الثانية وهم الطاهريون أفراد أسرة السلطان عامر بن عبد الوهاب، والقوة الثالثة وهم الزيديون وهي القوة الرئيسة التي واجهت العثمانيين في اليمن

سنة ١٥٣٨م، والقوة الرابعة وهم العربان المحليون، والقوة الخامسة وهم ولاة جدة الذين يطمعون بالوصول إلى حكم اليمن.

إزاء هذا الوضع التنافسي في اليمن كان البرتغاليون قد شددوا قبضتهم على سواحل البحر الأحمر والخليج العربي. لذا فكر العثمانيون بأن تكون سيطرتهم فعليه على اليمن والسواحل القريبة والمؤدية إليها، ولا ننسى مركز جدة والقاهرة كمحطات انطلاق عثمانية نحو اليمن.

وقد أرسل العثمانيون أول حملة بحرية إلى اليمن عام ١٥٢٦م سارت من مصر برئاسة إبراهيم باشا (الصدر الأعظم) بمصر وكانت الحملة مكونة من عشرين سفينة.

وصلت الحملة جدة عام ١٥٢٦م ثم سارت لليمن وسار قسم منها للهند لملاحقة البرتغاليين. لكن هذه الحملة لم تحقق المطلوب للحكم العثماني بسبب رجوع الحملة إلى استنبول.

وبدأ السلطان سليمان القانوني يستعد لإرسال حملة ثانية منذ سنة ١٥٣١م بقيادة سليمان باشا الخادم والي مصر، لذا قام الوالي ببناء ٨٠ سفينة في مصر لتجهيزها للسفر قريباً لليمن حتى أن خشب هذه السفن كان قد بعثها السلطان القانوني من تركيا. ومما شجع السلطان سليمان القانوني على إرسال هذه الحملة وصول رسول بهادور شاه (حاكم منطقة غربي الهند) حيث طلب هذا الرسول المساعدة العثمانية لنصرة الحاكم بهادور المسلم ضد الاعتداءات البرتغالية، وبعد قليل علم السلطان سليمان أن البرتغاليين قتلوا السلطان بهادور. وقد أثار مقتله حماسة السلطان سليمان الدينية وجعله يصمم على نصرة الإسلام والمسلمين في الهند [٣٥] . لذا أمر سليمان القانوني والي مصر سليمان باشا [٣٦] الخادم بالذهاب على رأس الحملة العثمانية لليمن بتاريخ ١٥ محرم سنة ٩٤٥هـ الموافق ١٥٣٨/٦/١٣.

غادرت الحملة ميناء السويس متجهة في طريقها نحو جدة ثم جزيرة قمران حتى وصلت عدن في ١٥٣٨/٨/٣م. وقد استقبلها سلطان عدن عامر بن داود الطاهري وفتح لها باب المدينة، لكن بعد خمسة أيام قام سليمان باشا الخادم قائد الحملة بإعدام عامر بن داود سلطان عدن وذلك بحجة أنه لم يرد سابقاً على رسائله التي كان قد بعثها قائد الحملة سليمان طالباً فيها الخضوع للعثمانيين بلا حرب.

أرسل سليمان باشا الخادم رسالة للسلطان العثماني سليمان القانوني قال فيها إنه فتح اليمن بعد حرب طاحنة، علماً بأنه استولى عليها بدون حرب [٣٧] .

ثم اتجهت الحملة العثمانية من عدن إلى الهند (ميناء ديو) وقد حاصر الميناء قائد الحملة وكان النصر له ولكنه انسحب فجأة قبل وصول نجدات برتغالية لفك الحصار العثماني عن ديو، وهكذا رجعت الحملة العثمانية إلى السواحل العربية. وكانت حجة سليمان باشا الخادم بالانسحاب المفاجئ أنه لم يلق أي مساعدة من المسلمين الهنود من (سلطان كجرات) لكن الحقيقة أنه انسحب لأنه عثر على وثيقة تفيد بوصول نجدات برتغالية لفك الحصار العثماني عن ميناء ديو.

وعند عودة سليمان باشا الخادم قائد الحملة من الهند إلى اليمن، قرر إكمال السيطرة العثمانية على المدن اليمنية، فوصل ميناء الشحر أول الموانئ العربية، وأصدر أمره بتعيين بدر الطويرق حاكماً على حضرموت، ثم تابع سيره فوصل عدن ومنها إلى مخا وأنزل جنوده هناك استعداداً لإخضاع المماليك في زبيد للسيطرة العثمانية. وكعادته دعا قائد الحملة العثمانية سليمان الخادم إلى خيمته والي زبيد المملوكي الناخودة أحمد كي يعلن ولاء الطاعة، وتردد والي زبيد في البداية لأنه كان يعلم غدر القائد العثماني، وأخيراً قرر والي زبيد الذهاب لمقابلة قائد الحملة، وبعد التسليم عليه غدر به وقتله. ثم قام سليمان باشا عندئذ بتعيين أحد أمراء الحملة وهو مصطفى بك (نائب غزة السابق) حاكماً لزبيد والمناطق التهامية، وهكذا فقد كان القضاء على الطاهريين في عدن وعلى المماليك في زبيد بداية المواجهة المباشرة بين العثمانيين والقوة الثالثة في اليمن وهي قوة الإمامة الزيدية. لكن سليمان باشا الخادم لم يستطع السيطرة على الإمام شرف الدين زعيم الزيديين، وقد حاول القائد العثماني دخول تعز التي كانت حينئذ تحت حكم الإمام شرف الدين الزيدي لكنه فشل. وعلى كل حال استطاع القائد العثماني السيطرة على مدخل البحر الأحمر حيث وضع حامية عثمانية في جزيرة قمران وقام بتحصينها. ثم قفل راجعاً إلى جيزان ثم جدة التي وصلها في ١٥٣٩/٣/١٣م. ثم رجع إلى مصر ثم إلى العاصمة استنبول حيث أغدق عليه السلطان سليمان القانوني الهدايا وعينه وزيراً في الديوان مكافأة له. وفي العاصمة العثمانية انسحب من الحياة السياسية إلى إقطاعه الخاص حيث بقي فيه حتى وفاته ١٥٥٢م/٩٦٠هـ.

السيطرة العثمانية على المغرب العربي:

كان سقوط غرناطة (في الأندلس) بيد المسيحيين الإسبان عام ١٤٩٢م نقطة تحول خطيرة في تاريخ الأندلس وتاريخ شمالي أفريقيا. حيث هاجر عدد كبير من العرب الأندلسيين من الأندلس والتجأوا إلى الموانئ العربية شمالي أفريقيا ومنهم من كان يحمل معه مفتاح بيته في الأندلس ظاناً أنه سيعود إليها بعد فترة قصيرة.

وقد قامت السفن العربية في شمالي أفريقيا بحماية اللاجئين الأندلسيين من تعديات الإسبان عليهم، ومن المعروف أن هذه الحروب كانت حروباً دينية أكثر منها عرقية. وللدلالة على ذلك ما نعلمه من وصية الملكة إيزابيلا التي أوصت بعد طرد العرب من الأندلس بالزحف إلى شمالي أفريقيا وتحويل أهلها إلى المسيحية. ومما جاء في وصيتها إلى ابنتها ما يلي: «إنني أرجو من الأميرة ابنتي والأمير زوجها وآمرهما بإطاعة وصايا الكنيسة المقدسة. فعليهما أن يقوما بحمايتها وألا يكفا عن متابعة فتح أفريقيا ومحاربة الكفار» أي المسلمين. لذا احتلوا المرسى الكبير سنة ١٥٠٥م ثم هجموا على وهران في الجزائر وقتلوا ٤ آلاف مسلم وأسروا ٨ آلاف [٣٨] .

والحقيقة أن الإسبان واجهوا صعوبات جمة في استيلائهم على الموانئ العربية في شمالي أفريقيا. والسبب في ذلك أن وجودهم في المدن الساحلية كان في مواجهة شعب إسلامي معادٍ للإسبان وكذلك لأن الإسبان طردوهم من الأندلس، هذا بالإضافة إلى أن البحرية الإسلامية بدأت في النمو التدريجي وبدأت في الهجوم على الموانئ الأندلسية لطرد المحتل الكاثوليكي، أضف إلى ذلك أن العمليات الجهادية البرية ازدادت على الموانئ المحتلة و رغم ذلك كان الإسبان والبرتغاليون أقوى من الدول الإسلامية الموجودة في شمالي أفريقيا.

كان مجيء العثمانيين إلى شمالي أفريقيا بمثابة نجدة أنقذت شمالي أفريقيا من الغزو الأوروبي وعملت على توحيد البلاد سياسياً. وقد رحبت معظم طبقات السكان بمجيء العثمانيين، فلم يعتبروا دخول شمال أفريقيا في حظيرة الدولة العثمانية احتلالاً أجنبياً [٣٩] .

لم تمد الدولة العثمانية نفوذها إلى تونس والجزائر بواسطة غزو عسكري أو تدخل مباشر من حكومة الأستانة (استنبول) كما حدث في مصر، بل جاء تدخل الدولة

نتيجة لاشتداد الصراع بين الإسلام والمسيحية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط في أوائل القرن السادس عشر، وقد اجتذب هذا الصراع عدداً من البحارة المغامرين الذين نشأوا في خدمة أسطول الدولة العثمانية، ثم كونوا أساطيل صغيرة وعملوا لحسابهم الخاص وجاهدوا ضد أعداء الدين، واعتبرهم المسلمون أبطالاً بينما أطلق عليهم خصومهم القراصنة، ومن هؤلاء الذين شهد لهم التاريخ بالبطولات عروج وأخوه خير الدين بربروسا.

عروج باشا:

بدأ عروج باشا نشاطه في غرب البحر الأبيض المتوسط عام ١٥١٠م، وقد فتح له الأمير الحفصي موانئ تونس، واستطاع بغاراته الناجحة أن يسترد ميناء بجاية من الإسبان وهو أول ميناء استرده المسلمون. لذا ذاع صيت عروج باشا فدخل تحت قيادته عدد كبير من المتطوعين الجزائريين، ولم يقتصر جيشه على العنصر التركي بل ضم إليه عدداً من القبائل في الجزائر والمغرب.

وتنقل عروج من نصر إلى نصر ومن مدينة إلى أخرى حتى وصل تلمسان غربي الجزائر، فأقام في المدن الساحلية والداخلية الجزائرية حاميات وقلاعاً عثمانية، لكنه اصطدم في تلمسان مع الإسبان الذين حاصروه، واستطاع أن يفلت من الحصار إلا أن القوات الإسبانية تبعته، واستطاعت قتله وهو في طريقه إلى مدينة الجزائر [٤٠].

خير الدين بربروسا:

تحرج مركزه بعد مقتل أخيه عروج، لذا اضطر إلى طلب المعونة من السلطان العثماني، فأرسل له السلطان سليم الأول سنة ١٥١٨م ألفين من الإنكشاريين، ودخلت الجزائر منذ ذاك الوقت ضمن الولايات العثمانية، واستطاع خير الدين في الفترة ما بين ١٥٢٠ – ١٥٢٥م، إخضاع الملاحة البحرية في البحر المتوسط لسيطرة الأساطيل الإسلامية، كما خافت منه دول أوروبا وأطلقوا عليه «بربروس» أي الرجل ذي اللحية الحمراء [٤١].

استطاع خير الدين توسيع دائرة نفوذه باسم الدولة العثمانية سواء بإلزام الحفصيين وبني زيان إعلان تبعيتهم للعثمانيين أو احتلال قسنطينة عام ١٥٢٧م

ورفع عليها العلم العثماني، واستطاع أيضاً احتلال معظم موانئ الجزائر من أيدي الإسبان وضم له موانئ عنابة وبجاية وقالة وغيرها. وأعظم نصر له كان احتلاله حصن البينون سنة ١٥٢٩م الذي أقامه الإسبان في مواجهة ميناء الجزائر. وإذا كان عام ١٥١٨م هو بداية وصول السلطة العثمانية رسمياً إلى شمال أفريقيا، فإن استيلاء خير الدين على حصن البينون هو بداية لتأسيس ما عرف بنيابة الجزائر، وأصبحت الجزائر عاصمة المغرب الأوسط بل عاصمة شمالي أفريقيا العثمانية (٤٢) . وأصبح خير الدين الحارس الأمامي للدولة العثمانية في غرب البحر المتوسط (٤٣) .

اتفق خير الدين مع السلطان سليمان القانوني على ضرورة ضم تونس إلى حظيرة الدولة العثمانية خاصة لأن فيها الحفصيين وهم أصدقاء للملك شارل الخامس الأوروبي عدو العثمانيين، وقد نجح خير الدين في دخول تونس عام ١٥٣٤م وقضى على حكم الحفصيين. لذا قام شارل الخامس بتجهيز حملة أوروبية لضرب خير الدين في تونس، خرجت الحملة من برشلونة وكانت تضم ٤٠٠ سفينة و٢٨،٠٠٠ جندي واستطاعت استرداد تونس وإعادة الحفصيين للحكم، وعاد قائدها شارل الخامس لبلاده بعد أن وضع قوة أوروبية في ميناء حلق الوادي في تونس. وفي الوقت نفسه قام خير الدين بالهجوم المفاجئ على جزر البليار وحمل معه ٦٠٠٠ أسير وعاد بهم إلى ميناء الجزائر.

استدعى السلطان العثماني سليمان القانوني خير الدين بربروسا وعينه قائداً عاماً للأسطول العثماني مكافأة له على الأعمال الجليلة التي قام بها لخدمة الإسلام. واستقدم بربروسا بحارة عثمانيين انضموا للأسطول الجزائري وخلفه في منصب البيلربكوية حسن آغا.

وفي عام ١٥٤٠م خضعت الموانئ التونسية للقائد الإسباني أندريه دوريا وأهمها سفاقس وسوسة ومناستير، فثار السكان المحليون ضد حكامهم الحفصيين؛ لجبنهم أمام الغزو الأجنبي، وفي تلك الفترة ظهر بحار عثماني هو درغوث باشا ليملأ الفراغ في تونس كما فعل خير الدين وعروج في الجزائر، فأصبح درغوث منافساً قوياً لأندريه دوريا في البحر المتوسط، وبسبب صيته عينته الدولة العثمانية حاكماً على طرابلس كي يكون قريباً من تونس، واستطاع احتلال ميناء قفصة سنة ١٥٥٦م وتوغل في داخل تونس حتى وصل القيروان سنة ١٥٥٨م، وظل الحفصيون والإسبان مسيطرين

على الساحل التونسي فقط. وفي عام ١٥٧٤م استطاع العثمانيون الاستيلاء على تونس كاملة. واستقر حكمهم بها وبذلك تأسست النيابة الثالثة في شمالي أفريقيا، وانتهى حكم الحفصيين الذي دام ثلاثة قرون في تونس. والنيابات العثمانية الثلاثة شمالي أفريقيا حسب تاريخ تأسيسها هي الجزائر فطرابلس فتونس. أما المغرب (مراكش) فلم يصلها العثمانيون بسبب وجود الأشراف فيها وهم من سلالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

السيطرة العثمانية على حوض البحر الأبيض المتوسط:

عندما زار خير الدين بربروسا العاصمة العثمانية عام ١٥٣٤م قدم ولاء الطاعة للسلطان سليمان القانوني، واعتمد كل منهما على الآخر في محاربة أعداء الإسلام، وبعد أن وقع السلطان العثماني معاهدة الامتيازات الأجنبية (٤٤) مع ملك فرنسا عام ١٥٥٣م لم يتعرض خير الدين للسفن الفرنسية وكرس كل اهتمامه للتعرض للسفن الإسبانية والإيطالية. ونتيجة انتصاراته في البحر المتوسط لقبه السلطان العثماني بأمير البحر (قبودان باشا) (٤٥) .

وفي عام ١٥٣٦م وذلك بعد عام من التوقيع الذي جرى بين فرنسا والدولة العثمانية في معاهدة الامتيازات الأجنبية، تم هناك حلف بينهما واتفقا على الهجوم على إيطاليا حيث تزحف فرنسا براً من الشمال وتزحف الجيوش العثمانية على إيطاليا بحراً. وقد جهز خير الدين بربروسا أسطولاً قوياً استعداداً لهذه المهمة.

تمكن الفرنسيون من دخول ميلانو وجنوة عام ١٥٣٦م، بينما أخذ بربروسا في مهاجمة هابسبورغ، أما السلطان العثماني فقد جهز جيشاً مكوناً من ٣٠٠،٠٠٠ جندي اتجه به إلى ألبانيا في طريقه إلى إيطاليا (٤٦) . لكن حدث عكس ما كان قد اتفقا عليه، حيث انسحبت فرنسا من شمال إيطاليا بسبب نداء وجهه البابا إلى الدول الأوروبية لقتال الإسلام. وهكذا لم تكمل فرنسا الخطة المتبعة مع السلطان العثماني لاحتلال إيطاليا، وبقي سليمان وحيداً في الميدان ضد إيطاليا، وقد اكتفى سليمان القانوني باحتلال الجزر الصغيرة وبعض القواعد الواقعة على سواحل ألبانيا وألمانيا. لكن النقطة الوحيدة التي استفادها بربروسا من الاتفاق الفرنسي العثماني هو احتلاله الجزر الواقعة في بحر ايجه حيث أخضعها كلها وأدخلها تحت الراية

العثمانية عام ١٥٣٧م. وقد حاول البابا استرجاع هذه الجزر فشكل حلفاً صليبياً لاستكمال المهمة لكنه فشل، وأخيراً وقعت نيس Venice معاهدة مع الدولة العثمانية في ١٥٤٠/١٠/٢٠م اعترفت بسيطرة بربروسا على جميع الجزر في بحر ايجه، ووافقت على أن تدفع جزية وضريبة للدولة العثمانية مقابل سيطرتها على كريت وقبرص وأن تعترف الدولة العثمانية بالمقابل بمركز نيس التجاري في حوض البحر المتوسط الشرقي.

تأزمت العلاقات بين فرنسا وخير الدين بعد خيانة فرنسا للدولة العثمانية في حربها مع إيطاليا. لذا قام بربروسا بمهاجمة فرنسا بتاريخ ١٥٤٣/٨/٥م، واستطاع احتلال ميناء طولون على الساحل الجنوبي لفرنسا، وفي عام ١٥٤٤م هاجم بربروسا السواحل الإيطالية، وكان يقود أسطولاً عثمانياً ضخماً، واستطاع السيطرة على مدن هامة مثل نيس. وبعد سنتين توفي بربروسا وترك خلفه أسطولاً قوياً انضم إلى الأسطول العثماني.

لقد واصل المهاجرون الأندلسيون المسلمون بناء وحدات سكنية عسكرية على طول سواحل شمالي أفريقيا، وعقدوا العزم على الانتقام من مضطهديهم وذلك بالإغارة على سواحل إسبانيا المألوفة لديهم ومهاجمة السفن المسيحية وخاصة في مضيق جبل طارق والمنطقة البحرية المحيطة بجزيرة مالطا، وما لبثوا أن حصلوا على مساندة العثمانيين.

الثورات المحلية على الدولة العثمانية:

١. ثورة الغزالي في دمشق:

عين السلطان سليم جان بردي الغزالي والياً على دمشق بعد أن رجع سليم إليها. وفي عام ١٥١٨م عاد سليم من دمشق إلى استنبول بعد عناء السفر والحرب مع المماليك.

سار مع سليم أثناء توديعه كلاً من الغزالي وابن الفرفور – قاضي دمشق – حيث سار الغزالي مع سليم حتى حمص ثم رجع لدمشق، بينما سار ابن الفرفور

معه حتى حلب معبراً عن زيادة حبه للسلطان أكثر من الغزالي، ثم رجع القاضي إلى دمشق (٤٧).

ألغى الغزالي بعض العادات العثمانية التي أدخلها سليم على دمشق، فغضب منه ابن الفرفور، وجرت بينهما مشاحنات، فهرب ابن الفرفور إلى حلب كي يؤلب السلطان سليم عليه، ولكن العثمانيين لم يشكوا في ولاء الغزالي لهم.

أخذ الغزالي في تثبيت سلطته في دمشق، فعزل كثيراً من الموظفين العثمانيين ولم يبق منافساً له إلا آغا الانكشارية الذي يرتبط بآغا الانكشارية في استنبول. وأما خارج دمشق وُجد هناك منافسون للغزالي وهم أمراء محليون في كل منطقة، وقد استطاع أن يتخلص منهم واحداً فواحداً، فمثلاً سار إلى البقاع اللبناني وحارب ناصر الدين بن الحنش وقضى عليه وعلى عائلته وأرسل رأسه إلى السلطان العثماني سليم دلالة على ولائه للعثمانيين لأن ابن الحنش كان يعارض الحكم العثماني للبلاد العربية.

ثم جرّد الغزالي حملات كثيرة على أمراء عرب حوران وأهمهم جغيمان الذي كان يتعرض كثيراً لقوافل الحجاج، لذلك قرر الغزالي الهجوم عليه في معان خوفاً من تعديه على قوافل الحجاج هناك، واستطاع الغزالي أن يحمي قافلة الحج ويهزم جغيمان، وهذا العمل أدى لفرح السلطان سليم وكسب الغزالي رضا السلطان. كما قام الغزالي بإخضاع جان بولاط (جنبلاط) نائب حاكم غزة فأعلن هذا ولاءه للغزالي حتى أنه عين مرتين على رئاسة قافلة الحج لأن الغزالي اطمأن لإخلاص جان بولاط (٤٨) .

وهكذا استطاع الغزالي أن يوطد نفوذه داخل وخارج دمشق، وعندما كان في جولة تفقدية في بيروت عام ١٥٢٠م سمع نبأ وفاة السلطان سليم واعتلاء ابنه سليمان حكم الدولة العثمانية، عندئذ أعلن الغزالي ثورته على العثمانيين، فقام بتعيين أحمد بن ناصر الدين الحنش على البقاع ترضية لآل الحنش لأنهم يكرهون العثمانيين. وقام بتعيين أحد أمراء الحرفوش على حمص، والمقوقع في حماة، واستدعى حكام القدس وصفد لمساندته في ثورته، وهجم على القلعة في دمشق وطرد الجيش الانكشاري العثماني منها. ثم سار إلى الشمال لقتال العثمانيين في حلب وطرد واليها منها،

وقد طلب الغزالي المساعدة من خير بك حاكم مصر المملوكي وشجعه على الثورة في مصر أيضاً ضد العثمانيين، ولكن خير بك طلب منه أن يقوم أولاً بالزحف حتى يصل حلب، ومن ثم يفكر في مساعدة الغزالي، وكان قصد خير بك إنزال الغزالي إلى الهاوية والحرب مع العثمانيين، وقد أرسل خير بك كل الرسائل التي بعثها الغزالي له إلى السلطان العثماني سليمان القانوني، ويعني هذا ولاء خير بك للعثمانيين.

قرر السلطان العثماني إرسال حملة عسكرية للقضاء على ثورة الغزالي، وكان الجيش العثماني بقيادة فرحات باشا، وقد استطاع هذا طرد الغزالي من منطقة حلب ورجع الغزالي فوراً إلى دمشق كي يثبت أقدامه فيها ولكي يحارب العثمانيين في دمشق. وقد سار فرحات باشا متعقباً الغزالي حتى قرية برزة قرب دمشق، وجرت معركة بينهما بتاريخ ١٥٢١/٢/٥م وانتصر فيها الجيش العثماني وقُتل الغزالي في المعركة، وقام فرحات باشا بتعيين ابن الفرفور قاضياً على دمشق علماً بأنه كان قاضياً سابقاً لها لكن الغزالي كان قد طرده في بداية حكمه لدمشق. وبعد القضاء على الغزالي خضعت كل المناطق العربية إلى الحكم العثماني، كما قام فرحات باشا بتعيين إياس باشا حاكماً على دمشق.

٢. الثورة المملوكية في بداية الحكم العثماني في مصر ١٥١٧م - ١٥٢٤م:

استولى العثمانيون على مصر عام ١٥١٧م بعد معركة الريدانية، ولم يحاولوا فرض الصبغة العثمانية على أهلها ولا حتى ربطهم بالحضارة العثمانية، بل تركوا العناصر الأصلية تحكم البلد ولكن بشرط بقاء السيادة والسيطرة للعثمانيين.

إن ما تميز به الحكم العثماني في بداية عهده في مصر أنه كان حكماً غير مباشر رغم مركزيته، لقد منحت الإدارة العثمانية في مصر حكومات الأقاليم المصرية أو ما يطلق عليها اسم السنجقيات والكشوفيات لبكوات من المماليك، وقد ظلت مصر تحيا الحياة التي كانت تحياها في عصر سلاطين المماليك، فيما عدا الخزنة السنوية وخطبة الجمعة والسكة (النقد) وملكية السلطان نظرياً للأرض. ومن أهم البكوات المماليك الذين تسلموا منصب الكشوفية في بداية العهد العثماني لمصر، إينال السيفي وجانم السيفي [٤٩] .

عندما قام الغزالي بثورته في دمشق ضد العثمانيين طلب من خير بك حاكم مصر المملوكي مساعدته، لكن خير بك بدلاً من مساعدة الغزالي قام بتحريض السلطان سليمان القانوني ضد الغزالي، إما لأنه كان مطيعاً للدولة العثمانية أو لأنه كان يعلم عدم مقدرته وعدم مقدرة الغزالي على القيام بثورة ضد العثمانيين، بل كان هناك بعض المماليك ممن كرهوا السلطة العثمانية لأنها سلبت حقهم في الحكم، وحاول هؤلاء المماليك الناقمين الالتحاق بالغزالي إلا أن خير بك بطش بهم.

لم يقم المماليك في مصر بالثورة ضد العثمانيين بعد وفاة السلطان سليم كما فعل الغزالي في دمشق، إلا أن الثورة التي قاموا بها كانت بعد وفاة حاكم مصر خير بك عام ١٥٢٢م، وكان الثائرون اينال السيفي (كاشف «حاكم» المنطقة الغربية) وجانم السيفي – كاشف البهنسة والفيوم. «وأعلنا أنهما لن يطيعا السلطان سليمان القانوني صغير السن، وأنهما لن يتركا الحكم للعثمانيين الذين لا يعرفون ملاقاة الفرسان» (٥٠) . إن تمرد اثنين من قادة المماليك (إينال السيفي وجانم السيفي) على الحكم العثماني كان لثلاثة أسباب هي: الدافع الأول أن بعضاً من المماليك رغم انهيار سلطنتهم عام ١٥١٦م ظلوا يكنون العداء والضغينة للعثمانيين، الدافع الثاني، أن بعض المماليك أحسوا أنهم في ظل العهد الجديد قد فقدوا امتيازاتهم وجاههم، أما الدافع الثالث، أن متزعمي التمرد كانوا من المخلصين لآخر سلاطينهم طومان باي حتى بعد إعدامه حيث عمد أحدهم وهو إينال السيفي بقتل الشيخ حسن بن مرعي وأخيه شكر وهما اللذان سلما السلطان طومان باي للسلطات العثمانية لتقوم بدورها بإعدامه.

وقد أعلن الثائرون عدم طاعتهم للسلطان العثماني وتوجهوا نحو إقليم الشرقية من دلتا النيل وهي منطقة استراتيجية حيث يكون في مقدورهم قطع المواصلات بين مصر وبلاد الشام، كما أنهم تحكموا بطريق المواصلات والمؤن بين الصعيد والقاهرة (٥١) .

وفي اليوم التالي انضم جانم السيفي إلى حليفه إينال السيفي وبقيا معاً في الشرقية في انتظار وصول أعيان المماليك الذين كانوا على علم مسبق بالمؤامرة واشتبك قادة المماليك مع العثمانيين وقتل جانم السيفي في المعركة أما إينال فقد هرب إلى غزة.

عين السلطان العثماني والياً جديداً على مصر هو أحمد باشا علماً بأن الوالي أحمد كان يطمع في منصب أحسن وهو منصب الصدر الأعظم، وقد خطط مع المماليك في مصر إعلان الثورة على السلطان العثماني وذلك لبعد مصر عن العاصمة العثمانية، وقد تمكن أحمد باشا من قتل قائد الانكشارية العثماني لأن الانكشارية كانت موالية للسلطان العثماني، ويبدو أن أحمد باشا أراد تحطيم الروح المعنوية لتلك الفرق العسكرية عن طريق قتل قائدهم (٥٢) .

سيطر المماليك في ثورتهم على الطريق الرئيسة التي تربط مصر ببلاد الشام وتحكموا بطرق المواصلات، لكن العثمانيين بطشوا بهم وأخمدوا ثورة إينال السيفي وجانم السيفي. ولكن هذا لا يعني القضاء نهائياً على المماليك في مصر، فقد ثار والي مصر أحمد باشا عام ١٥٢٣م الذي لقب بالخائن والذي كان قد اشترك مع العثمانيين في الفتوحات في البلقان، وكافأه السلطان العثماني بولاية مصر إلا أنه كان يطمع بوظيفة أحسن منها وهي وظيفة الصدر الأعظم.

قام أحمد باشا الخائن باحتلال القلعة في مصر وقضى على الانكشارية فيها في ١٥٢٤/٢/٧م وأعلن نفسه سلطاناً على مصر، وقام بمحاولة السيطرة على طريق الشام كي يمنع وصول العثمانيين لمصر، وصادق البدو هناك كي يساعدوه في التعرض للعثمانيين. إلا أن العثمانيين أشاعوا في القاهرة أن أحمد باشا تحول عن مذهب السنة إلى الشيعة وأصبح من اتباع الشاه إسماعيل الصفوي، ونجحت هذه الشائعة فثار المماليك ضده وأعلن قضاة المذاهب الأربعة الجهاد ضده. وقتل أحمد باشا الخائن نتيجة الثورة عليه في ١٥٢٤/٢/٢٦.

٣. ثورة البدو في الشام والعراق:

كانت ثورة البدو قد أقلقت سلطات الدولة العثمانية، لأنها لم تحدث في مكان واحد وفي وقت واحد، بل كان البدو يثورون عادة على السلطة عندما يحل والٍ محل والٍ أو سلطان محل سلطان، كما كانوا يثورون أيضاً ويقومون باعتداءات متكررة على قوافل الحجاج في موسم الحج، حيث كانوا يهجمون على قافلة الحج ويسلبونهم أمتعتهم ونقودهم وكل شيء ثمين يجدونه مع الحجاج. وكان هذا العمل يحرج موقف الوالي والسلطان أيضاً في العالم الإسلامي، لأن الاعتداءات على قافلة الحج وسلب

أمتعتهم تعني عدم مقدرة الوالي أو السلطان على حماية قافلة الحج. لذا قام كل والٍ في بلاد الشام بإرسال جيش يرافق القافلة دوماً، وإذا كان الوالي ضعيفاً كان يدفع للبدو نقوداً مقابل سكوتهم ذاك الموسم من الحج؛ وذلك لضمان سلامة قافلة الحجيج وعرف هذا المال المدفوع للبدو «بالصر» (٥٣) . وكان البدو يحصلون على الصر سواء في الذهاب إلى مكة أو القدوم منها، وإذا امتنع أمراء الحج عن دفع الصر في عودة الحجيج كان البدو يقومون بالاعتداء على القافلة حين عودتها من الديار المقدسة.

بنى السلطان سليمان القانوني القلاع والحصون وأقام الحاميات وخاصة على منابع المياه للمحافظة على الطريق السلطانية – طريق الحجاج- لأن البدو كانوا يضعون السم في المياه خاصة إذا لم يستلموا الصر من أمير الحج. ولا تنسى سيطرة البدو على مناطق هامة ذات مواقع إستراتيجية تتحكم بشبكات المواصلات الرئيسة.

لجأ العثمانيون إلى طريقة أخرى للقضاء على ثورة البدو عدا عن تجريد الجيش عليهم أو إرسال الجيش مع قافلة الحج، فقد لجأوا إلى تحريض زعيم بدوي ضد زعيم آخر ضمن القبيلة، أو حتى إثارة قبيلة على أخرى لإضعافهم أي اتباع سياسة فرق تَسُدْ، وأحياناً لجأ العثمانيون إلى شراء ولاء قبيلة لاستخدامها ضد قبيلة أخرى (٥٤) .

وفي منطقة البصرة تساهل العثمانيون مع البدو لأنهم قدموا ولاء الطاعة للعثمانيين ومن هذه الأسر البدوية أسرة راشد بن مغامس التي كانت تحكم البصرة فأبقاها العثمانيون في البصرة عام ١٥٣٨م، لكن عندما قام العثمانيون بتحريض الجيوش على البدو في منطقة البصرة والخليج العربي بقصد الحفاظ على سلامة الحجاج، قام راشد بن مغامس بثورة على السلطان سنة ١٥٤٦م لكن العثمانيين استطاعوا السيطرة على الثورة البدوية (٥٥) . وقد حاول البدو الثورة مرة ثانية عام ١٥٥٠م حيث قاموا بتهديد طرق المواصلات فعين السلطان العثماني لقتال البدو والي بغداد علي باشا، وبعد معارك شديدة مع البدو استطاع الوالي فرض السلطة العثمانية والحفاظ على طرق المواصلات من اعتداءات البدو. ازدادت جرأة قبائل منطقة البصرة إثر وفاة السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٦٦م واستلام سليم الثاني، فأعلنت الثورة من جديد بزعامة ابن عليان. فقام السلطان العثماني بتجهيز جيش جرار بقيادة والي بغداد اسكندر باشا الذي اصطحب معه والي شهر زور ووالي البصرة بالإضافة إلى عدد من الأكراد والأمراء، واستطاع الجيش العثماني السيطرة على بدو منطقة البصرة.

وقامت الدولة العثمانية ببناء الحاميات العسكرية والقلاع ووضع فيها حاميات عثمانية للحفاظ على الأمن في تلك المناطق، واضطر ابن عليان إلى طلب الصلح مقابل دفع ضريبة سنوية كجزية إلى خزينة البصرة.

٤. ثورة الأكراد عام ١٥٥١م:

تركز الأكراد في منطقة شهر زور وكانوا قد أعلنوا ولاءهم للعثمانيين أثناء السيطرة العثمانية على شمالي العراق ضد الصفويين. وقد أبقى العثمانيون زعيم الأكراد حاكماً على شهر زور، لكن الأكراد قاموا بثورتهم على العثمانيين بتشجيع من الصفويين والعناصر التركمانية الأخرى. فكلف السلطان العثماني كلاً من والي حلب عثمان باشا ووالي بغداد علي باشا للسيطرة على الثورة الكردية، ويبدو أن مناعة أسوار شهر زور وقوة الأكراد جعلت والي بغداد يميل إلى المصالحة وإبقاء حكام الأكراد في مناطقهم مقابل الخضوع للدولة العثمانية.

٥. ثورة الزيديين في اليمن:

تعتبر الأسرة الزيدية في اليمن من أقوى الأسر اليمنية، كما أنها تعتبر نفسها الزعيمة الدينية المحلية لكل اليمن وقد لاقت الدعم والتأييد من معظم قبائل اليمن. وعندما غادر الوالي العثماني ولاية اليمن سنة ١٥٥٥م بقصد ضرب مناطق المتمردين جنوب مصر، ثار الزيديون في اليمن حتى أن العثمانيين في اليمن ساعدوا قائد الثورة مطهر بن شرف الدين الزيدي بسبب اضطراب أوضاعهم الاقتصادية. وازدادت الثورة حدة إثر وفاة السلطان سليمان القانوني وإعلان الخطبة باسم ابنه سليم الثاني في تعز، واستولى قائد الثورة على معظم المدن اليمنية، فأرسل السلطان العثماني والي مصر سنان باشا فتوجه هذا لليمن سنة ١٥٦٩م وبقي فيها سنتين حتى استطاع القضاء على الثورة وتوطيد الحكم العثماني في اليمن، وبعد ذلك غادرها إلى جدة سنة ١٥٧١م بعد أن وصل الوالي العثماني الجديد بهرام باشا لليمن.

((وقد وصف قطب الدين محمد المكي انتصار سنان باشا على الثائرين بأنه الفتح الثاني العثماني لليمن (كان الفتح الأول عام ٩٤٥هـ سنة ١٥٣٩م) وكان هذا الانتصار سبباً في تأليف كتابه «البرق اليماني في الفتح العثماني» وقد كتبه بتكليف من سنان باشا)) [٥٦] .

خطر البرتغاليين:

أرسل العثمانيون القبطان بيري بيك من مصر سنة ١٥٥٢م لاسترداد عدن من البرتغاليين، فنجح في استرداد عدن، ثم توجه إلى شرقي الجزيرة العربية لقطع خطوط التمويل المحلي وتعطيل نقاط الاستناد على البرتغاليين، فاحتل مسقط من أيدي البرتغاليين ثم سيطر على مضيق هرمز واتجه في الخليج حتى وصل البصرة، ولكن الشائعات عن هجوم برتغالي معاكس جعل بيري بيك يتراجع إلى السويس، فاتهم بالخيانة وأعدم، وربما كان إعدامه نتيجة الصراع الذي دب بينه وبين والي البصرة الذي شكاه للسلطان للتخلص منه.

ثورة الجزائر:

كما نشبت ثورات متعددة في شمالي أفريقيا. كان السلطان على اضطلاع بما يجري، وقد عين محمد بن صالح ريس حاكماً عاماً للجزائر فأعاد الهدوء لشمال أفريقيا، وخلفه في الحكم قيليج علي قائد الأسطول العثماني، فأعاد الهدوء من جديد وبقي في الحكم عشرين عاماً ١٥٦٨ – ١٥٨٧م واستطاع توطيد السيطرة العثمانية في كل من الجزائر وتونس ومراكش.

التنظيم الإداري والإصلاحات الداخلية في الدولة العثمانية زمن سليمان القانوني:

بعد أن رجع السلطان سليمان القانوني من حملته على مولدافيا في أوروبا بتاريخ ١٥٣٩/١١/٢٧م وحملته على هنغاريا بتاريخ ١٥٤١/٦/٢٠م، مكث السلطان سنتين في العاصمة يرتب أمور الدولة داخلياً. فقد عين لطفي باشا صدراً أعظم، وهو من أمهر وأقوى رجال الدولة العثمانية الذين اعتمد عليهم السلطان سليمان، فقد كان جندياً شجاعاً ومثقفاً واعياً وقانونياً شهيراً وإدارياً ماهراً، واستطاع أن يضع القانون نامه الذي وضع باسم السلطان سليمان، وسمي السلطان نتيجة ذلك بسليمان القانوني. ويتضمن هذا القانون عدا عن القوانين التي وضعت زمن السلطان محمد الفاتح تضمن إصلاحات في شؤون الدولة.

أضاف سليمان قوانين أخرى اهتمت بأمور المالية والعدلية والعقوبات والإجرام والقتل والسرقة والسكر وارتكاب الفاحشة. وأما عقوبة من اتبع هذه الأمور السيئة والمشينة فقد حدد القانوني لكل منها عقاباً خاصاً ذات أحكام مختلفة مثل عقوبات مالية وسجن وقطع اليد والإعدام. كما حدد القانون نامه تعديلات خاصة على التيمار. ومنع سجن أي شخص بدون تحقيق معه ومحاكمته علناً. ووضع قوانين هامة للدولة من جميع جوانبها. فوضع كتاباً صغيراً حدد فيه مهمة الصدر الأعظم وحدد مهمة كل موظف في الدولة. وأخيراً استبدل الصدر الأعظم بصدر أعظم آخر هو سليمان باشا الخادم الذي كان يشغل وظيفة حاكم مصر. وربما كان وراء ذلك دسيسة وذلك عام ١٥٤١م، ومنذ ذلك التاريخ بدأت الدولة العثمانية في الانحطاط التدريجي [٥٧] خصوصاً بعد عزل لطفي باشا.

أما بالنسبة لشيخ الإسلام (أبو السعود) فقد اشترك في وضع القانون نامه، ولكن بالطرق الشرعية التي تختص بالنواحي الإسلامية مثل: الميراث وأراضي الميري والوقف، كما حدد الضريبة حسب الشريعة الإسلامية. وتسمى هذه القوانين بقوانين آل عثمان.

وقام السلطان العثماني بتقسيم المناطق المفتوحة إلى ولايات وذلك كي يسهل إدارتها وحكمها. ففي بلاد الشام أوجد العثمانيون ثلاث ولايات هي: الشام وحلب وطرابلس. وكل ولاية قسمت إلى صناجق، ولم يكن هذا التقسيم نهائياً، فكثيراً ما يلحق صنجق ولاية إلى ولاية أخرى، كما أوجدوا من بعض الصناجق ولاية رابعة، وكمثال على ذلك ولاية صيدا، وقد تبعت لها صناجق أيضاً.

وكثيراً ما أبقى العثمانيون الحكام المحليين في مناطقهم، خاصة خارج المدن، فالذين قامت زعامتهم على أسس دينية أو إقطاعية أو بدوية، بقوا في أماكنهم طالما يقدمون ولاء الطاعة للعثمانيين. كما كان العثمانيون يؤيدون حاكماً على آخر بقصد التوازن بينهم كي لا يسيطر حاكم على آخر ولا يوسع نفوذه على حساب الآخر. فمثلاً ليوازن العثمانيون قوة المعنيين في جبل لبنان اعترفوا بمنافسيهم آل عساف، ولكي لا يسيطر آل عساف على مناطق شاسعة اعترفوا بمنافسيهم آل سيفا وهكذا.

وأما في مصر: فقد أرسل السلطان سليمان القانوني الوزير الأعظم إبراهيم باشا إليها كي ينظم أمورها الإدارية والعسكرية، وتبعاً لذلك صدر القانون نامه. **فمن الناحية العسكرية ذكر القانون نامه ٧ طوائف عسكرية في مصر كما يلي**:

١. «**الجنليان» وتعني المتطوعين**: أو الجمليان (ومفردها صاحب الجمل) .

وأفراد هذه الفرقة استخدموا الجمال في الحرب وكانوا قد اشتركوا في فتح مصر.

٢. **التفنكجيان**: مفردها تفنك أي بندقية، وأفرادها هم من الفرسان حملة البنادق.

٣. **الشراكسة**: وأفرادها من المماليك.

٤. **المستحفظان**: وهم الانكشارية وأقاموا في القلعة، وهم الذين مثلوا السلطة العثمانية في مصر وحكموها.

٥. **العزبان**: مفردها عازب أو أعزب، أقاموا في القلعة، ونافسوا الانكشارية في الحكم ومهمتهم حماية القلاع في القاهرة.

٦. **الجاووشان**: مفردها شاويش وهم الذين جمعوا الضرائب من الشعب.

٧. **المتفرقة**: وهم الحرس الخاص للباشا [٥٨] .

وأما من الناحية الإدارية فقد كان على رأس كل ولاية والٍ أي باشا وهو برتبة وزير. وقد سكن في القلعة، ويوازن في وظيفته هذه قادة الطوائف العسكريين والقاضي الحنفي والدفتر دار، وكان الشخص الذي ينوب عن الباشا يلقب بالقائم مقام. وألغى القانون نامه الإقطاعات في مصر، وأصبح الموظفون يتقاضون مرتبات، وربما كان القصد من ذلك عدم السماح للمماليك بإقامة مناطق نفوذ تحت زعامة زعيم إقطاعي، وكانت أموال الميري تجمع من قبل ملتزمين، وبعد أن تغطى المصروفات المحلية يرسل بقية المبلغ إلى السلطان عن طريق الشام. وتألفت في مصر ولاية واحدة فقط، مركزها القاهرة، لكن قسمت هذه الولاية إلى أقسام إدارية عرفت باسم كشوفيات، مفردها كشوفية، يحكم كل منها كاشف، مهمته جباية الضرائب وصيانة شبكات الري.

أما في العراق: فقد كانت هناك خمس ولايات، وهي ولاية بغداد مركز الولاية ويتبعها ١٨ صنجقاً، وولاية البصرة، وولاية الإحساء، وولاية الموصل وتضم ست صناجق، ثم ولاية شهر زور.

وهناك ولاية اليمن: وقد اهتم بها العثمانيون كثيراً وذلك لأنها كانت تقف في وجه البرتغاليين، وكان العثمانيون لفترة قصيرة قد قسموا اليمن إلى ولايتين كي يسهل حكمها، الأولى في السواحل والثانية في الجبال، ثم جمعتا في ولاية واحدة بعد أن تم القضاء على ثورة الإمام مظهر الزيدي.

وفي شمالي أفريقيا: كانت هناك ولايات الجزائر وتونس وطرابلس. وقد نظم العثمانيون الإدارة فيها، واعتمدوا على الإنكشارية ورؤساء القراصنة في توطيد الحكم. وكان على رأس الجزائر (بيلربي) خضع له الانكشارية والقراصنة على السواء، ويتم تعيينه من قبل السلطان مباشرة. وكذلك تونس كان يحكمها (بيلربي) ، وكان فيها ٤ آلاف انكشاري بصفة دائمة، يرأس كل مائة انكشاري قائد يسمى الداي، وكان يرأس العسكر جميعاً الآغا.

وأوجد العثمانيون وظيفة أمير لواء وذلك لضبط البلاد وجمع أموال الجباية منها ويدعى هذا الأمير «الباي». وفي طرابلس عين العثمانيون طورغوث (دورغوث) برتبة بيلربي عليها عام ١٥٣٤م وذلك لتوطيد الحكم العثماني فيها. وفي عام ١٥٥٣م، استطاع طورغوت مع سنان باشا السيطرة على جزر صقلية وكورسيكا ونابولي.

حكم الولايات العربية ولاة نشيطون استطاعوا السيطرة على كل الثورات المحلية، فزاد توطيد الحكم العثماني في الولايات، ومما زاد في توطيد الحكم الرهبة التي كان يعكسها الولاة في ولاياتهم عندما كانوا يقومون باحتفالات وإقامة الزينات تخليداً لانتصار عثماني كبير في أوروبا. فكان الولاة والجيش الانكشاري يبرزون عضلاتهم أمام الأهالي فتزداد الرهبة منهم، لذا حققوا الأمن في جميع الولايات. وبرهن الولاة على أنهم على مستوى المسؤولية الإدارية عندما حققوا الأمن وبنوا الجوامع والمدارس والسبل لتخليد ذكراهم، وقد كثر بناء الجوامع في مختلف الولايات زمن سليمان القانوني.

لقد أخلد السكان للهدوء في الولايات، وهالهم ما رأوا من كثرة الجنود الأتراك والمدافع التي اشتركت في المعارك وإقامة الترتيبات والاحتفالات بالانتصارات العسكرية في الجبهات الأوروبية. وإظهار رؤوس المتمردين مقطوعة أمام الناس مما أرهب السكان وجعلهم لا يفكرون بالثورة على العثمانيين.

التجارة العثمانية مع بريطانيا وفرنسا:

التجارة مع فرنسا:

أقام الولاة الخانات على الطرق (٥٩) في ولايات كثيرة، وهذا يدل على نشاط التجارة خصوصاً في بلاد الشام، وقد وقع السلطان سليمان القانوني عام ١٥٣٥م معاهدة «الامتيازات» الأجنبية مع الفرنسيين. وقد شملت هذه الامتيازات العلاقات التجارية مع فرنسا. وبموجبها أعفي الفرنسيون من الخضوع لكثير من قوانين البلاد، فزاد نشاط التجار الفرنسيين في بلاد الشام.

تشمل معاهدة الامتيازات الأجنبية ١٦ مادة، وكان الصدر الأعظم هو المخطط لها زمن السلطان القانوني، وقد جددت هذه المعاهدة بعد ذلك عدة مرات في سنوات مختلفة وأضيفت إليها أحكام جديدة. ثم أصبحت هذه المعاهدة تجدد تلقائياً كلما ارتقى عرش الدولة العثمانية سلطان جديد (٦٠) .

ومما جاء في هذه المعاهدة تطبيق القانون الفرنسي على الفرنسيين داخل الدولة العثمانية، وتخفيض الرسوم الجمركية على الرعايا الفرنسيين، ومُنح الفرنسيون الحرية التجارية المطلقة وحرية الملاحة في كل الموانئ العثمانية، وعدم إبحار أي سفينة أجنبية في المياه العثمانية إلا وهي تحمل العلم الفرنسي. وأتيحت للرعايا الفرنسيين حرية ممارسة طقوسهم الدينية. وطبقاً لمعاهدة الامتيازات Capitulations فقد جرى تعيين قناصل فرنسيين في موانئ بلاد الشام.

كانت الامتيازات الأجنبية قد منحت فرنسا حق حماية الكاثوليك الأوروبيين لكنائسهم وكهنتهم في الأراضي العثمانية، ثم وسعت فرنسا تلك الحماية تدريجياً حتى أصبحت تشمل الكاثوليك العثمانيين والإرساليات الأوروبية العاملة بينهم. ومنذ توقيع هذه المعاهدة أصبحت فرنسا حامية للرعايا الكاثوليك العثمانيين.

وكانت أكبر طائفة كاثوليكية هي طائفة الموارنة التي كانت تعيش في لبنان. والتي كانت قد اعترفت بالسلطة البابوية أثناء الحروب الصليبية، وأقامت لها علاقات مباشرة ومستمرة مع الفاتيكان منذ القرن السادس عشر، وعلاقات مباشرة مع ملك فرنسا عام ١٦٤٩م بحيث أصبح النفوذ الفرنسي فيها كبيراً (٦١) .

التجارة مع بريطانيا:

إن العلاقات الإنجليزية العثمانية من ناحية التجارة كانت مستمرة رغم عدم عقد معاهدة تجارية بينهما، بينما فرنسا كانت قد وقعت معاهدة الامتيازات. وترجع بداية العلاقات التجارية الإنجليزية العثمانية الحسنة منذ أن قابل أنطوني جنكسين الإنجليزي الجنسية قابل السلطان العثماني عام ١٥٥٣م في حلب، وسمح السلطان له بالمتاجرة بحرية مع الدولة العثمانية. كما استقبلت السلطات العثمانية بعثة إنجليزية عام ١٥٧٨م واستطاعت أن تضع الحجر الأساسي للتجارة الإنجليزية في الدولة العثمانية عندما أرسل السلطان مراد الثالث رسالة لملكة بريطانيا عام ١٥٧٩م قال فيها: إن البلاد العثمانية ستبقى دائماً مفتوحة للتجار الإنجليز، وأصدر السلطان (براءة) إرادة سلطانية عام ١٥٨٠م تضمن للتجار الإنجليز امتيازات واسعة النطاق (٦٢) .

لذا فقد نشط التجار الإنجليز في حلب وشمال بلاد الشام، وأنشأ الإنجليز عام ١٥٨١م شركة بلاد المشرق Levant Company التي تركز نشاطها في بلاد الشام (٦٣) .

ومن المعروف أن الأساطيل الفرنسية والإنجليزية الحربية قد حلت محل الأسطول البرتغالي في القرن السابع عشر في منطقة البحر الأحمر والمتوسط والأطلسي في صراعها مع الدولة العثمانية. ولم يتوقف هذا الصراع الأوروبي العثماني البحري حتى نهاية الدولة العثمانية.

نستطيع القول أخيراً إن سليمان القانوني كان أعظم شخصية في التاريخ العثماني، فقد بلغت الإمبراطورية العثمانية في عهده أوج اتساعها وقوتها براً وبحراً. واشتهر سليمان القانوني بوضع مجموعة قوانين تخص إصلاحات في الدولة وفي الحكومة. إلا أنه رغم قوته وشهرته عالمياً لم يستطع فتح فينا، بل وقف على أسوارها، كما أنه

لم يستطع طرد البرتغاليين من المحيط الهندي، ولم يستطع السيطرة على روسيا بل وقف الروس حاجزاً أمام زحفه في الشرق، ثم ما لبثوا أن أصبحوا فيما بعد أخطر عدو للدولة العثمانية.

بدأت الدولة العثمانية بعد سليمان القانوني في الضعف التدريجي رغم قوتها واتساعها. إلا أن بداية الضعف نستطيع أن نلمسها في نهاية حكم السلطان القانوني عندما لم يشارك في جلسات الديوان الذي كان يصدر القرارات الهامة بسبب كبر سنه وتدهور صحته، واستغلت الحريم في القصر السلطاني أثناء هرمه بالتآمر لتعيين سلطان ليس أكفأ من غيره من أبناء سليمان (٦٤) . وأخيراً توفي سليمان القانوني عام ١٥٦٦م بعد أن خلّف وراءه دولة قوية مترامية الأطراف.

هوامش الفصل الخامس:

١. Cook: History of the Ottoman Empire. P. 71

٢. انظر الصفحات السابقة.

٣. رافق: العرب والعثمانيون، ص ٥٩.

٤. أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني. ص ٨٢.

٥. السيد مصطفى سالم: الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨ – ١٦٣٥. ط٢، ١٩٧٤م. ص ٤٦.

٦. مرج دابق أو مرج رابيك وهي قرية بين أعزاز وحلب. تبعد عن حلب حوالي ٤٥ كم.

٧. ابن طولون: مفاكهة الخلان. ج ٢. ص٣٠.

٨. ابن إياس، ج ٥، ص ١٥٩، وانظر رافق: المصدر السابق: ص ٦٣.

٩. أحمد عبد الرحيم مصطفى: المصدر السابق. ص ٨٥. وانظر المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية. ص ٧٧.

١٠.إحسان النمر: نظرات وتحقيقات. ص ٦٤. وانظر المحامي: المصدر السابق. ص ٧٧.

١١.إحسان النمر، المصدر السابق، ص ٦٤.

١٢.محمد فريد بك المحامي: المصدر السابق، ص٧٦.

١٣.إحسان النمر: المصدر السابق، ص ٦٤.

١٤.حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، ص ١٧٦.

١٥.رسالة من السلطان أحمد الأول إلى الإمبراطور ماتياس بتاريخ ١٦١٧/٦/٢٦م.

١٦.أحمد عبد الرحيم مصطفى: المصدر السابق، ص ٨٧.

١٧.Cook: History of the Ottoman Empire. P. 79

١٨.يوسف آصاف: تاريخ سلاطين آل عثمان، دار البصائر، دمشق، ط ٣، عام ١٩٨٥م، ص٧١، ربما كان هذا الخبر غير صحيح.

١٩.علي حسون: تاريخ الدولة العثمانية، ص ٤٦.

٢٠.محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية ص٧٩.

٢١.Cook: History of the Ottoman Empire. P. 79

٢٢.انظر نص الرسالة في كتاب محمد فريد بك المحامي: المصدر السابق، ص٨٥.

٢٣.عبد الكريم محمود غرايبة: تاريخ العرب الحديث. الأهلية للنشر والتوزيع، عام ١٩٨٤م. ص ٥٥.

٢٤.عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون، ص ٦٦.

٢٥.جلال يحيى: العالم العربي الحديث، ص ٢٤.

٢٦.عبد الكريم رافق: المصدر السابق، ص ٦٩.

٢٧.السيد مصطفى سالم: المصدر السابق، ص ١٠٣.

٢٨.ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور. ج ٤. ص ٢١٠.

٢٩.السيد مصطفى سالم: المصدر السابق، ص ١٠٤.

٣٠.M. Logworth Dames: The Portuguse and Turks in The Indian Ocean in The Sixteenth Century. J. R. A. S. 1921, part1, January. P. 13.

٣١.بو مخرمه: قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر. ج. ٣، م٢. ص ٢٠٩أ.

٣٢.السيد مصطفى سالم: المصدر السابق، ص ١٠٥.

٣٣.السيد مصطفى سالم: المصدر نفسه، ص ١٠٧.

٣٤.Sergeant, R. B.: The Portuguese of the South Arabian Coast. P p. 55- 59.

انظر أيضاً: السيد مصطفى سالم: المصدر السابق، ص ١١٢.

٣٥.قطب الدين: البرق اليماني في الفتح العثماني. مخطوطة. ص ١٥ ب، انظر أيضاً السيد مصطفى سالم: المصدر السابق، ص ١٠٤.

٣٦.كان سليمان باشا الخادم والياً على دمشق، واشترك في فتح العراق ثم أصبح والياً لمصر.

٣٧.السيد مصطفى سالم: المصدر السابق، ص ١٤٦.

٣٨.جلال يحيى: مصدر سابق، ص ٣٢.

٣٩.توفيق المدني: الجزائر. ص ٣٣، أنظر أيضاً: صلاح العقاد، المغرب العربي، ص ١٨.

٤٠.صلاح الدين العقاد: المغرب العربي. ص ٢١، انظر أيضاً: جلال يحيى: المصدر السابق، ص ٣٣.

٤١.جلال يحيى، المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

٤٢.صلاح الدين العقاد: المغرب العربي. ص ٢٢.

٤٣.جلال يحيى: العالم العربي الحديث، ص ٣٥.

٤٤.سنشرح عنها فيما بعد. الامتيازات :Capitulations.

٤٥.Shaw: History of the Ottoman Empire. P. 97.

٤٦.المصدر نفسه، ص ٩٨.

٤٧.عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر. ص ١١٦.

٤٨.عبد الكريم رافق: المصدر نفسه. ص ١١٨.

٤٩.عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون ١٥١٦ – ١٩١٦م. ط١، دمشق، ١٩٧٤م. ص ٦٤.

٥٠.رافق: المصدر السابق، ص ٨٥. لمزيد من التفصيل عن الثورة المملوكية في مصر، انظر: أسامة أبو نحل "حركات التمرد في مصر في بداية العهد العثماني ١٥١٧ – ١٥٢٤ والنتائج المترتبة عليها". مجلة كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية بجامعة قطر، عدد ٢٦ عام ٢٠٠٣م.

٥١.رافق: مصدر سابق، ص ٨٥.

٥٢.أسامة محمد أبو نحل: حركات التمرد في مصر في بداية العهد العثماني ١٥١٧ – ١٥٢٤ والنتائج المترتبة عليها عام ٢٠٠٣م. انظر

www. alajman. ws/vb/showthread.

٥٣.Rafiq: The Province of Damascus. Pp. 52- 76.

٥٤.رافق: مصدر سابق، ص ٨٨.

٥٥.رافق: المصدر نفسه، ص ٨٩.

٥٦.رافق: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

٥٧.Shaw: History of the Ottoman Empire. P. 101.

٥٨.رافق: مصدر سابق، ص ٩٨.

٥٩.أقيمت عدة (خانات) أي أماكن استراحة للتجار والمسافرين على مفارق الطرق الهامة زمن العثمانيين وقد اعتبرت هذه الخانات أيضاً أماكن حراسة للمنطقة التي يقع فيها الخان.

٦٠.وقع السلطان هذه الامتيازات التي أعطت للفرنسيين حقوقاً كثيرة في الدولة العثمانية، لكنه لم يكترث لأنه يستطيع أن يلغيها متى شاء إن خالفت فرنسا قوانين الدولة العثمانية، لكن السلاطين الضعاف فيما بعد لم يستطيعوا إلغاء هذه المعاهدة.

٦١.ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة، ص ٥٨.

٦٢.عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، ج٢، ص ٧١٦.

٦٣.رافق: العرب والعثمانيون، ص ١٠٩، أنظر أيضاً:

Alfred C. Wood: A History of the Levant Company, London. 1935. P. 11.

٦٤.أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، ص ١٠٢.

الفصل السادس

أحوال الدولة العثمانية

بعد سليمان القانوني ومرحلة الضعف

الفصل السادس

أحوال الدولة العثمانية
بعد سليمان القانوني ومرحلة الضعف

وصل إلى عرش الدولة العثمانية بعد سليمان القانوني ابنه سليم الثاني الملقب بالسكير، وهو ابن روكسلانا زوجة السلطان سليمان وقد سعت جاهدة لوصول ابنها إلى عرش السلطنة. وفي زمن سليم الثاني بدأ ضعف الدولة العثمانية، حيث لم يقم بنفسه بقيادة الجيش العثماني في الحروب. ورغم أن السلاطين الذين حكموا الدولة العثمانية بعد سليمان كانوا ضعافاً، إلا أن الصدور العظام (رؤساء الوزارات) ظهر منهم رجال أكفياء أقوياء، منهم مثلاً محمد صوقللي الذي استطاع إيقاف الفوضى زمن سليم الثاني، كما أنه استطاع استرجاع اليمن من البرتغاليين، ووقف في وجه التوسع الروسي، كما استولى على جزيرة قبرص. **ومن أهم المعارك في زمنه ما يلي:**

حملة استراخان:

كان حاكم خوارزم قد شكا لسليم الثاني تصرفات شاه فارس الذي منع الحجاج القادمين من تركستان من الوصول إلى الديار المقدسة في الحجاز. كما أن الروس احتلوا استراخان من الشاه ومنعوا الأهالي من تأدية فريضة الحج كما منعوا التجار من الوصول إلى أهدافهم خارج استراخان. لذا طلب حاكم خوارزم من السلطان سليم الثاني أن يحتل استراخان بهدف إعادة فتح طريق الحج. كما أن شكاوى مماثلة وصلت السلطان سليم الثاني من حكام بخارى وسمرقند، لذا جهز الصدر الأعظم صوقللي حملة كبيرة بهدف الاستيلاء على استراخان وتحويلها إلى قاعدة دفاعية عن المنطقة كلها. ورغم عدم تحقيق صوقللي هدفه من الاستيلاء على استراخان، بسبب تراجع

الجيش الانكشاري، ولأن نزول الثلج الكثيف أعاق تقدم الجيش، إلا أن صوقللي منع التقدم الروسي نحو الجنوب وفتح طريق الحج.

ومن الجدير بالذكر أن فرنسا قامت في زمن سليم الثاني بإرسال البعثات النصرانية إلى كافة أرجاء الدولة العثمانية وخاصة بلاد الشام لتزرع في أدمغتهم محبة فرنسا مما كان له أثر كبير في ضعف الدولة العثمانية.

معركة ليبيانتو البحرية:

أراد الصدر الأعظم صوقللي أن يجعل البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر بحاراً عثمانية، لذا قرر التعرض للبرتغاليين وذلك بالاستيلاء على الجزر الواقعة في هذه البحار، ففتح قبرص عام ١٥٧١م، ونقل إليها عدداً كبيراً من أتراك الأناضول المسلمين. وباحتلال العثمانيين لهذه الجزيرة غضبت دول أوروبا، وأعدت حملة صليبية كان الهدف منها ليس فقط استرجاع قبرص بل استعادة كل الأراضي التي كان قد استولى عليها العثمانيون. لذا تزعم البابا حلفاً كاثوليكياً استطاع بواسطته أن يوقع بالعثمانيين هزيمة كبرى في معركة ليبيانتو عام ١٥٧١م.

والحقيقة حول هذه المعركة أن نداء البابا لاقى استجابة قوية من الدول الأوروبية، حتى أن فرنسا التي كانت قد وقعت معاهدة سلام مع العثمانيين قد نقضت المعاهدة معهم وبعثت جيشاً لمساندة البابا. وقد اختير دون جوان النمساوي قائداً للحملة لضرب المسلمين. كما تم عقد تحالف بين الدول الأوروبية لمحاربة العثمانيين، ومما جاء في هذا التحالف من نصوص: "أن البابا بيوس الخامس وفيليب ملك إسبانيا، وجمهورية البندقية يعلنون الحرب الهجومية والدفاعية على الأتراك لأجل أن يستردوا جميع المواقع التي اغتصبوها من المسيحيين ومن جملتها تونس والجزائر وطرابلس" (١).

بعد انتصار الأوروبيين على العثمانيين في معركة ليبيانتو، أرسل البابا رسالة إلى الشاه طهماسب– شاه إيران– حثه فيها على الهجوم معاً على الدولة العثمانية قائلاً: «لن تجدوا أبداً فرصة أحسن من هذه الفرصة لأجل الهجوم على العثمانيين، إذ هم عرضة للهجوم من جميع الجهات» (٢).

كما أرسل البابا رسائل إلى كل من ملك الحبشة وإمام اليمن حثهم فيها على الهجوم على الدولة العثمانية، لكن البابا توفي فجأة فتوقفت مخططاته الجهنمية هذه. وللحقيقة نقول أن هذه الجبهات التي راسلها البابا كانت ساخنة مع العثمانيين رغم معاهدات الصلح الموقعة مع الجميع.

فقد العثمانيون في معركة ليبيانتو ٩٤ سفينة من الأسطول العثماني، كما تم أسر ١٣٠ سفينة عثمانية أخرى، وفقدوا ٣٠،٠٠٠ مقاتل، واحتفلت أوروبا كلها بهذا النصر لأن العثمانيين هزموا لأول مرة، وأصبح شرقي البحر المتوسط تحت السيطرة المسيحية، وعندما انسحب البنادقة من حلف البابا رجع العثمانيون فأغاروا على صقلية وجنوبي إيطاليا، وانتزعوا تونس التي كان يسيطر عليها الحفصيون عملاء الإسبان، وبذلك استعاد العثمانيون بقيادة سنان باشا سيطرتهم على البحر المتوسط.

سلطنة الحريم أو الحريم السلطاني:

لقد قضى السلطان سليم الثاني أواخر حكمه في القصر مع الحريم تاركاً شؤون الدولة بيد الصدر الأعظم صوقللي، وكانت هذه فرصة لبدء عهد جديد إذ كان الأمراء أبناء السلاطين يمضون حياتهم مع الحريم بدلاً من أن يكتسبوا خبرة قد تفيدهم حين يتولون الحكم. وظل صوقللي يتولى منصب الصدر الأعظم فترة طويلة إلى أن قتل عام ١٥٧٩م نتيجة لإحدى مؤامرات القصر بعد أن نجح في المحافظة على هيبة الدولة العثمانية.

ولحسن حظ الدولة العثمانية أنه رغم تولي الحكم سلاطين ضعاف الشخصية بعد سليمان القانوني، إلا أن منصب الصدر الأعظم تولاه رجال أقوياء مثل صوقللي وسنان باشا وفرحات باشا ولالا مصطفى وعثمان أوغلو ومحمد كوبريللي.

كان في القصر السلطاني منطقة خاصة بالحريم، وكانت هذه المنطقة محاطة بأسوار عالية وعليها حراسة مشددة، وتعتبر أجنحة الحريم منطقة مغلقة لا يسمح بدخولها أو الاقتراب منها أو النظر إلى ساكناتها [٣]. ويلاحظ أن عزلة النساء كانت من التقاليد القديمة في العالم الإسلامي، لذلك احترم العثمانيون هذه التقاليد الإسلامية الموروثة. وكان للسلطان مقصورة خاصة وسط أجنحة الحريم، وعند زيارته للأجنحة كانت تصحبه كبرى موظفات الحريم السلطاني.

إن الغالبية العظمى من السلاطين العثمانيين تزوجوا من كتابيات (مسيحيات) وقد أصبحت هذه الزيجات تقليداً درج عليه سلاطين الفترة الأولى وسلاطين الفترة الثانية. وتشمل الفترة الأولى السلاطين السبعة الأوائل منذ عثمان حتى محمد الفاتح.

كان سلاطين الفترة الأولى لهم من قوة الشخصية ما جعل زوجة كل منهم تأخذ حجمها الطبيعي فقط كزوجة للسلطان، فلا تتدخل في شؤون الدولة ولا تمارس نفوذاً على الصدر الأعظم والوزراء وعلى غيرهم من كبار رجال الدولة. أما سلاطين الفترة الثانية فإن غالبيتهم قد خضعوا خضوعاً يكاد يكون تاماً لتلك الزوجات، حتى أصبحن مركز قوة خطرة. وكانت بعض الزوجات يتدخلن في السياسة العليا للدولة ويوجهنها الوجهة التي يردنها. وهكذا استفحل وكثر خطر أولئك الزوجات وتركن بصمات بارزة قوية في تاريخ الدولة العثمانية [٤].

إن بعض الزوجات الكتابيات كن يتظاهرن باعتناق الإسلام، ويتظاهرن بحب أزواجهن السلاطين، ويتظاهرن بولائهن للدولة العثمانية ولكن كانت كل منهن تخفي بين ضلوعها حباً وولاءً لوطنها الأول وتعمل على تنفيذ برنامج من وحي حكومة بلادها لتحقيق مصالح وطنها الأول حتى ولو كان هذا البرنامج ينطوي على الإضرار بمصالح الدولة العثمانية [٥].

أسرة كوبريللي [٦]:

كانت الدولة العثمانية تسير ببطء نحو الاضمحلال وخاصة زمن السلطان محمد الرابع، لولا جهود الصدر الأعظم. وقد تولى هذا المنصب محمد كوبريللي وأسرته من بعده ودام حكمهم من ١٦٥٦– ١٦٨٣م، ومحمد كوبريللي هو ألباني الأصل وعندما عرض السلطان عليه منصب الصدر الأعظم، اشترط كوبريللي أن تنفذ قراراته دون مناقشة أو مراجعة، وقد وافق السلطان على طلبه. وعندما استلم المنصب نفى من العاصمة بعض الدراويش المتعصبين وأعدم كثيراً منهم في العاصمة خلال خمس سنوات كانوا يتلقون الرشوة، وبث عيونه في كل الولايات، وقمع كل تمرد وفوضى في الدولة العثمانية، وأعاد تنظيم مالية الدولة بإبطال النفقات غير الضرورية وتحويل الأموال المصادرة إلى خزينة الدولة.

أصبح الصدر الأعظم أو الباب العالي في عهد آل كوبريللي المركز الفعلي لإدارة الدولة العثمانية، ورغم الإصلاحات التي تمت في هذه الفترة مثل إنقاص عدد الانكشارية وتخفيف أعباء الدولة المالية وحماية الفلاحين بتأمين الأمن إلا أن ذلك لم ينجح تماماً في إيقاف تدهور الإدارة (٧).

وبعد أن اطمأن كوبريللي للوضع الداخلي تصدى للتهديدات الخارجية، فقوى الأسطول العثماني، وأمكنه فك حصار البنادقة عن الدردنيل، وطلب في أواخر عمره من السلطان أن يتولى منصب الصدر الأعظم ابنه فاضل أحمد فوافق السلطان على ذلك، فقام هذا بقيادة الجيوش بنفسه، ففتح جزيرة كريت عام ١٦٦٩م، وحارب النمسا والمناطق الواقعة غربي البحر الأسود، وأعاد هيبة السلطان في نظر أوروبا.

بعد وفاة فاضل عام ١٦٧٦م خلفه أخوه بالتبني قره مصطفى باشا في منصب الصدر الأعظم فحاصر فينا عام ١٦٨٣م واصطدم بالروس في أوكرانيا، وبرغم انتصاراته قيل للسلطان أنه يقود الدولة لخسائر كثيرة بسبب فشله في فتح فينا فأعدمه السلطان عام ١٦٨٣م.

وبعد ذلك بدأت النكسات تدب في جسم الدولة العثمانية والخسائر تتوالى، فأصبح البحر الأسود بحيرة روسية، واعترفت الدولة العثمانية بذلك. واضطر السلطان العثماني إلى التوقيع مع النمسا صلح كارلوفيتز عام ١٦٩٩م تنازل السلطان بموجبه عن أوكرانيا والمجر وترانسلفانيا والمورة. وهذا الصلح هو أول تفكيك لأوصال الدولة العثمانية وبداية الانسحاب العثماني من أوروبا. كما وقع السلطان العثماني على صلح بساروفتز عام ١٧١٨م حيث تنازل بموجبه عن بلغراد وسمندريا وأراضٍ أخرى للصرب. وهكذا بدأت الدولة العثمانية تتراجع عن الأراضي التي فتحتها ومكثت فيها طويلاً.

بداية مرحلة الضعف العثماني:

أخذت الدولة العثمانية في التقلص التدريجي منذ زمن السلطان سليم الثاني (١٥٦٦م– ١٥٧٤م) وعندما بدأ العثمانيون يخسرون أراضٍ في أوروبا في المعارك مع الجيوش الأوروبية ظهرت علائم الضعف العثماني علانيةً. وخير دليل على ذلك عندما وقع العثمانيون في ١٦٩٩/١/٢٦م معاهدة كارلوفيتز Carlowitz، وكانت

هذه أول خسارة كبرى للعثمانيين منذ ثلاثمائة عام أي عندما هزمهم تيمورلنك عام ١٤٠٢م. كما كانت هذه أول مرة وقع فيها العثمانيون الصلح كمنهزمين وتخلوا بموجبها عن مناطق سيطروا عليها منذ فترة طويلة.

لقد كان الضعف العثماني واضحاً عندما توقفت الفتوحات العثمانية عند نقاط أخيرة على الحدود وصلها العثمانيون في مختلف الجبهات ولم يتقدموا بعدها شبراً واحداً، أضف إلى ذلك أن ضعف الدولة انعكس على ضعف شخصيات السلاطين أنفسهم وخاصة عندما انسحبوا بالتدريج من المساهمة الفعلية في قيادة الجيش وفي الإدارة وانقطعوا إلى حياة القصر الخاصة ومؤامراته من الحريم.

إن التخلي عن حصر السلطنة وراثياً أي من الأب إلى الابن ونقلها إلى أكبر أفراد الأسرة العثمانية بتولي السلطنة قد شجع على ازدياد المكائد ضد السلاطين وضعف نوعية المرشحين للحكم. أضف إلى ذلك أنه منذ وفاة السلطان سليمان القانوني عام ١٥٦٦م حتى حكم السلطان سليم الثالث عام ١٧٨٩– ١٨٠٧م لم يظهر أي سلطان قوي.

كما أن نشاط الكزلار آغا الذي أخذ ينافس الصدر الأعظم في الدولة العثمانية؛ بسبب انقطاع السلاطين إلى حياة القصر، قد أثر هذا التنافس على مصير كثير من حكام الولايات الذين أصبح مصيرهم معلقاً بيد الكزلار آغا أو الصدر الأعظم أحياناً.

ومن مظاهر ضعف الدولة العثمانية أيضاً انحطاط الجيش بسبب توقف الفتوحات العثمانية، وتمرد الانكشارية مراراً بسبب انتساب السكان المحليين لصفوف الانكشارية وعرفوا (باليرليه) ، حتى أن تمرد الانكشارية أدى أحياناً إلى عزل السلطان أو قتله على يد الانكشارية كما حصل مع السلطان عثمان الثاني وسليم الثالث الذي عزل ثم قتل على يد الانكشارية. ويعتبر إهمال الجند الإقطاعي والسباهية من الفرسان، وعدم استعمالهم أساليب القتال الحديثة من ناحية العتاد والتنظيم من عوامل ضعف الجيش. وأصبحت وظيفة الجندي بدلاً من أن يكون محارباً أصبح يعمل في وظيفته في الجيش كشق الطرق وإقامة التحصينات فقط. كما اشتهر في فترة الضعف العثماني ظهور الجنود المرتزقة الذين كانوا يبيعون خدماتهم إلى ثائرين على السلطة أو إلى أمراء محليين مثل فخر الدين المعني وجنبلاط وغيرهم.

ومن عوامل الضعف العثماني أيضاً ظهور قوة محلية ثائرة استمدت سلطتها من التزام جمع الضرائب، وهذا النظام أضعف الريف مما أدى إلى هجرة سكانه للمدن أحياناً فاندثرت قرى هرباً من الضرائب، والتحق بعض الناس إلى القوات غير النظامية وأصبح قسمٌ منهم قطاع طرق، كما أن بعض الملتزمين أصبحوا يجمعون النقود من الريف لمصالحهم الشخصية وقليلاً ما كانوا يرسلونها للوالي، وأصبح نفوذهم يهدد سلطة الوالي والسلطان أحياناً، وخير مثال على ذلك ظاهر العمر.

ومن عوامل الضعف العثماني أيضاً تأثر الاقتصاد نتيجة نقص واردات الضرائب التي كانت تفرض على بضائع الشرق الأقصى المارة في الأراضي العثمانية، وأصبحت بعض هذه البضائع بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح تصدر مباشرة إلى أوروبا عبر هذه الطريق وخسرت الدولة العثمانية من جراء ذلك موارد مالية كثيرة.

ومن عوامل الضعف العثماني ضعف النقد حيث مرت الدولة العثمانية بأزمة نقدية بسبب تدفق الفضة الرخيصة إلى بلاد حوض البحر المتوسط من الدنيا الجديدة أمريكا بواسطة الإسبان، فارتبك النقد العثماني تبعاً لذلك وانهارت قيمة الوحدة الفضية وهي الأقجة، فأصدرت الدولة العثمانية وحدة نقدية جديدة عام ١٦٢٠م هي البارة ولم تُجدِ هذه العملة الجديدة في القضاء على التضخم النقدي وغلاء الأسعار، وفي الربع الأخير من القرن السابع عشر ظهرت عمله جديدة هي القرش. وقد حاولت الدولة العثمانية إحياء الاقتصاد العثماني بشتى الطرق بلا فائدة مثل فرض ضرائب جديدة على السكان لدفع رواتب الجنود أحياناً.

ومن عوامل الضعف العثماني وجود ثورات وتمردات مثل:

١. **ثورة العساكر**:

بدأ التمرد على العثمانيين في صفوف العساكر في النصف الثاني من القرن السادس عشر، وكان التمرد واضحاً في مناطق أطراف الدولة العثمانية كاليمن وشمال أفريقيا. أما مصر والعراق فكان تمرد العساكر عنيفاً.

أ. **ثورة العساكر في اليمن**:

كانت ولاية اليمن من نوع سالياني ((أي أن موظفيها بما في ذلك العساكر يتقاضون المرتبات الشهرية وليس اقطاعات)) . وحدث أن انخفضت القيمة الشرائية

للعملة الفضية في اليمن بسبب خلطها بالنحاس وذلك مقارنة بالدينار الذهبي السلطاني الذي تدفع الرواتب على أساسه. ولم يكن انخفاض العملة مقتصراً على اليمن بل على كافة ولايات الدولة العثمانية وهذا أثر كثيراً على أصحاب الرواتب الشهرية ومنهم العساكر. وبسبب انخفاض العملة قام والي اليمن محمود باشا باتهام المسؤول عن ضرب السكة عبد الملك اليمني أنه سبّب في تدهور العملة في اليمن فقتله عام ١٥٦٠م.

وهناك بعض المؤرخين أرجعوا سبب نقص العملة هو تصرف الولاة العثمانيين السابقين، وقال آخرون أن السبب هو «الظروف العثمانية والعالمية أي الاكتشافات الجغرافية»، ويقول قطب الدين المكي المعاصر للأحداث أن الدينار الذهبي السلطاني يُساوى في بلاد الروم بـ ٦٠ عثمانياً وفي مصر بـ ٨٠ عثمانياً وفي اليمن بـ ٣٠٠ عثمانياً، وكان هذا سبباً في فقر العسكر ذوي المرتبات، وأن العسكري لا يكفي راتبه اليومي لشرب القهوة التي يشربها [٨] لذا قام العساكر بظلم الرعية لقلة معاشهم وصار الحكام يتعامون عن إنصاف الرعايا من ظلم العساكر. لكن ابتزاز العساكر العثمانيين للمال من سكان اليمن لم ينقذ وضعهم المادي فلجأوا إلى بيع متاعهم وحتى أسلحتهم. والتحق العساكر بالثائر اليمني مظهر الزيدي الذي قام بثورته على العثمانيين، فقام السلطان العثماني وأرسل سنان باشا إلى اليمن لإخماد الثورة ونجح في ذلك لكنه قام بتحسين حال العساكر بعد دراسة أحوالهم وشجعهم على البقاء موالين للدولة العثمانية.

ب. ثورة العساكر شمال أفريقيا:

الجزائر: دعم الانكشارية خير الدين بربروسا ففرض هذا سيطرته على الجزائر، لكن قام القراصنة بمنافسة الانكشارية في الجزائر، وكانت للانكشارية السيطرة الفعلية وقاموا بمقاسمة القراصنة الاسلاب، وكانوا يقدمون ولاء الطاعة للوالي في الجزائر، وحين لمس الانكشارية الضعف في أحد الولاة ثاروا عليه، حتى أنهم قتلوا بعض الولاة، وأسروا البعض الأخر. حيث أسروا حسن باشا بن خير الدين بربروسا سنة ١٥٦٢م وأرسلوه مقيداً بالسلاسل إلى استنبول. ومنذ مطلع القرن السابع عشر،

وجد في الجزائر ديوان الانكشارية الذي أصبح له القوة الفعلية فيها، وأصبح الديوان منذ عام ١٦٢٦م وبموافقة السلطان العثماني يمارس كافة السلطات بما في ذلك تعيين الموظفين وترقيتهم.

تونس: واجه الوالي العثماني في تونس سلطة الانكشارية الممثلين بالديوان، وقد ثاروا سنة ١٥٩١م وقتلوا عدداً من أعضاء الديوان في تونس واستلم صغار الضباط من الانكشارية السلطة في البلاد وشكلوا ديواناً جديداً وضعوا على رأسه شخصاً اختاروه من بينهم لقب بالداي وأصبح الحاكم الفعلي في تونس.

روسيا والدولة العثمانية أثناء فترة الضعف العثماني:

كانت العلاقات العثمانية الروسية تتحسن وتسوء في فترات تاريخية مختلفة، وازداد الصراع بينهما على البحر الأسود الذي يعتبر بحيرة عثمانية طالما بقيت الدولة العثمانية قوية. وكانت تسمح لسفن بعض الدول بعبوره باتفاقيات خاصة. واستطاع العثمانيون فرض سياستهم على البحر الأسود والمضائق التي تربط البحر الأسود بالبحر الأبيض المتوسط. وإذا أراد الروس ممارسة التجارة بين موانئ البحر الأسود كان عليهم أن ينقلوا بضائعهم على سفن عثمانية تحمل العلم العثماني.

ومنذ عهد بطرس الأكبر بدأ التوسع الروسي نحو الجنوب حيث جيرانهم العثمانيين. وقد نشبت معارك كثيرة في فترة الضعف العثماني بين العثمانيين من جهة وبين الروس والنمسا من جهة ثانية أدت في نهايتها إلى عقد معاهدة صلح بينهما عام ١٦٩٩م هي معاهدة كارلوفيتز، تخلى العثمانيون للروس عن مدينة آزوف. ثم استرجعها العثمانيون عام ١٧١١م وتعهد الروس بعدم التدخل في شؤون القازاق، ووقعت روسيا عام ١٧١٣م معاهدة أدرنة تنازلت بموجبها عن أراضيها على البحر الأسود مقابل إلغاء ما تدفعه روسيا من جزية لأمراء القرم المسلمين. **واستمرت حالة الحرب بين الدولتين بين فترة وأخرى ووقعت الدولتان معاهدات هامة أهمها:**

1. **معاهدة بلغراد:**

حاولت روسيا بسط سيطرتها العسكرية على المضائق العثمانية وتمكين سفنها

الحربية والتجارية عبور البوسفور والدردنيل، لذا اشتعلت الحرب بينهما عام ١٧٣٥م واستمرت أربع سنوات، وقد فشلت روسيا في نهاية الحرب، وعقدت معاهدة بلغراد بين الدولتين تقرر فيها هدم قلعة آزوف وأن تعتبر هذه القلعة حاجزاً بين الدولتين. ومما جاء في معاهدة بلغراد من بنود هامة: «عدم السماح لروسيا بناء أو بقاء أساطيل لها في البحر الأسود. كما قررت المعاهدة أن يمارس رعايا الروس نشاطهم التجاري في البحر الأسود على سفن تركية» (٩) .

٢. معاهدة كوجوك كاينارجا عام ١٧٧٤م:

واستمر السلم بسبب معاهدة بلغراد لمدة ربع قرن تقريباً، ثم نشبت الحرب بينهما منذ عام ١٧٦٨م حتى عام ١٧٧٤م، وكانت روسيا قد قامت بتقوية جيشها في فترة السلم زمن كاترين الثانية (١٠) ، وعندما نشبت الحرب بينهما أنزلت البواخر الروسية جيوشاً في اليونان وبيروت، بينما توغلت الجيوش الروسية الأخرى في البلقان والقوقاز، وفي نهاية الحرب فرض الروس على السلطان التخلي عن القرم، فكانت أول مقاطعة إسلامية تنسلخ عن الدولة العثمانية (١١) وقد وقع السلطان هذه المعاهدة التي عرفت بمعاهدة كوجوك كاينارجا عام ١٧٧٤م بعد أن هزمت الجيوش العثمانية.

وبمقتضى هذه المعاهدة تحول البحر الأسود من بحيرة عثمانية بحتة إلى بحيرة عثمانية روسية. وتقرر لروسيا الحق في إنشاء قواعد عسكرية برية وبحرية على سواحل الأسود، كما سمح لها أن تستخدم سفنها التجارية المضائقَ التركية للخروج من البحر الأسود إلى البحر الأبيض بحرية تامة. وسمح للروس ممارسة التجارة في جميع ولايات الدولة العثمانية، وعلى السلطان أن يطبق على الرعايا الروس نظام الامتيازات الأجنبية المطبق على فرنسا وبريطانيا، كما سمح للروس تفريغ شحنات سفنهم التجارية في كل ثغور وموانئ البحر الأسود والبحار الأخرى.

وقررت المعاهدة أن تكون تحت سيطرة روسيا وبصورة دائمة مواقع هامة منها قلعة كينبورن وقلعة جينكال وقلعة كيرتش في شبه جزيرة القرم ومدينة آزوف. كما أن الشروط المهينة التي فرضت على الدولة العثمانية في تلك المعاهدة أثارت مزيداً

من الأطماع الروسية القيصرية [١٢] **ونستنتج من معاهدة كوجوك كاينارجا ما يلي:**

١. إنهاء السيطرة العثمانية على البحر الأسود.

٢. توسيع وتمديد الحدود الروسية على حساب الدولة العثمانية، فخسر السلطان مدينة آزوف وشبه جزيرة القرم.

٣. أصبحت بلاد القرم مستقلة ولا يلتحق رعاياها بالدولة العثمانية إلا دينياً فقط.

٤. أصبح للروس حق بناء قنصليات في أي مكان في الدولة العثمانية، والملاحة الحرة في مياهها.

٥. سمحت المعاهدة للروس الحصول على امتيازات ضمن أراضي الدولة العثمانية تشمل الأرثوذكس.

وتجدد القتال بين العثمانيين والروس في الفترة ما بين ١٧٨٩ و ١٨٩٢م، وانتهت بصلح أو معاهدة ياسي Jassy عام ١٧٩٢م. وبموجب الصلح هذا مدت روسيا حدودها حتى نهر الدنستير، وأصبح هذا النهر منطقة الحدود بين الدولتين [١٣] .

٣. حلف عام ١٧٩٨م:

جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر بقيادة نابليون بونابورت عام ١٧٩٨م، وعقدت الدولة العثمانية مع روسيا معاهدة تحالف عام ١٧٩٨م ومدة هذا التحالف ثماني سنوات وذلك لردع الخطر الفرنسي، تعهدت فيها روسيا بمد الدولة العثمانية ١٢ قطعة حربية، وذكرت أنه إذا تأزم الموقف الفرنسي العثماني أن ترسل روسيا للدولة العثمانية خمسة وسبعين ألفاً إلى ثمانين ألف جندي روسي لمساعدة السلطان، وفي المعاهدة سمح السلطان لروسيا أن تمر سفنها الحربية في المضائق التركية بحرية، وكان ذلك في عهد السلطان سليم الثالث.

وفي عام ١٨٠٥م تجددت المعاهدة الروسية العثمانية (التحالف) الموقعة عام ١٧٩٨م لمدة ٩ سنوات أخرى وفي هذه المعاهدة الجديدة نجحت روسيا بأن انتزعت

من السلطان حقوقاً أخرى حيث اعترفت الدولة العثمانية عام ١٨٠٥م بأن الدفاع عن المضائق التركية إنما هو مسؤولية مشتركة تقع على عاتق روسيا والدولة العثمانية.

وفي عام ١٨٠٦م فسخت الدولة العثمانية المعاهدة الموقعة مع روسيا عام ١٨٠٥م، ويبدو أن فسخها جاء من تشجيع فرنسا للسلطان، الذي كان قد وقع مع بريطانيا أيضاً معاهدة تحالف عام ١٧٩٩م وفسخها هذه المرة كما فسخها مع روسيا، وكان تشجيع فرنسا واضحاً حيث قال الفرنسيون للسلطان إن المعاهدات الموقعة بين الدولة العثمانية وكلٍ من روسيا وبريطانيا هو انتقاص من سيادة السلطان على المضائق التركية، وقد كان فسخ المعاهدات مقدمة لقطع العلاقات بين الدولة العثمانية وبين كل من روسيا وبريطانيا ثم قيام الحرب. وقد نجحت دبلوماسية نابليون في أن تجر الدولة العثمانية إلى الحرب ضد روسيا عام ١٨٠٦م وضد بريطانيا عام ١٨٠٧م (١٤).

كانت الدولة العثمانية المعارض الأساسي للتوسع الاستعماري الروسي، لأن الرغبة الروسية في حلمها القديم هو الاستيلاء على القسطنطينية (١٥) كما كان الروس يساندون المتمردين على العثمانيين في البلقان العثمانية أثناء السلم كي تبقى الدولة العثمانية في مشاكل مستمرة.

كانت الهزائم العثمانية المتكررة في القرن الثامن عشر قد شجعت السلاطين على محاولات الإصلاح في المجال العسكري كي تتمكن الدولة العثمانية من مقاومة الجيوش الأوروبية المتفوقة. وقد اطلع العثمانيون على تفوق الغرب بواسطة احتكاكهم بهم عن طريق الحرب والتجارة والبعثات الدبلوماسية الأوروبية المقيمة في استنبول والوفود العثمانية التي كانت ترسل بين فترة وأخرى إلى أوروبا. وقد أدخل العثمانيون منذ الربع الأول للقرن الثامن عشر إصلاحات في مجال الطباعة والبحرية والهندسة والمدفعية، ولكن الخطوط الأساسية التي كان على المسؤولين العثمانيين اتخاذها هي إصلاح الجيش العثماني، لأن الانكشارية الذين كانوا عماد الجيش وصلوا إلى درجة كبيرة من الفوضى وإرهاب السلاطين.

التنظيمات العثمانية قبل السلطان سليم الثالث:

نعني بالتنظيمات الإصلاحات العثمانية في الجيش والإدارة، وهي بعبارة أصح

استعمال أساليب وطرق الغرب وتطبيقها في الدولة العثمانية. كانت أول ما بدأت هذه الإصلاحات زمن السلطان أحمد الثالث ١٧٠٣- ١٧٣٠م الذي سمح بفتح النافذة العثمانية باتجاه أوروبا وذلك بعد أن شعر أن الإدارة العثمانية ضعيفة خاصة في الجيش، ولاحظ السلطان تفوق الأوروبيين على الدولة العثمانية في هذا المجال.

قام السلطان ببناء القصور وتأسيس أول مطبعة على النمط الأوروبي، وأنشأ أول مدرسة عسكرية للمدفعية، ونفّذ بعض الإصلاحات البسيطة، كانت هذه الأعمال- أي تقليد الغرب الأوروبي- قد أدت إلى عزله عن العرش وقتل الوزير الأعظم من قبل الانكشارية الذين رفضوا الإصلاح.

بعد عزل السلطان أحمد قام السلاطين الذين تبعوه بالاتصال بفرنسا، وأخذوا بالتدريج إدخال الإصلاحات على الإدارة والجيش في الدولة العثمانية على النمط الفرنسي. فمثلاً وصل إلى استنبول عام ١٧٨٤م وفد فرنسي مكون من خبراء عسكريين وعلميين وفنيين وذلك لإجراء إصلاحات في الجيش والإدارة ومعاهد التعليم.

وهكذا نستطيع القول أنه نشأ في الدولة العثمانية تياران، الأول يريد الإصلاح واتباع الأوروبيين في نمط حياتهم، وأهم من قام بذلك السلطان وحاشيته، والتيار الثاني لا يريد الإصلاح ولا يريد اتباع الغرب بل أن يبقى القديم على قدمه وهم الانكشارية والشيوخ.

إصلاحات السلطان سليم الثالث:

عندما اعتلى السلطان سليم الثالث عرش السلطنة، أخذ على عاتقه الاتصال بالأوروبيين، فمثلاً عيّن سفراء عثمانيين في معظم الدول الأوروبية، وكانت مهمة هؤلاء السفراء (وكانوا قد عينوا لأول مرة) كتابة التقارير السرية عن التقدم الصناعي والحربي في تلك الدول الأوروبية، فمثلاً كتب راتب أفندي تقريراً مكوناً من ٥٠٠ صفحة، ذكر فيه الشؤون العسكرية والإدارية في الإمبراطورية النمساوية- الهنغارية. ثم شكل سليم الثالث مجلساً للنظر في تقارير السفراء ودراستها واتباع أفضلها. وقد بحث هذا المجلس المسائل المتعلقة بالفساد الإداري وضرورة إقامة إصلاحات في مؤسسات الدولة، وكانت أهم التقارير التي ناقشها المجلس تقرير (تاتار جيق زادة) وهو من العلماء، وكان قد كتب عن ضرورة إصلاح الجيش والإدارة والجهاز التعليمي،

وانتقد نظام المحسوبية والرشوة، وانتقد إسناد المناصب إلى الذين يدفعون مالاً أكثر، وأرهقوا بذلك الرعايا بالضرائب. وقد توصل المجلس في مناقشاته للتقارير المقدمة إليه إلى وضع «النظام الجديد» وهو النظام الذي أصدره السلطان سليم الثالث والذي يتضمن الإصلاحات في الدولة العثمانية، وتناول ثلاث مجالات هي: ١. الناحية المالية. ٢. الناحية العسكرية. ٣. الناحية التعليمية.

وقد تناولت الناحية المالية ضرورة إيجاد مورد مالي جديد للدولة العثمانية عن طريق الملكيات العقارية بعد وفاة أصحابها دون وريث حيث تصبح ملكاً للدولة، ومورد مالي آخر هو تقليص نفوذ الملتزمين. وتناولت الناحية التعليمية إدخال مدارس هندسية لتطوير القوات العسكرية. أما الناحية العسكرية فتناولت إدخال تطوير جديد على سلاح المدفعية والألغام والبحرية وغيرها. وأدت إصلاحاته هذه إلى غضب الانكشارية مما أدى إلى عزله ثم قتله، كما قتل رئيف باشا الذي أدخل الإصلاحات على الدولة العثمانية، وبعد وفاة السلطان سليم الثالث تبعه السلطان محمود الثاني الذي قرر اتباع سياسة سلفه في الإصلاحات ولكن بحذر، وقد استطاع عام ١٨٢٦م القضاء على الانكشارية الذين وقفوا في طريق الإصلاح.

لذا حين صعد سليم الثالث إلى العرش بدأ بإيفاد سفراء ومبعوثين إلى اغلب العواصم الغربية الأوروبية، ولأول مرة أصبح للدولة العثمانية سفراء دائمون في عواصم خارجية، وكان الهدف من إرسالهم هو توطيد الصلات مع هذه الدول والتعرف على تنظيماتهم الإدارية والعسكرية.

وقد شكل السلطان سليم الثالث مجلس شورى، وهو نوع من الحكومة، كانت تدرس فيه التقارير والاقتراحات. كان مجلس الشورى يناقش هذا النوع من التقارير ويتداول أعضاؤه إمكانيات الإصلاح، والشيء الجديد هو اقتراح الحلول وعرض الآراء بنوع من الجرأة والجدة، وقد تمخضت المناقشات والمداولات عن إعلان "النظام الجديد" وهو عبارة عن مجموعة من التنظيمات الهادفة إلى إجراء إصلاحات في المجالين العسكري والمالي.

وهكذا تبلور اتجاهان، الأول: اتجاه محافظ وهم الانكشارية أراد أن يُبقي المؤسسات القديمة ويحفظ استمرارها، بينما تبنى الاتجاه الآخر وعلى رأسه السلطان

إنشاء مؤسسات جديدة حديثة تابعة له مباشرة ومستقلة عن الأجهزة التي تقاسمه النفوذ.

ونستطيع أن نقسم هذه الإصلاحات إلى مجالات ثلاثة هي:

١. **الإصلاحات المالية**: وتهدف إلى إيجاد موارد جديدة للخزينة في سبيل سد الاحتياجات والمتطلبات الناتجة عن مقتضيات التسلح وإيجاد فرق عسكرية جديدة.

٢. **الإصلاحات التعليمية**: وتهدف إلى إدخال علوم جديدة وافتتاح مدارس للهندسة والرياضيات وكل ما يتعلق بتطوير القوات المسلحة.

٣. **الإصلاحات العسكرية**: وهي الهدف الرئيس في إصلاحات سليم الثالث لأن التنظيمات المالية والإصلاحات التعليمية كانت تهدف إلى الإسهام في تدعيم القوات الجديدة. وعرفت هذه القوات الجديدة التي أنشأها سليم الثالث باسم النظام الجديد وتضم عدة آلاف من الجنود المدربين والمنظمين على الطريقة الأوروبية. وقد أوجدت لهم أمكنة جديدة للتدريب والإقامة بعيداً عن رقابة قادة الانكشارية.

أبدى السلطان سليم الثالث منذ ارتقائه العرش عام ١٧٩٨م اهتماماً عميقاً بإدخال النظام الجديد في الجيش؛ وذلك بإعادة تنظيم الفرق العسكرية وتطوير أسلحتها على غرار الجيوش الأوروبية الحديثة، واتخذ الزي الأوروبي للجيش، واستقدم خبراء عسكريين من أوروبا لتدريبه، وقد اعترض الانكشارية على هذه السياسة الإصلاحية في الجيش. كان السلطان سليم يتجنب الاحتكاك بالانكشارية أحياناً ويدخل في مواجهات عسكرية معهم مراراً، وقد رضخ لطلباتهم مرات عديدة. وأذعن السلطان سليم الثالث لطلبات الانكشارية عام ١٨٠٦م حيث أمروه بعزل الصدر الأعظم وتعيين قائد الانكشارية صدراً أعظم، وعين بعض ضباط الانكشارية في مناصب قيادية في أجهزة الحكومة، لقد كان رضوخ السلطان سليم الثالث للانكشارية مشجعاً لهم على مواصلة سياستهم العدائية للسلطان فأخذوا يرددون الحديث النبوي الشريف: "كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار". وذهبوا في معارضتهم للسلطان إلى قولهم أن من تشبه بقوم فهو منهم. وهكذا عارض السلطان ونظامه الجديد كل من الانكشارية ورجال الدين ورجال الطرق الصوفية وعدة قطاعات من

الجماهير. لذا وضع الانكشارية خطة لعزل السلطان سليم الثالث ونجحوا في ذلك حيث أرغموه على إصدار فرمان بإلغاء النظام الجديد وتسريح الجنود الذين التحقوا بالجيش وفقاً لهذا النظام. لكن الانكشارية خافوا إذا بقي سليم سلطاناً أن يبطش بهم فقرروا عزله بعد أن استصدروا فتوى من شيخ الإسلام بعزله، وقد تم عزل السلطان سليم الثالث في ١٨٠٧/٥/٢٩م وتنصيب السلطان مصطفى الرابع وهو ابن السلطان عبد الحميد الأول. وقد قتل السلطان سليم الثالث في العام ١٨٠٨م [١٦] . وقيل أن الذي قتله السلطان مصطفى الرابع، وقد قتل مصطفى فيما بعد من قبل أنصار سليم الثالث.

هذه هي بشكل عام الإصلاحات الرئيسة التي قام بها سليم الثالث، ومع ذلك فإن التناقضات السياسية والدولية لم تسمح له بأن يذهب بعيداً في تنفيذ مشاريعه وعلى سبيل المثال: فإن سليم الثالث الذي كان يعتمد اعتماداً شبه كلي على الخبراء الأوروبيين، اضطر إلى إعلان الحرب على فرنسا عام ١٧٩٨م بعد حملة نابليون على مصر، وقد استمر قطع العلاقات فترة من الزمن. وهناك ضغوط انجليزية عليه وضغوط محلية وصلت إلى حد أدى إلى سقوطه عام ١٨٠٧م وتدمير المؤسسات التي بناها وقتل عدد من معاونيه بما في ذلك محمود رئيف صاحب كتاب التنظيمات الجديدة، أما محاولة إعادة السلطان سليم الثالث إلى العرش بعد عزله فقد أدت إلى مقتله عام ١٨٠٨م، فاستلم السلطان محمود الثاني العرش ١٨٠٨– ١٨٣٩م.

السلطان محمود الثاني (١٨٠٨م – ١٨٣٩م):

عندما وصل محمود الثاني إلى العرش، عزم على تطوير القوات المسلحة جميعها بما فيها الانكشارية، وحاول إقناعهم بالحسنى بقبول إدخال النظم الحديثة ولكنهم رفضوا. وكان السلطان قد عين مصطفى البيرقدار صدراً أعظم، وقد اجتمع هذا بالانكشارية وأفهمهم أن الإصلاح ضروري للجيش، وكذلك إدخال أحدث الأسلحة بما فيها فيالق الانكشارية، كما استصدر الصدر الأعظم فتوى من شيخ الإسلام بتأييد آراء مصطفى البيرقدار.

لم يأبه ولم يكترث الانكشارية برغبة السلطان ولا بأوامر الصدر الأعظم، وطبقاً لتقاليدهم وضعوا قدور الطعام مقلوبة دلالة على قيامهم بحركة عصيان. وقد حاول الصدر الأعظم مواجهة الانكشارية إلا أنه فشل ومات حرقاً عام ١٨٠٨م، وأخذت الانكشارية بتدمير كل من يقف في طريقها وعارضوا إدخال النظم الحربية الحديثة في الفيالق الانكشارية.

وفي ذاك الوقت تعرضت الدولة العثمانية لحرب مع روسيا انتهت بعقد معاهدة بخارست عام ١٨١٢م. وبعد ذلك لم تمض سنوات قليلة حتى اندلعت الثورة اليونانية عام ١٨٢١م، وقد انتصرت الثورة على القوات العثمانية التي تضم عدداً من الفيالق الانكشارية وأوقعت القوات اليونانية والثورة بالقوات العثمانية والسكان المسلمين مذابح رهيبة. وقد استعان محمود الثاني بوالي مصر محمد علي باشا، فأرسل الوالي ابنه إبراهيم باشا على رأس جيش مصري عام ١٨٢٤م لمساعدة السلطان، ونتيجة الانتصارات المصرية مع العثمانية حتى عام ١٨٢٧م على اليونانيين، أعلنت روسيا أنه لا بد من التدخل لإنقاذ اليونانيين من الفناء، وفي تلك الفترة استغل محمود الثاني وجود الجيش المصري وقضى على الانكشارية عام ١٨٢٦ (١٧)، كما سيأتي لاحقاً.

الإصلاحات العثمانية زمن محمود الثاني:

إن الإقامة الجبرية على سليم الثالث في القصر قد أفادت السلطان الجديد محمود الثاني لأنه اطلع على خطط الإصلاح. وقد أرغم السلطان الجديد في البداية إلى الانحناء أمام رغبات الانكشارية فأمر بإلغاء كل الإصلاحات المستوحاة من الفرنجة، وكان محمود مشغولا بالحروب التي واجهها في بداية حكمه سواء الحروب الداخلية أم الخارجية. وقد واجه الحركة الوهابية ومحمد علي في مصر والحرب ضد اليونان، وحربه مع فرنسا عام ١٨٣٠م عندما احتلت فرنسا الجزائر، ولكن في عام ١٨٢٦م أعاد محمود الثاني تشكيل قوات النظام الجديد إلى جانب الانكشارية على أن يقوم بتدريب القوات الجديدة مسلمون لا مسيحيون أو أجانب، ووافق المفتي ورجال الدين على هذا الإجراء، إلا أن الانكشارية قاموا بآخر تمرد لهم وأثاروا الجماهير ضد هذا

الإجراء الجديد، وخاصة فيما يتعلق بارتداء القوات الجديدة للملابس الأوروبية، لكن الشعب وقف ضدهم في الوقت الذي أعد فيه محمود العدة لمواجهتهم مما مكنه من القضاء عليهم عام ١٨٢٦م بنفس الصورة التي قضى بها محمد علي على المماليك في مذبحة القلعة عام ١٨١١م.

ولأول مرة جرى الإصلاح بتدمير مؤسسة قديمة «الانكشارية» مما جعل بالإمكان تنشيط المؤسسات الجديدة دون عراقيل. وقد أطلق على القوات الجديدة اسم «العساكر المحمدية المنصورة» وتم ذلك بعد موافقة شيخ الإسلام ورجال الدين. ثم ألغى محمود الثاني وحدات السباهية الإقطاعيين، ومنذ ذلك الوقت أصبح خيالة الجيش يتقاضون أجوراً. كما وضع دخل الأوقاف تحت إشراف الدولة وضم الزعامات والتيمارات للأملاك العامة وبذلك عزز مصادر دخل الدولة وأرسل بعثات عسكرية إلى أوروبا، وبدأ بتحديث المصانع وإنشاء وحدات عسكرية نموذجية في سلاحي المشاة والفرسان وتدريب الضباط والجنود العثمانيين على استعمال أحدث الأسلحة، كما أعيد تنظيم الأسطول.

لم يبدأ محمود الثاني في الإصلاحات العسكرية إلا بعد القضاء على الانكشارية عام ١٨٢٦م. حينئذ أنشأ محمود جيشاً جديداً مكوناً من ١٢،٠٠٠ جندي، وقام بتدريب الجيش العثماني الضابط فون مولتكه وهو من بروسيا وقد أصبح فيما بعد عام ١٨٧٠م قائداً عاماً للجيش البروسي، عمل مولتكه على تدريب الضباط والجنود العثمانيين على استعمال أحدث الأسلحة، وأنشأ وحدات عسكرية نموذجية في سلاحي المشاة الفرسان، وبعث محمود الثاني الطلاب إلى الكليات العسكرية الألمانية. واهتم بتعليم اللغات الأوروبية للأتراك، وفي عام ١٨٣٣م أنشأ مكتباً للترجمة (١٨).

وفي عام ١٨٣٤م أعاد محمود الثاني افتتاح سفاراته في العواصم الأوروبية وكانت قد أغلقت على أثر خلع سليم الثالث، وجرى أول إحصاء ومسح للأراضي في العصر الحديث بهدف تنظيم التجنيد وتقدير الضرائب، وأجرى تحسينات على المواصلات فأنشأ كثيراً من الطرق الجديدة وأنشأ السكة الحديدية، وصدرت جريدة

(تقويم وقائع) وهي الجريدة الرسمية، ونجد لأول مرة تعيين وزيراً للخارجية وآخر للداخلية وثالثاً للخزانة، وقضى على الرشوة والمرتشين، وأدخل نظاماً جديداً للجيش وألبسة جديدة للدولة العثمانية، فقد سمح بارتداء السراويل الأوروبية – البنطلونات– والأحذية السوداء والمعاطف الطويلة والطربوش الذي حل محل العمامة، وقد جرى إدخال الطربوش إلى الدولة العثمانية عام ١٨٢٧م على يد القبطان خسرو محمد باشا. واتبع محمود في لباسه فرقة موسيقية لاستقبال الضيوف الأوروبيين.

إلغاء الانكشارية:

كان السلطان محمود الثاني قد قرر تشكيل جيش جديد وفقاً للنظم الأوروبية الحديثة في التنظيم والتسليح والتدريب، ولكنه في قراره هذا الذي يشتمل على ٤٦ مادة لم يعمد إلى إلغاء الانكشارية بل قرر أن تقدم كل كتيبة ١٥٠ جندياً لإلحاقهم بالفرق الجديدة، وقرر أن لا يكون المدربون من المسيحيين بل من المسلمين. وأقيم حفل رسمي في العاصمة العثمانية يؤيد قرار السلطان بتكوين الفرق الجديدة في الجيش العثماني، لكن الانكشارية تعرضت للجنود أثناء التدريب وأوسعتهم ضرباً، وقامت بحركة تمرد احتجاجاً على مشروع تطوير الجيش. واجتمعت خمسة فرق من الانكشارية في ميدان يدعى ميدان الخيل ووضعوا القدور المقلوبة أمامهم تعبيراً عن تمردهم وعصيانهم. ثم انطلقوا في شوارع استنبول يشعلون النار في مبانيها ويحطمون المحلات التجارية. كان السلطان محمود الثاني أثناء ذلك في القصر على بعد ميلين ونصف الميل، فأمر بقتل كل انكشاري يتعرض للجنود الذين يتم تدريبهم، ثم استدعى شيخ الإسلام والمفتين وشرح لهم موقف الانكشارية فاستصدر من شيخ الإسلام فتوى بوجوب إبادة هذه الفئة الطاغية.

وفي ١٨٢٦/٦/١٦م خرج السلطان للقاء الانكشارية في ميدان الخيل، يصحبه عدد من الفرق العسكرية والشعب ورجال المدفعية الذين أحاطوا بالميدان واحتلوا جميع الجهات المطلة عليه وسلطوا مدافعهم على الانكشارية، وحصدتهم المدفعية، وأيقنوا أن لا طاقة على المدفعية فالتجأوا إلى ثكناتهم طلباً للنجاة وبدأ الجنود

النظاميون إلقاء جثث الانكشارية في البحر، ويقدر عدد قتلى الانكشارية ٦ آلاف انكشاري. وأصدر السلطان محمود الثاني في اليوم التالي فرماناً بإلغاء الانكشارية وشارتها وأعلامها. وفي اليوم نفسه أصدر السلطان فرماناً بإنشاء جيش جديد أطلق عليه العساكر المحمدية المنصورة (١٩) .

هوامش الفصل السادس:

1. علي حسون: تاريخ الدولة العثمانية، ص ٩٦.
2. علي حسون، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
3. عبد العزيز محمد الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها. ص ٩٦.
4. عبد العزيز الشناوي: المصدر نفسه، ص ٥٧٥.
5. عبد العزيز الشناوي: المصدر نفسه، ص ٥٧٦.
6. علي حسون: المصدر السابق، ص ١٠٨.
7. عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون، ص ١٩٢.
8. عبد الكريم رافق: المصدر نفسه، ص ١٢٥.
9. عبد العزيز محمد الشناوي: المصدر السابق، ج١، ص ١٩٥. انظر أيضاً: Hurewitz, J. C. vol. 1. pp. 47- 51
10. رافق: المصدر السابق، ، ص ٢٢٨.
11. البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة، ص ٥٧.
12. الشناوي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٧.
13. رافق: المصدر السابق، ص ٢٢٨.
14. عبد العزيز محمد الشناوي: المصدر السابق، ج١، ص ٢٠٧.
15. علي حسون: العثمانيون والروس، ط ١، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٨٢، ص ٩٦.
16. عبد العزيز محمد الشناوي: المصدر السابق، ج١، ص ٥٣٠.

١٧.عبد العزيز محمد الشناوي: المصدر نفسه، ج١، ص ٥٤٢.

١٨.احمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، ص ١٨٧.

١٩.الشناوي: المصدر السابق، ص ٥٥١.

الفصل السابع

أسباب ضعف الدولة العثمانية

وأهم الحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية

الفصل السابع

أسباب ضعف الدولة العثمانية
وأهم الحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية

هناك أسباب كثيرة أدت إلى إضعاف ثم سقوط الدولة العثمانية، ومن هذه الأسباب: الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخارجية.

أ. الأسباب السياسية:

١. ضعف السلاطين:

كانت الدولة العثمانية قوية في بداية عهدها وحتى نهاية عهد السلطان سليمان القانوني. فبعد وفاة هذا السلطان بدأت الدولة العثمانية بالضعف التدريجي واهتم السلاطين الذين جاءوا بعده بشؤونهم الخاصة الفردية ولم يهتموا كثيراً بالدولة، بل أمضوا حياتهم باللهو في القصر، حتى أن كثيراً منهم لم يقم بقيادة الجيوش أثناء الحروب، ونتيجة لهذا الضعف استلم الصدر الأعظم زمام الأمور، فأصبحت بيده السلطة الفعلية حيث قام بقيادة الجيوش بدلاً من السلطان. فمنذ عام ١٥٦٦م أي منذ وفاة السلطان سليمان القانوني وحتى عام ١٧١٨م حكم الدولة العثمانية ثلاثة عشر سلطاناً (١) . ظهرت ملامح الضعف عليهم.

كما لعب الكزلار آغا – المسؤول عن الحريم في القصر – دوراً هاماً في تسيير دفة الحكم في الولايات، وكذلك لعبت زوجة وأم السلطان دوراً فعالاً في شؤون الدولة السياسية الداخلية والخارجية (٢) . وقد وصل الأمر إلى أن قام الجيش بعزل السلطان أو خلعه أو قتله، كما حصل مع السلطان سليم الثالث. ولا ننسى دور شيخ الإسلام

أيضاً في التدخل في الشؤون السياسية، لأنه كان حسب وظيفته الدينية يستطيع عزل السلطان.

٢. ضعف الجيش العثماني:

ومن الأسباب السياسية الأخرى لضعف الدولة العثمانية، ضعف الجيش. لقد كان الجيش عمود الدولة ولكنه وصل إلى مرحلة متقدمة في السياسة فقام بقتل السلطان أو عزله عندما لم يكن راضياً عن تصرفاته.

ومن المعروف أن الجيش أو القوى العسكرية التي كانت تعتمد عليها الدولة العثمانية هي ثلاثة قوى هي: الجنود الإقطاعيون «السباهية» والجيش الإنكشاري، والجند الخاص أو المرتزقة (٣) . وعندما بدأ السباهي الارتباط بالأرض وحصوله على إقطاع من الدولة خفت عنده الروح العسكرية. فطول الفترة الزمنية في ارتباطه بأرضه أو إقطاعه جعلته غير كفؤ لمواجهة الجيوش الأوروبية المدربة على الأسلحة الحديثة والفتاكة.

كما فقد الجيش الانكشاري قدرته العسكرية القتالية عندما دخل صفوف الانكشارية أفراد محليون وهم (اليرليه) غير مدربين على القتال. وتمرد الجيش الانكشاري مراراً على الولاة حتى أنهم تدخلوا في عزلهم واشتركوا في المنازعات المحلية في الولايات وتخلى الجيش عن واجباته العسكرية وعجز عن الحفاظ على الأمن، والتصدي للغزوات الخارجية فتحول الانكشاري إلى قوة هدم بعد أن كان قوة بناء (٤) .

اعتمد الولاة على الجيش الخاص (المرتزقة) بعد أن ضعف الجيش الانكشاري. وقد لعب الجيش الخاص دوراً هاماً في الولايات العثمانية وخاصة الولايات العربية في مصر وسوريا والعراق، واعتمد الولاة على الجيش الخاص لمحاربة الانكشارية، ولكن لا يعني هذا أن الجيش الخاص كان قادراً على صد الأخطار الخارجية.

حاول بعض السلاطين إصلاح الجيش وإدخال الأسلحة الحديثة للدولة لكن الجيش الانكشاري رفض، مما جعل السلطان محمود الثاني يقوم بالقضاء على

الإنكشارية عام ١٨٢٦م، ثم اعتمدت الدولة العثمانية على جيش نظامي مدرب على الأسلحة الحديثة.

ولا ننسى تهديد الجيوش الأوروبية المستمر للجيش العثماني، واشتباكه مع الجيوش الأوربية المدربة والمسلحة بأحدث الأسلحة مما أدى إلى هزيمة الجيش العثماني.

٣. اتساع مساحة الدولة العثمانية وعجزها الدفاع عن حدودها:

وصلت الدولة العثمانية إلى أقصى اتساع لها زمن السلطان سليمان القانوني، وامتدت رقعتها على أراضٍ في ثلاث قارات هي آسيا وأوروبا وأفريقيا، فوصلت حدودها إلى أسوار فينا في أوروبا وبحر قزوين شمالاً، وشمالي أفريقيا عدا مراكش، وجميع المناطق العربية في آسيا، ورومانيا والمجر وبلغاريا واليونان، وأصبح البحر المتوسط بحراً عثمانياً.

لم تستطع الدولة العثمانية حماية هذه البقعة الواسعة ولم تستطع حماية حدودها من الأخطار الخارجية مثل روسيا وفرنسا وبريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية.

كما أن عدم ربط الولايات بالمواصلات السريعة شجع المناطق البعيدة على الثورة، وأدى إلى عجز الدولة العثمانية في فرض سيطرتها على ولاياتها ومقاطعاتها البعيدة.

٤. الحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية:

كانت الدولة العثمانية قد شهدت حركات انفصالية خاصة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، حيث حاول الولاة الاستقلال بولاياتهم وحكموا كأنهم هم السلاطين. **ومن أهم هؤلاء:**

أ. فخر الدين المعني الثاني في لبنان ١٥٨٥م – ١٦٣٥م:

هو أحد أمراء لبنان من آل معن الدروز الذين حكموا إمارة الشوف من عام ١١٢٠ – ١٦٢٣م. يعتبر فخر الدين أشهر أمراء بلاد الشام عموماً ولبنان خصوصاً،

إذ أنه حكم المناطق الممتدة بين يافا وطرابلس باعتراف ورضا الدولة العثمانية، سيطر على جميع الأراضي التي تضم مناطق لبنان المعاصر بحدوده الحالية ويعتبر مؤسس لبنان الحديث.

كان فخر الدين سياسياً بارعاً استطاع أن يمد إمارته لتشمل معظم سوريا الكبرى ويحصل على اعتراف الدولة العثمانية بسيادته على كل هذه الأراضي، على الرغم من أن الدولة في ذلك الوقت كانت لا تزال في ذروة مجدها وقوتها ولم تكن لترضى بأي وال أو أمير ليظهر أي محاولة توسع أو استقلال أو ما شابه ذلك.

تحالف فخر الدين مع دوقية توسكانا في إيطاليا ومع إسبانيا، وازدهرت البلاد طيلة أيام حكمه وكثرت التجارة مع أوروبا.

تحالف أيضاً مع آل شهاب أمراء وادي التيم وآل حرفوش أمراء بعلبك ضد الحلف المكون من يوسف سيفا في طرابلس ومنصور بن فريخ في بعلبك. رأى فخر الدين أن يزيح بن فريخ أولاً فصادق مراد باشا والي الشام وأوعز إليه بطرد ابن فريخ لأنه يشكل خطراً عليه، فاستدرجه الوالي إلى دمشق فقبض الوالي على منصور بن فريخ وقتله، لذلك انتقلت أراضي بني فريخ في بعلبك إلى بني حرفوش حلفاء فخر الدين المعني.

وجرت معركة بين فخر الدين ويوسف سيفا في جونية عام ١٦٣٥م انتصر فيها فخر الدين وضم أراضي كسروان والفتوح وبيروت، ولكي يحافظ فخر الدين على مكاسبه الجديدة أخذ يغمر والي دمشق بالهدايا، فاعترف الوالي بإمارة فخر الدين على المناطق التي استولى عليها (٥).

أرسل دوق توسكانا ألف بندقية إلى صديقه فخر الدين المعني في صيدا لمحاربة الدولة العثمانية، واستصدر دوق توسكانا براءة من البابا بولس الخامس دعا فيها موارنة لبنان إلى المحاربة تحت لواء فخر الدين، ولكي لا تثير علاقات فخر الدين بتوسكانا قلق الدولة العثمانية، أخذ يواصل دفع الضرائب المطلوبة منه في مواعيدها بل قبل مواعيدها أحياناً (٦).

مكث فخر الدين بعيداً عن وطنه خمس سنوات في أوروبا منفياً، قضى منها سنتين في توسكانا وثلاث سنوات في أراضٍ تابعة لإسبانيا، وكان قصده من هذه

الإقامة في أوروبا تشجيع الدول الأوروبية على محاربة الدولة العثمانية مجتمعين، ولكنه فشل في ذلك، ثم رجع إلى لبنان.

أدرك فخر الدين تقلب السياسية العثمانية واضطرابها، فحرص على أن تبقى علاقاته مع الدولة العثمانية متصلة، وقوى مركزه في استنبول معتمداً على بعض الوزراء في العاصمة العثمانية من ذوي النفوذ، فأغدق عليهم الهدايا والأموال، وهكذا ضمن فخر الدين عواطف رجال الحكم في العاصمة العثمانية. وكان والي دمشق قد جدد له حكم سنجقيات صفد والجليل ونابلس وزاد عليها غزة وعكا والناصرة وطبريا وعجلون، وهذه المناطق أمدت جيشه بالرجال والمال.

وكذلك وسع إمارته شمالاً فاستولى على سلمية وحمص وحماة وحلب وأنطاكيا وتدمر. وهكذا شملت إمارة فخر الدين لبنان كله وسوريا وفلسطين وشرقي الأردن. وأطلق السلطان العثماني على فخر الدين لقب «سلطان البر» عام ١٦٢٤م وأطلق عليه لقباً أخر هو «أمير عربستان» أي أمير بلاد العرب (٧) .

نظم فخر الدين إمارته تنظيماً إدارياً يكفل له الإشراف على أمورها العامة، فجعل فيها موظفين مسؤولين يعينهم بنفسه، وحدد لهم مرتبات يتقاضونها من خزينة الإمارة.

كان فخر الدين محباً للبناء والعمران كما كانت ظروف حياته العسكرية تفرض عليه الاهتمام بإقامة الحصون والقلاع والأبراج وتحسينها وتطوير هندستها.

وبنى الأمير فخر الدين قصراً له في دير القمر ما تزال آثاره باقية حتى اليوم وشيّد للأمراء المعنيين قصوراً في صيدا وأنشأ الخانات في المدن وعلى الطرق الطويلة، لكي ينزل فيها التجار الأجانب والمسافرون. وكانت الحياة الاقتصادية مزدهرة خلال عهده وساعده هذا على تحقيق أهدافه السياسية، فقد استطاع أن يستغل ثروة بلاده الزراعية والصناعية لتسديد الضرائب المفروضة عليه للدولة العثمانية.

رأى السلطان مراد الرابع أن الوقت قد حان للقضاء على الأمير فخر الدين الذي ذاعت شهرته في كل مكان، فجهز حملتين كبيرتين الأولى برية يقودها أحمد الكوجك

من ٨٠،٠٠٠ جندي وأخرى بحرية يقودها أمير البحر جعفر باشا مكونة من عشرين مركباً حربياً.

توجهت الحملتان إلى لبنان عام ١٦٣٣م، شعر فخر الدين عندئذٍ بضعفه أمام عدوه القوي، عندئذٍ أقدم أحد خدمه بخيانته فأرشد الكوجوك على مجرى الماء الذي يوصل إلى فخر الدين. ووقع الأمير أسيراً بأيدي العثمانيين عام ١٦٣٥م، وقام السلطان مراد الرابع بقتل زوجات الأمير في دمشق، وقتل فخر الدين ثم أولاده في ١٣/٤/١٦٣٥م (٨).

ب. حركة ظاهر العمر في فلسطين ١٧٥٠م – ١٧٧٥م:

◄ ظاهر العمر (٩):

ينتمي الشيخ ظاهر العمر إلى الزيادنة، جد زيدان، الذي نُسب إلى أشراف بني زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ارتحل مع أسرته إلى بلاد الشام في أواخر القرن السابع عشر، واستقربهم المقام في منطقة صفد، وحول بحيرة طبريا، وكانت تتبع ولاية صيدا، ولما توفي زيدان تمكن ابن عمر أن يصبح شيخاً على صفد عام ١٦٩٨م بكفالة الأمير بشير الشهابي أمير الدروز وصديق والي صيدا، ولما توفي عمر، اتجهت أنظار أهالي طبريا وصفد إلى ابنه ظاهر فاختاروه حاكماً عليهم، واضطر محمد باشا والي صيدا إلى تثبيته عام ١٧٣٣م.

كان ظاهر العمر تابعاً لوالي صيدا، وقام بعدة حروب من أجل جمع الأموال (كملتزم) وإرسالها للوالي، وحارب مشايخ الفلاحين بالقرب من طبريا مقر إقامته، ومن هؤلاء عرب الصقر الذين استطاعوا الدفاع عن أنفسهم ومسكوا صالح العمر (أخ لظاهر) وأرسلوه أسيراً إلى سليمان باشا العظم والي دمشق فأعدمه. غضب ظاهر وهاجم مشايخ عرب الصقر وقتل كثيراً منهم، وحارب الدروز وتوسع في مناطقهم وحارب جبل نابلس وتوسع حتى سهل مرج ابن عامر.

أراد سليمان باشا العظم الاشتباك مع ظاهر فأرسل حملة إلى طبريا بقيادة إبراهيم باشا والتقيا في معركة في عكا فانتصر ظاهر العمر ورجع إبراهيم لدمشق

مهزوماً، عندئذٍ قرر سليمان باشا العظم القدوم بنفسه مع جيش جرار لإخضاع ظاهر واحتلال طبريا، ولكنه فشل وانسحب بسبب قرب موسم الحج كي يشرف على الحجيج (١٠) .

وعندما رجع سليمان باشا العظم من الحج أمره السلطان محمود الأول العودة مرة ثانية لمحاربة ظاهر العمر وإخضاعه، فجهز سليمان باشا جيشاً وسار به إلى طبريا عام ١٧٣٨م وبدأ يحاصر ظاهر، لكن سرعان ما اضطر لفك الحصار لأن الباب العالي نقله إلى وظيفة أخرى، واستمر ظاهر يوسع نفوذه على الناصرة وأجزاء من مرج ابن عامر وصفد، وفي عام ١٧٤٢م عاد سليمان العظم مرة أخرى وحاصر طبريا إلا أنه أرغم مرة ثانية على فك الحصار، وبعد سنة جمع جيشاً كبيراً بهدف أن ينتقم من ظاهر (١١) ، وهذه هي الحملة الخامسة ضد ظاهر العمر، وعندما وصل إلى لوبية مرض ولم يتابع الزحف نحو طبريا بل مات في الطريق وهرب جيشه راجعاً لدمشق فاستولى ظاهر على ما بحوزة الجيش المهزوم من آل العظم.

بعد انتصار ظاهر العمر قام بتهديد أهالي عكا كي يخرجوا منها، فخرجوا ولذلك أرسل لوالي صيدا يطلب التزام عكا لأنها كانت تابعة لوالي صيدا وحقق ما أراد ظاهر. ثم حصل على التزام حيفا رغماً عن والي الشام الذي غضب منه لأنه لم يرسل الأموال التي كان قد جمعها من حيفا إلى والي الشام.

تولى أسعد باشا العظم حكم ولاية الشام بعد سليمان باشا العظم، واتخذ أسعد موقفاً مسالماً من ظاهر لمدة ١٤ عاماً وهي مدة حكمه على الشام. استغلّ ظاهر العمر هذه الفترة الزمنية فأخذ يقوي جيشه، ثم تولى حكم الشام عثمان باشا الكرجي وهو أحد مماليك أسعد باشا العظم الذي صمم على مجابهة ظاهر العمر، لكن علاقة ظاهر العمر كانت جيدة مع القزلار آغا وآخرين في القصر السلطاني، فعقدت في العاصمة العثمانية محكمة كي تقضي بالأمر إما مع والي الشام أو مع ظاهر، وقد نجح ظاهر من قرار المحكمة التي قررت أن عثمان باشا الكرجي رجل اعتدى على ظاهر، وأن ظاهر ضم حيفا والجيزة والحمرتين غصباً عنه؛ حماية لدمه وصيانة لحياته حسب قرار المحكمة (١٢) .

كما جرت مراسلات بين ظاهر العمر وعلي بك في مصر للاشتراك في مهاجمة والي الشام عثمان باشا، فأرسل علي بك جيشاً بقيادة محمد بك أبو الذهب عام ١٧٧١م وجرت معركة بين الفريقين على أبواب الشام انتصر فيها ظاهر العمر ومحمد بك أبو الذهب، وهزم عثمان في المعركة. وبعد مكوث أبو الذهب ثمانية أيام في دمشق رجع إلى مصر دون علم علي بك، وكانت خطة مرسومة من أبو الذهب وإسماعيل بك للانقلاب على علي بك واستلام أبو الذهب حكم مصر، وقد فشلت هذه الخطة لكن علي بك لم يعاقب أبو الذهب على فعلته هذه (١٣) .

بعد رجوع أبو الذهب لمصر رجع عثمان باشا من حمص لأنه كان مقيماً فيها بعد هزيمته السابقة في الشام، وبدأ في التحضير لمهاجمة ظاهر في عكا، واستعان بالدروز، بينما استعان الجزار بالمتاولة والتقيا بالقرب من بحيرة الحولة شمالي فلسطين، وانتصر ظاهر العمر وهرب عثمان للشام مرة ثانية، وسمع بالخبر والي صيدا (درويش باشا) ابن عثمان باشا والي الشام فترك صيدا وهرب لوالده في الشام فاستلم ظاهر حكم صيدا.

بعد هذه الانتصارات التي قام بها ظاهر العمر عزلت الدولة العثمانية عثمان باشا الكرجي وعينت بدلاً منه عثمان باشا الوكيل (١٤) .

هرب علي بك من مصر عام ١٧٧٢م إثر نزاعه مع محمد بك أبو الذهب، ولجأ إلى ظاهر العمر، لقد كان هدف علي بك إعادة سلطته في مصر ورؤية ظاهر موطد السلطة ليحميه من القوات العثمانية البرية. وكان المتاولة بحكم كراهيتهم لأمراء جبل لبنان إلى جانب ظاهر العمر وعلي بك.

ظهر الأسطول الروسي على المسرح العسكري، حيث اقتربت مراكبه من حيفا عام ١٧٧٢م لدعم علي بك وظاهر العمر تنفيذاً لاتفاق سابق مع علي بك.

وكان للطرفين مصلحة في ذلك. فالروس أرادوا خلق المشاكل مع الدولة العثمانية العدوة اللدود للروس، وأراد علي بك وظاهر العمر إنقاذ نفوذهما وبناءً على طلبهما توجه الأسطول الروسي إلى بيروت لتحطيم المراكب العثمانية فيها ولأشغال الأمير يوسف بالدفاع عنها وكان يحكم بيروت.

طلب يوسف باشا حاكم بيروت المساعدة من عثمان باشا الوكيل حاكم دمشق لحماية بيروت فأرسل الوكيل طائفة من الجند على رأسهم أحمد بك الجزار.

قرر ظاهر العمر الاستيلاء على بيروت وفيها عدد من الدروز الذين كانوا في عداء مع ظاهر، فطلب الدروز مساعدة من والي الشام عثمان باشا الوكيل، فأرسل لهم أحمد باشا الجزار كي يحافظ على بيروت من أي اعتداء من ظاهر العمر، كما استطاع ظاهر ضم مدينة يافا بمساعدة جيش علي بك من مصر.

خطط محمد بك أبو الذهب في مصر أن يقتل علي بك الموجود مع ظاهر، فطلب من السناجق أن يرسلوا رسائل إلى علي بك للحضور لمصر لأنهم يؤيدونه ولا يؤيدون أبو الذهب، وكانت هذه حيلة من أبو الذهب للتخلص من علي بك، وقد نصح ظاهر العمر صديقه علي بك أن يصبر ولا يذهب لمصر لقتال أبو الذهب حتى يتأكد من الخبر، لكن علي بك صمم أن يعود لمصر ويستلم الحكم بعد أن يطرد أبو الذهب، ولكن الحيلة التي رسمها أبو الذهب نجحت وتم قتل علي بك وقتل صليبا بن ظاهر العمر.

جرى صلح وتحالف بين ظاهر العمر والدروز وعندما سمع عثمان باشا الوكيل بذلك جهز جيشاً وسار به لمحاربة الدروز ووصل إلى البقاع، عندئذٍ اجتمع جيش ظاهر العمر مع جيش الدروز قاصدين البقاع لقتال عثمان باشا الوكيل، وفعلاً هرب الوكيل واستلم الدروز كل مخلفات الجيش الموجودة مع الوكيل، وسمح لهم ظاهر العمر بذلك. وطلب الدروز من حليفهم ظاهر طرد الجزار من بيروت، وبعد محاصرة الجزار في بيروت وافق على تسليم بيروت للدروز شريطة أن يخرج بأمان وتحت حماية ظاهر العمر الذي كان في عكا، وبالفعل حصل الجزار على الأمان ولم يصبه الدروز بأذى وخرج تحت حماية جيش ظاهر العمر الذين اصطحبوه إلى عكا.

خرج أولاد ظاهر عن طاعته وحالفوا محمد بك أبو الذهب وخرج ظاهر من عكا واستلمها محمد بك أبو الذهب، وكانت أواخر حياته أن قطع المغاربة رأس ظاهر العمر وأرسلوه إلى الدنكزلي (١٥) ، الذي قدم الرأس إلى حسن باشا (١٦) وأبقى جسده على شاطئ البحر. كان عمر ظاهر العمر أثناء وفاته ٨٥ عاماً قضى منها: ٣٢ عاماً في عكا وبقية عمره قضاها في طبريا.

كان ظاهر العمر منذ بداية حكمه رجلاً طموحا، انهمك في توسيع ممتلكاته التي منحها له أمير لبنان لوالده، فبدأ يوسع منطقة نفوذه على حساب دمشق وصيدا حتى نصب متصرفاً في صيدا عام ١٧٣٣م ثم على يافا وحيفا والرملة ونابلس عام ١٧٣٥م وصفد عام ١٧٣٩م.

كان ظاهر العمر ملتزماً (محصلاً) للضرائب في شمالي فلسطين، عينته الدولة العثمانية على منطقة صفد، واستطاع توطيد حكمه في صفد وطبريا وقام باحتلال عكا وحيفا والناصرة. وأعلن انفصاله عن الدولة العثمانية وتحالف مع علي بك في مصر واتفقا على محاربة العثمانيين كما اتصلا مع الأسطول الروسي للمساعدة (١٧) . وعندما ازدادت سلطة ظاهر العمر قرر السلطان إرسال حملة عسكرية لإخضاعه وقتله.

ج. حركة علي بك الكبير في مصر ١٧٥٤م – ١٧٧٢م:

كان يطمح علي بك عدا عن حكم مصر بالشام والحجاز، فجهز حملة أرسلها للحجاز وسيطر عليها وذلك بعد قضائه على خصومه في مصر، ثم أرسل حملة أخرى إلى بلاد الشام وضع على رأسها محمد بك أبو الذهب، وكانت الدولة العثمانية مشغولة في حروبها مع روسيا. لكن نزاعاً نشب بين علي بك وقائده محمد بك أبو الذهب فانتصر الأخير وهرب علي ملتجئاً إلى ظاهر العمر في فلسطين، ولكن علي بك توفي في معركة مع أبو الذهب وتخلصت الدولة العثمانية من حاكم كان يطمح بالاستقلال عن العاصمة العثمانية.

د. حركة أحمد باشا الجزار ١٧٧٣م – ١٨٠٤م:

◄ *أحمد باشا الجزار* (١٨) :

ولد الجزار في عام ١٧٢٠م، يعود أصل الجزار إلى البوسنة في البلقان فهو من البشناق. هرب إلى العاصمة العثمانية الأستانة (اسطنبول) وهو في سن السادسة عشرة من عمره، ثم بيع إلى أحد تجار الرقيق ورحل إلى مصر واستقر فيها، سمي بالجزار لأنه برع في فنون البطش وسفك الدماء، واختلف المؤرخون في سبب تلقيبه بالجزار فمنهم من قال بسبب قسوته وغدره سمي بهذا اللقب.

نـال الجزار حظوة عند علي بك في مصر، ولكن حدث مـا عكر صفو العلاقة الحسنة بينهما، وخاف على نفسه من القتل ففر إلى الأستانة ومنها إلى حلب فبيروت باحثاً عن عمل ومن بيروت إلى دير القمر، وعمل بالجمارك ثم في سلك الجندية (١٩) .

كان قد كلف من سلطات دمشق بحماية بيروت، ولكنه تمرد على حاكمها الأمير يوسف الشهابي، وقد عينه السلطان بعد القضاء على ظاهر العمر محافظاً لعكا، وحين عزل والي صيدا العثماني عام ١٧٧٥م أرسل الجزار متسلماً إلى صيدا ليحكمها باسمه، وفي عام ١٧٧٦م دخل أحمد الجزار صيدا والياً عليها من قبل السلطان العثماني، وأعطي رتبة وزير (٢٠) .

وبتعيين أحمد باشا الجزار على ولاية صيدا، انتقل زمام المبادرة السياسية في بلاد الشام الجنوبية من ولاة دمشق إليه، وأصبحت دمشق تدور في فلك قوته.

كانت سياسيته الداخلية إثر حصوله على باشوية صيدا مباشرة تشكيل جيش من الألبانيين، وجيش آخر من المغاربة، وأنشأ أسطولاً صغيراً في ميناء عكا، واتبع سياسة تعسفية في جمع الضرائب من الأهالي. وكرر هذا كثيراً، فعندما تولى ولايتي طرابلس ودمشق عام ١٧٨٥م فرض على سكانهما ضرائب باهظة، غضب الشعب وقام بعدة ثورات ضده، منها مثلاُ ثورة الفلاحين في دمشق، ولكنها أخمدت بقسوة من قبل قوات الجزار، ثم ثورة عام ١٧٨٩م والتي استولى الثوار خلالها على بيروت وصيدا وصور واقتربوا من عكا مقر إقامة الجزار، لكن الخيانة التي وقعت بين صفوف الثوار من الإقطاعيين ساعدت الجزار في إخماد الثورة عند وصولها إلى أسوار عكا.

أما سياسة الجزار الخارجية فكانت متوترة مع الشهابيين خاصة عندما بدأ يتوسع في الأقاليم الساحلية وفي جبل لبنان، كانت المنطقة تحت حكم يوسف الشهابي، واصطدم الاثنان (الجزار والشهابي) واشتعلت الحرب بينهما وانتصر الجزار وطلب من الشهابيين انتخاب بشير الشهابي بدلاً من يوسف الشهابي حاكماً على لبنان، منذراً الجزار كلاً من الدروز وأهالي الشوف والمتن وكسروان في لبنان أن يطيعوا بشير الشهابي وأن يكون حاكماً عليهم (٢١) .

استطاع الجزار القضاء على الزيادنة بمقتل علي بن ظاهر العمر وفرض ضرائب كثيرة على المناطق التي وقعت تحت سيطرته.

كما عمل الجزار للحد من نفوذ أسرة آل العظم في دمشق وأسرة آل شهاب في لبنان، وفي عام ١٧٨٥م عينت الحكومة العثمانية أحمد باشا الجزار والياً على دمشق، فقام بتعيين اثنين من مماليكه على صيدا وطرابلس وسيطر على دمشق لمدة عامين، ولم تعد دمشق باشوية لآل العظم وعين ثلاث مرات والياً على دمشق.

ووقعت ثورة ثالثة ضد الجزار كانت عام ١٧٩٨م وتعد من أشد الثورات لكن الدولة العثمانية تدخلت في تسوية النزاع الدائر بين أهالي دمشق والجزار، فنجم عن هذه التسوية تولية والٍ جديد على دمشق، وعندما عزل الجزار عن دمشق عبر الناس عن فرحتهم وسرورهم بتزيين البلد وإشعال الشموع حتى في النهار (٢٢) ، احتفالاً حياً من خلال النصر النفس الكبير الذي انتابهم.

اتبع الجزار سياسة فرق تسد بين يوسف الشهابي وبشير الشهابي كي يبقى مسيطراً على جبل لبنان، فعرض يوسف أموالاً للجزار لحكم جبل لبنان وقدم بشير أموالاً أكثر وكانت هذه الأموال من ازدياد الضرائب على الأهالي. وقد وضع الجزار نهاية للأمير يوسف حيث أمر الجزار بشنقه في عكا.

وفي عام ١٧٩٩م دخلت الحملة الفرنسية فلسطين قاصدة عكا فحاصرها نابليون بونابورت، وتمكن الجزار بمساعدة الأسطول الإنجليزي بقيادة سدني سميث الدفاع عن المدينة دفاعاً مستميتاً، وما إن فشلت الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام، حتى بدأت الدولة العثمانية تناور بين قوتين سياسيتين قوة الجزار الإقليمية وقوة بشير الشهابي المتنامية.

شرع الجزار في تقوية دفاعه، واتخذ عكا مركزاً له، وكان يقيم فيها عشرة أشهر ويقيم المدة الباقية من السنة في صيدا التي كانت مركز الولاية الرسمي.

استخدم الجزار جيشاً من المماليك والمرتزقة ضم البشانقة والأرناؤوط والأكراد والمغاربة.

لقد عانى الأهالي من الضرائب الباهظة التي فرضها الجزار على الفلاحين لتقوية جيشه، ولجأ الجزار إلى أعمال السخرة في تحصين عكا، وطلب من الفلاحين تقديم خدماتهم مجاناً مما أضر بالزراعة.

لجأ الجزار بسبب حاجته إلى المال إلى الضغط على الملتزمين في منطقته، وحاول السلطان عزل الجزار بسبب ازدياد نفوذه، ولكن الجزار تحدى أوامر السلطان بعزله، وطرد الباشا الذي عين مكانه، واضطر السلطان إلى التغاضي عنه لا سيما وأن الجزار كان يوطد الأمن في منطقته، وقد أصبح قوياً إلى درجة يصعب معها عزله بسهولة.

لم يقم الجزار بحركة انفصالية زمن الدولة العثمانية ولكن تم تعيين الجزار والياً على عكا عام ١٧٧٥م، وقد أمضى وقته في حروب طاحنة مع أبناء ظاهر العمر، وقد خضعت له مناطق في سوريا وفلسطين ولبنان مثل صفد وطبريا وصور ونابلس وجنين، وبسبب شهرته وأدائه الضرائب للسلطان عينه والياً على دمشق أيضاً عام ١٧٨٠م، وبذلك خضعت له جميع سوريا وبدأ يجمع الأموال الكثيرة من الفلاحين بحجة الضرائب، ولكنه لم يعلن عن رغبته في الانفصال عن الدولة العثمانية رغم أنه كان يتصرف وكأنه الحاكم الفعلي في بلاد الشام.

٥. الثورات الداخلية:

نشبت ثورات داخلية عديدة داخل الدولة العثمانية أدت إلى الفوضى والاضطراب، وكلفت الدولة العثمانية العناء والأموال الباهظة حتى أعادت الأمور إلى نصابها. **ومن هذه الثورات والتمردات:**

أ. **تمرد الولاة العثمانيين** وميلهم إلى الاستقلال بولاياتهم لأسباب منها ضعف الدولة العثمانية، وبعد هذه الولايات عن العاصمة استنبول، مثل آل العظم في سوريا، والأسرة القرمانلية في ليبيا، والحسينية في تونس، ومحمد علي في مصر الذي حاول تشكيل دولة عربية تضم كلاً من مصر وبلاد الشام والسودان وشبه الجزيرة العربية (٢٤).

ب. **تمرد الانكشارية**: وذلك لتحقيق مكاسب لهم، ولكن السلطان محمود الثاني استطاع القضاء على الانكشارية عام ١٨٢٦م.

ت. **الثورات الدينية**: ومن أشهرها الثورة الزيدية في اليمن، والحركة الإصلاحية التي قام بها محمد بن عبد الوهاب في نجد، وانتشرت حركته وتعاليمه خارج الجزيرة العربية. وغضب السلطان نتيجة هذه الحركة فأرسل الوالي المصري محمد علي باشا للقضاء على الوهابيين.

ث. **خطر البدو**: كان البدو يقومون بالتعدي على قوافل الحجاج جنوب الأردن وحوران وأماكن أخرى ويقومون بالسلب والنهب من الحجاج، وهناك في مصر حركة للسلب والنهب من البدو في الدلتا. وقد كلفت هذه الحركات والتعديات البدوية أموالاً باهظة صرفتها خزينة الدولة العثمانية للقضاء على البدو.

٦. «الحروب العثمانية مع الدول الكبرى»:

خاضت الدولة العثمانية حروباً متواصلة مع الدول الأوروبية أدت إلى إنهاك الدولة وإفقار خزينتها وفقدان أراضٍ لها في أوروبا حتى أطلق عليها الروس «الرجل المريض». لقد كان الصدام العثماني الروسي قوياً وطويلاً، وكذلك الصدام مع النمسا، كل ذلك أدى إلى إضعاف القوة العسكرية العثمانية، وتوقيع معاهدات اعترفت فيها الدولة العثمانية بهزيمتها وسلخ أراضٍ عنها، مثل معاهدة كارولفيتز عام ١٦٩٩م مع النمسا وقد تنازلت بموجب هذه المعاهدة عن أراضٍ واسعة في ترانسلفانيا والمجر وأجزاء من أوكرانيا وغيرها. كما وقعت الدولة معاهدة كوجوك كينارجا عام ١٧٧٤م مع روسيا، اعترف السلطان العثماني بموجبها باستقلال شبه جزيرة القرم، وسمح لروسيا بإنشاء قنصليات في مناطق مختلفة من الدولة العثمانية وكنائس في القدس والقسطنطينية [٢٥] . وتوسعات إقليمية على حساب السلطان. وقد كان لهذه الحروب التي خسرتها الدولة العثمانية عاملاً مهماً من عوامل ضعفها.

يتضح مما سبق أن الأسباب السياسية والعسكرية كان لهما الدور الفعلي في إضعاف الدولة العثمانية. ولا ننسى فساد الإدارة وانحلال الجيش الذي لم يستطع أن يحمي دولة «الرجل المريض» مترامية الأطراف.

ب. الأسباب الاقتصادية:

تستطيع كل دولة أن تبني نفسها إذا كان اقتصادها قوياً، لذا فإن جميع النواحي الإدارية والسياسية والعسكرية تعتمد على الناحية الاقتصادية فإذا ضعف اقتصاد الدولة لا تستطيع بناء نفسها إدارياً ولا سياسياً ولا حتى عسكرياً.

إن ضعف التجارة والصناعة وإهمال الزراعة وكثرة المشاكل المالية وتبديل العملة النقدية دلالة على ضعف الدولة العثمانية. أضف إلى ذلك ازدياد مصاريف القصر والترف والبذخ الذي كان يتمتع بها السلطان وحاشيته وقلة الدخل للدولة، كل هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى إضعاف الدولة العثمانية. إن الناحية المالية والاقتصادية تتركز عليها جميع مرافق الحياة في الدولة، **وأهم دعائم الناحية الاقتصادية هي**:

١. التجارة:

كانت أراضي الدولة العثمانية همزة الوصل بين الهند وأوروبا عبر البلاد العربية، لذا كانت التجارة قوية. ولكن عندما تم اكتشاف رأس الرجاء الصالح تحولت الطرق التجارية حول أفريقيا إلى أوروبا، لذا أصبحت سواحل البحر المتوسط الشرقية منطقة ليست مهمة تجارياً، وهذا أدى إلا اضطراب التجارة [٢٦].

أما بالنسبة للتجارة الداخلية فكانت ضعيفة وذلك لأنها تعتمد على الأسواق الخارجية إلى حد ما، أما الإنتاج المحلي فكانت تجارته قوية في الأسواق. أما نظام الامتيازات الأجنبية فقد استفاد منه التجار الأجانب بسبب إعفائهم من الضرائب.

٢. الزراعة:

كان الفلاح العصب المهم في جسم الدولة العثمانية، ولكن عندما ازدادت طلبات الملتزمين (محصلي الضرائب) من الفلاحين، اضطر الفلاح أن يهجر أرضه، لأن الضرائب كانت أحياناً أكثر من نصف محصوله، هجر الفلاح قريته إلى المدينة هرباً من الضرائب وهذا أدى إلى خراب الأراضي الزراعية.

أضف إلى ذلك عدم التقدم التكنولوجي في النواحي الزراعية، فكان الفلاح يعتمد على محراثه الذي يعود استعماله إلى عدة قرون فليس هناك من تقدم.

٣. الصناعة:

كانت الصناعات الحرفية اليدوية تصدر إلى أوروبا، ولكن عندما تقدمت أوروبا صناعياً نتيجة الانقلاب الصناعي تدفقت الصناعات الأوروبية على أسواق الدولة العثمانية، وهذا أدى إلى تدهور الإنتاج المحلي في الأسواق العثمانية.

أضف إلى ذلك التقدم العلمي في أوروبا صناعياً بينما بقي في الدولة العثمانية جامداً. ولم يطرأ شيء جديد على الصناعات العثمانية أو المنسوجات، بينما كانت أوروبا تأتي بالمواد الخام من خارج القارة الأوروبية وتصنع ما تريد ثم تصدر المصنوعات إلى الأسواق العالمية.

٤. المسائل النقدية والمالية:

كانت العملة النقدية في الدولة العثمانية هي الأقجة الفضية، وبسبب نقص معدن الفضة واجهت الدولة أزمة نقدية، ولكن عندما بدأت الكشوفات الجغرافية جلب الأوروبيون الفضة من الدنيا الجديدة (أمريكا) لذا تدفقت الفضة إلى الأسواق العثمانية بسعر رخيص وهذا أدى إلى ازدياد الأزمة نتيجة التضخم الفضي. لذا فرضت السلطات العثمانية الضرائب الباهظة للتخلص من الأزمة المالية، وكان ذلك على حساب الشعب والفلاح بصورة خاصة، وهذا العمل أدى إلى فقر الفلاح.

٥. البذخ والإسراف وإرهاق خزينة الدولة:

عاش بعض سلاطين آل عثمان حياة مترفة كلها بذخ، فلم يهتم السلطان بالحياة العامة في الدولة ولكنه اهتم بشؤونه الخاصة وشؤون القصر والحريم وتزوج نساء كثيرات، وهذا أدى إلى مصاريف كثيرة على حساب خزينة الدولة.

أضف إلى ذلك أن الأزمة المالية التي مرت بها السلطة العثمانية ازدادت نتيجة هذا الإسراف في الأموال، وكذلك نتيجة زيادة عدد الموظفين الذين لا ضرورة لوظائفهم،

كل ذلك أرهق خزينة الدولة. لذا فإن إسراف السلاطين في الكماليات والبذخ، وكذلك فإن تعدد الزوجات كان له الأثر الكبير في ضعف الدولة العثمانية ووقوع الدولة في مطبات مالية صعبة ومعقدة.

ج. الأسباب الاجتماعية والعلمية:

إن الأسباب الاجتماعية والعلمية كانت من الأسباب الهامة في إضعاف الدولة العثمانية، فمثلاً انتشرت الرشوة في الآونة الأخيرة، لذا وصل عديم الخبرة إلى المناصب العليا في الدولة. كما أن القتل أدى إلى تفكك المجتمع وتأخره، خاصة إذا كان القتل بلا سبب. **ومن أهم العوامل الاجتماعية والعلمية التي أدت إلى ضعف الدولة العثمانية هي:**

١. التخلف العلمي:

كان التعليم في بداية الأمر في الكتاتيب والمساجد، ثم افتتحت جامعة السلطان محمد الفاتح في استنبول، وكان التعليم باللغة التركية. وقد نظر العثمانيون إلى التعليم أنه من مسؤولية الأسرة وليس من مسؤولية الدولة لذلك أهملت السلطة العثمانية في بداية الأمر فتح المدارس في الولايات. أضف إلى ذلك أن السلطة العثمانية لم تهتم بإدخال الأفكار الجديدة للدولة مما دل على الجمود الفكري والعلمي [٢٧].

إن الحروب المتواصلة على الدولة العثمانية من قبل جيرانها أدى ذلك إلى عدم التقدم العلمي وأدى إلى انشغال الأفكار بالحروب وليس بالعلم.

لا يعني ذلك أن الدولة العثمانية كانت لا تشجع العلم، بالعكس، فقد شجعت العلم والعلماء وأرسلت البعثات العلمية لأوروبا للدراسة، لكن الذي كان يشغل السلاطين فكرياً ليست النواحي العلمية بل النواحي العسكرية والحربية.

٢. النزاع على العرش ونظام ولاية العهد:

إن النزاع على العرش سببه النساء. فقد كانت زوجات السلطان ترغب كل واحدة أن يكون ابنها الوريث في الحكم بدلاً من أبيه. وهذا أدى إلى مؤامرات في القصر مستمرة شغلت بال السلطان فأصبح لا يهتم بشؤون الدولة بل بشؤون الوراثة.

كان الابن الأكبر هو السلطان المنتظر بعد وفاة أبيه، لكن فيما بعد أخذ السلاطين يختارون من أبنائهم من يحكم بعد وفاة السلطان. ثم ألغيت هذه العادة، فدرجت على اختيار أكبر الأعضاء سناً في العائلة العثمانية، وهذا أوجد مجالاً واسعاً للتنافس والتفاخر على العرش وأدى إلى قتل السلطان، وفرض الإقامة الجبرية على السلطان الآخر.

٣. انعدام التجانس بين ولايات الدولة العثمانية:

كانت نتيجة اتساع رقعة الدولة العثمانية في ثلاث قارات، أن ضمت في ثناياها أمماً وشعوباً غير متجانسة في اللغة والدين والعادات والتقاليد، لذا فإن احتواء جميع هذه العناصر وصهرها في دولة واحدة تكاد تكون مستحيلة. وأدى هذا إلى بروز القوميات، مثل القومية اليونانية والقومية العربية وغيرها. كل هذه القوميات نادت بالانفصال والاستقلال عن الدولة.

٤. الحصول على الترقية والوظيفة بوساطة الرشوة والمحسوبية:

انتشرت عادة الرشوة والمحسوبية في أواخر عهد الدولة العثمانية، فكان الشخص يدفع المال اللازم للوصول إلى الوظيفة المطلوبة، وعندما يصل إلى الوظيفة كان يبتز الأموال من الشعب أضعاف ما دفع من رشوة. حتى أن البعض وصل إلى وظائف حساسة في الدولة ويجهل العمل بهذا المنصب سواء كان عسكرياً أو سياسياً أو اقتصادياً، لذا لم يكن الرجل المناسب في المكان المناسب. ونتج عن ذلك انهيار سياسي وتفسخ اجتماعي واضطراب اقتصادي داخل الدولة العثمانية. لذا فإن انتشار الرشوة بين الطبقة الحاكمة نتج عنه فساد في الإدارة العثمانية.

د. الأسباب الخارجية:

هناك عوامل كثيرة خارجية أثرت على سير الحكم في الدولة العثمانية فعطلت مسيرتها وتقدمها وأدت إلى إضعافها ثم إنهائها وسقوطها. **ومن أهم**

هذه العوامل الخارجية:

١. التآمر على الدولة العثمانية:

فقد حصلت ثورات داخلية في الدولة العثمانية لكن جاء الدعم لهذه الثورات من الخارج، فثورة الصرب مثلاً كانت مدعومة من النمسا عام ١٨٠٤م، وقد قضى السلطان على هذه الثورة عام ١٨١٣م. لكن قام الصرب مرة أخرى بثورة عام ١٨١٥م ودعمتها هذه المرة روسيا، مما أجبر السلطان العثماني هذه المرة أن يعترف باستقلال الصرب عام ١٨١٥م وقس على ذلك تدخلات أخرى في مناطق مختلفة في الدولة العثمانية.

وهناك ثورة اليونان ضد الدولة العثمانية، مما أجبر السلطان طلب العون من الوالي محمد علي باشا عام ١٨٢٧م وحصلت معركة نفارين، لكن الدول الأوروبية ساعدت اليونان وقضت على الأسطول المصري والأسطول العثماني. وحصلت اليونان على الاستقلال عام ١٨٢٩م. وكذلك استقلت رومانيا سنة ١٨٧٨م نتيجة الثورة التي قامت بها. واستقلت بلغاريا عام ١٨١٢م. كما دعمت روسيا ظاهر العمر الذي سبب للدولة العثمانية مشاكل داخلية وخارجية.

٢. زحف الاستعمار على أراضي الدولة العثمانية:

كان التبشير (الذي هو مقدمة للاستعمار) قد ازداد في بداية القرن التاسع عشر. فبدأ التدخل الأوروبي تدريجياً في شؤون الدولة العثمانية وهذا أدى في النهاية إلى احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠م واحتلال فرنسا لمراكش عام ١٩١١م، وسقوط تونس بيد الفرنسيين عام ١٨٨١م ومصر بيد الإنجليز عام ١٨٨٢م وعدن بيد الإنجليز عام ١٨٣٩م وفلسطين بيد الإنجليز عام ١٩١٧م وسوريا ولبنان بيد الفرنسيين عام ١٩٢٠م.

وهكذا سلخت أراضٍ كثيرة من أراضي الدولة العثمانية المسلمة ولم يبق لها سوى تركيا.

الهوامش:

الفصل السابع: أسباب ضعف الدولة العثمانية
وأهم الحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية

١. عمر عبد العزيز عمر: محاضرات في تاريخ الشعوب الإسلامية، بيروت، ١٩٧٧م، ص ١١٥.

٢. عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون، ص ١٢٠.

٣. عبد الكريم رافق: المصدر نفسه، ص ١٢٠.

٤. عمر عبد العزيز: المصدر السابق، ص ١١٧.

٥. انظر أسامة أبو نحل فخر الدين المعني الثاني /ar. m. wikipedia. org/wiki

٦. المصدر نفسه، وانظر: المصور في التاريخ:، ج ٧، محالفة فخر الدين مع توسكانا. ص ٣٤ – ٣٦.

٧. المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

٨. المصدر نفسه، الصفحة نفسها

٩. سيار الجميل: تكوين العرب الحديث، دار الشروق. ١٩٩٧م، ص ٢٦٧– ٢٦٨.

١٠. توفيق معمر المحامي: ظاهر العمر ط٣، مطبعة فينوس، الناصر، ١٩٩٦م. ص ٤٣. وانظر، الروض الزاهر في تاريخ ظاهر، لعبود الصباغ، تحقيق محمد عبد الكريم محافظة، وعصام مصطفى هزايمة. ط١، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، إربد، الأردن. ١٩٩٩م، ص ٣٣.

١١. الكس كرمل: تاريخ حيفا في عهد الأتراك العثمانيين، معهد دراسات الشرق الأوسط، حيفا ١٩٧٩م. ص ٧٧.

١٢. الكس كرمل: المصدر نفسه. ص ٥٠.

١٣.الكس كرمل: المصدر نفسه. ص ٦٥.

١٤.الكس كرمل: المصدر نفسه، ص ٧٥.

١٥.الدنكزلي: هو أحمد آغا الدنكزلي، مغربي الأصل من تاهرت، حارب ضد ظاهر العمر إلى جانب أحمد الحسين عند دخوله قلعة جدين. ونظراً لبسالته دعاه ظاهر واستخدمه كما فوضه باختيار من يراه مناسباً من المغاربة للعمل معه، وشكل فرقة مستقلة ذات نظام خاص بها بقيادة أحمد الدنكزلي، وبقي الدنكزلي في خدمة ظاهر العمر زهاء أربعين سنة لعب خلالها دوراً هاماً في حياته. انظر الصباغ: تاريخ الشيخ ظاهر العمر ص ١١، ٣٧، ٦٥.

١٦.حسن باشا: هو حسن باشا الجزائري، أمير البحر التركي قائد الأسطول العثماني، وهو المسمى بالتركية القبودان باشي. أنظر: الشدياق، الأعيان. ج ٢. ص ٣٣٦.

١٧.عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون، ص ٢٩١.

١٨.أسامة أبو نحل: أحمد باشا الجزار، إدارته وعلاقاته السياسية والاقتصادية بالقوى الإقليمية والدولية. رسالة دكتوراه غير منشورة. جامعة النيلين، ٢٠٠٠م.

١٩.محمد عبد الكريم محافظة وعصام مصطفى هزايمة: الروض الزاهر في تاريخ ظاهر، تصنيف عبود الصباغ، مؤسسة حمادة، إربد ١٩٩٩م. ص ٧٣، انظر أيضاً: مشاق: مشهد العيان. ص ٦٠.

٢٠.عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر. دمشق ١٩٦٨م. ص ٣٨٧.

٢١.عبد العزيز نوار: وثائق أساسية في تاريخ لبنان الحديث. بيروت، ١٩٧٤م، ص ١٥٠.

٢٢.زاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث. بيروت، ١٩٧٥م. ص ١٨٩.

٢٣.عمر عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي ١٥١٦ – ١٩٥٢م، الإسكندرية. د. ت.

ص١٨٣ – ١٨٥.

٢٤.عمر عبد العزيز: محاضرات في تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ١٣١.

٢٥.لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص ٣٢.

٢٦.عبد الحميد البطريق: التاريخ الأوروبي الحديث، دار الفكر العربي، ١٩٨٢م، ص ٥٢.

٢٧.علي حسون: تاريخ الدولة العثمانية، ص ٨٢.

الفصل الثامن

الأطماع الأوروبية في الدولة العثمانية

الفصل الثامن

الأطماع الأوروبية في الدولة العثمانية

الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام عام (١٧٩٨م – ١٠٨١م):

جاءت الحملة الفرنسية من ميناء طولون في فرنسا بزعامة نابليون بونابرت إلى مصر بعد أن أبحرت عدة أيام في البحر الأبيض المتوسط. لقد نزلت الحملة الفرنسية في ميناء الإسكندرية بمصر في ١٧٩٨/٧/١م. وكان هدف نابليون من حملته قطع طرق المواصلات بين بريطانيا ومستعمراتها في الشرق الأقصى وخاصة الهند، وإقامة مستعمرات فرنسية في الشرق الأدنى، وإمبراطورية فرنسية مركزها مصر (١) ، وفتح أسواق للتجار الفرنسيين خارج فرنسا، ومنافسة شركة الهند الشرقية البريطانية، ولكن الغاية الرئيسة للفرنسيين هي احتلال مصر والتمتع بمصادر خيراتها (٢) .

استطاع الفرنسيون كسر المماليك في معركة الأهرامات قرب القاهرة في آب ١٧٩٨م واحتلوا القاهرة وأعلنوا للمصريين أنهم جاءوا لإنقاذهم من ظلم المماليك. وأنهم أصدقاء المسلمين والسلطان العثماني. وبدأوا يتقربون من العلماء والمشايخ. ووزع نابليون بياناً للمصريين ركز فيه على استثارة الناحية الوطنية ضد المماليك وكذلك الشعور الديني للسكان (٣) ، ورغم أساليب نابليون هذه لجذب الشعب المصري إليه إلا أنه واجه صعوبات ومشاكل وثورات مصرية ضده سواء من المماليك أو من عامة الشعب؛ وذلك نتيجة فرضه الضرائب عليهم وهدم البوابات وتحصين القلعة وغير ذلك من أعمال لم يقبل بها الشعب المصري، كما أعلن السلطان العثماني الحرب على فرنسا في الشهر التالي لاحتلال نابليون مصر.

أرسلت بريطانيا أسطولاً بحرياً كي يتعقب الحملة الفرنسية وكان الأسطول الإنجليزي بقيادة نيلسون. وقد استطاع هذا إغراق الأسطول الفرنسي في معركة أبي قير البحرية وقطع بذلك خطوط مواصلات الحملة الفرنسية مع فرنسا، **كان يحدق**

بالفرنسيين أربعة أخطار هي: الخطر الإنجليزي في البحر، والخطر المملوكي، والخطر المحلي كقيام ثورات شعبية، والخطر العثماني وذلك عندما أرسل السلطان العثماني جيشاً برياً بقيادة محمد علي فيما بعد، ورغم هذه الأخطار إلا أن نابليون لم يكترث بل قضى على الثورة المحلية في القاهرة وهرب المماليك للصعيد، وصمم نابليون أن يزحف إلى بلاد الشام كي يقطع الطريق على العثمانيين إذا جاءوا لمساعدة مصر. وكان نابليون يفكر في إقامة حكومة محلية في بلاد الشام موالية له من الشهابيين أو أبناء ظاهر العمر. وفي زحفه لبلاد الشام احتل نابليون العريش في ١٧٨٩/٢/٢٢م وسقطت يافا في ١٧٨٩/٣/٧م، وقد ارتكب نابليون أعمالاً شنيعة لا إنسانية حيث قتل ألفين من حامية يافا التي استسلمت له، لقد قتلهم لأنه كما قيل عنه لو احتفظ بهم لأوجدوا له مشكلة من ناحية إطعامهم وحراستهم، ولو أطلق سراحهم فربما انضموا إلى صفوف خصومه (٤).

لقد فشلت حملة نابليون إلى فلسطين بسبب مناعة أسوار عكا من جهة، وبسبب مساعدة الإنجليز لأحمد باشا الجزار حاكم عكا، وانتشار مرض الطاعون في صفوف الجيش الفرنسي، والأهم من ذلك الوحدة الجزئية التي حققها سكان جبل النار الذين كانوا يهاجمون معسكرات نابليون ويحرقون الخيام ويقتلون الجند الفرنسي ويستولون على السلاح والذخيرة والتموين، واضطر نابليون للعودة إلى مصر في ١٧٩٩/٥/٢٠م. ثم اضطر للعودة إلى فرنسا تاركاً على رئاسة الحملة في مصر نائبه كليبر الذي قُتل على يد مسلم في مصر هو سليمان الحلبي. ثم استلم قيادة الحملة فرنسياً آخر هو (مينو) الذي أعلن إسلامه وتسمى بـ عبد **الله** مينو، ثم بدأ الإنجليز والعثمانيون في محاصرة القوات الفرنسية في مصر من البر والبحرين المتوسط والأحمر مما اضطر الفرنسيون بقبول الأمر الواقع أي جلاء القوات الفرنسية عن مصر عام ١٨٠١م زمن السلطان سليم الثالث.

لقد فشلت الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام ولكنها أيقظت الشعور المصري بضرورة الدفاع عن الوطن، ونبهت السلطان العثماني إلى الأطماع الأوروبية في أراضي الدولة العثمانية. وقد تركزت حركة الكفاح المصري ضد الاستعمار خاصة عند المشايخ والطلبة في جامعة الأزهر، وأصبحت هذه الجامعة مركزاً لقيادة الثورة

المصرية، كما أن السلطان كان قد بعث جيشاً بقيادة الضابط الألباني محمد علي إلى مصر لطرد الفرنسيين والإنجليز.

وصل مع الحملة الفرنسية عدد كبير من العلماء والفرنسيين [٥] ، الذين قاموا بدراسة الآثار المصرية والتنقيب عنها في مصر واكتشف العلماء الحروف الهيروغليفية المكتوبة على حجر رشيد وقرأها العلماء وفسروها. وأنشأ بونابرت المجمع العلمي المصري وأنشأ نظاماً استشارياً ومصانع للبارود، وأعلن بونابرت مراراً أنه جاء إلى مصر لضرب المماليك لأنهم لا يطيعون السلطان العثماني، وكان يرتدي اللباس المصري كي يعطي انطباعاً أنه يحب المصريين والسلطان العثماني.

الحركة الوهابية:

ظهرت هذه الحركة في إقليم نجد بالجزيرة العربية، ورئيسها هو محمد بن عبد الوهاب، الذي عاش في جو انتشرت فيه أعمال منافية للإسلام مثل انتشار البدع والخرافات وتعظيم الناس للقبور والأضرحة والأحجار والأشخاص وابتعادهم عن روح الإسلام الصحيحة، خاصة عندما كان الناس يستغيثون بالأولياء ويقدمون لهم النذور ويتشفعون بهم لجلب منفعة أو لدفع ضرر، فقرر ابن عبد الوهاب تغيير هذه الحالة السائدة والرجوع بالإسلام إلى حالته الأولى.

لقد درس ابن عبد الوهاب مذهب أحمد بن حنبل وتأثر بتعاليم ابن تيمية وابن قيم الجوزية، وزار عدة مدن هامة مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة والبصرة وبغداد وغيرها. وقد أعطى لحركته الدينية صفة الثورة وتبنى هذه الحركة عبد العزيز بن سعود الذي دافع بالسيف عن هذه الحركة فسيطر على نجد. وزاد نجاح الوهابيين (الموحدين) عندما بدأوا في نشر تعاليمهم خارج الجزيرة العربية، وبدأوا في اقتطاع بعض المناطق العربية عن جسم الدولة العثمانية تمهيداً لضمها لدولتهم العربية الإسلامية فهاجموا العراق ثم سوريا، وكربلاء والخليج العربي. فاتصل السلطان العثماني بوالي بغداد وطلب منه الهجوم على الدرعية مقر ابن عبد الوهاب، وظن والي بغداد أن هذا الأمر سهل، ولكنه فشل ورجع إلى بغداد، فازداد الوهابيون قوةً وتقدموا حتى اقتربوا من بغداد حتى احتلوها ثم قرروا الزحف نحو سوريا. عندئذٍ فكر السلطان بالاستعانة بوالي مصر محمد علي في تنفيذ هذه المهمة وإنقاذ الدولة العثمانية من

خطر هذه الثورة [٦] التي بدأت تسحب بساط الحكم من تحت عرش السلطان في المناطق العربية، خاصة عندما سيطروا على مكة المكرمة والمدينة المنورة.

جهز محمد علي حملة برية بقيادة ابنه طوسون عام ١٨١١م وأرسلها للحجاز لإخضاع الوهابيين واستولى طوسون على المدن الإسلامية المقدسة في الحجاز، ثم ذهب محمد علي نفسه إلى قتال الوهابيين فجهز حملة برية وبحرية وصلت قواته المدينة المنورة ثم زحف نحو نجد، ومن الطائف نحو تربه وأرسل السفن للاستيلاء على القنفذة والسيطرة على عسير ثم رجع لمصر، وذهبت حملة ثالثة من مصر بقيادة إبراهيم باشا بن محمد علي إلى قتال الوهابيين واستطاع إبراهيم باشا الاستيلاء على عنيزة ثم الدرعية عاصمة الوهابيين ثم رجع لمصر.

لم تكن هذه الحرب صراعاً بين قوتين تسعيان إلى هدف واحد وإن اختلفت مظاهر كل منهما، إذ أن الوهابيين كانوا يسعون إلى إعادة مجد الدولة الإسلامية من الناحية الدينية، أما محمد علي فكان يسعى إلى إعادة مجد الدولة الإسلامية من الناحية السياسية، كان كل منهما يسعى إلى إحياء الدولة الإسلامية لكنهما لم يتعاونا فيما بينهما بل إن الذي جنى ثمار نصر هذه الحروب هو السلطان العثماني ومحمد علي في مصر [٧] .

خط شريف كولخانة (١٨٣٩م):

يعتبر خط شريف كولخانة مرحلة هامة من مراحل التحديث التي شهدتها الدولة العثمانية منذ القرن الثامن عشر. وفي هذا الخط تبدو الملامح الرئيسة للدساتير التي شهدتها أوروبا خلال الثلاثينات من القرن التاسع عشر. لقد لمع اسم رشيد باشا في هذا الخط لأنه وأنصاره كانوا مسؤولين عن الإصلاح خاصة بعد وفاة محمود الثاني. كان رشيد باشا يرى أن بقاء الدولة العثمانية يستلزم إعادة الوحدة التي كانت مصدر قوة الإمبراطورية في أيامها الأولى، وأن ذلك لن يتم إلا بتطوير المبادئ التي تهتدي بها الحكومة وجعلها شبيهة بالنمط الأوروبي الدستوري على أن تكون نقطة البداية هي مصلحة الرعايا المسيحيين وتحسين أحوالهم، وقد أجرى رشيد باشا مفاوضات مع الإنجليز لحسم الأزمة الشرقية لصالح الدولة العثمانية وللحصول على المساندة والدعم للإصلاحات وهكذا حلت سيطرة الدول العظمى محل السيطرة الروسية وسعت

هذه الدول إلى إنقاذ الإمبراطورية العثمانية من خطر محمد علي نظير التدخل في شؤونها الداخلية طيلة ما تبقى من القرن التاسع عشر.

وفي ١٨٣٩/١١/٣م نصبت خيام في حدائق قصر الزهور واجتمع حشد من كبار موظفي الدولة، وقدم الصدر الأعظم لرشيد باشا هذا الخط الشريف، فقرأه بصوت مسموع وقدمه باعتباره صادراً عن السلطان عبد المجيد ومتضمناً أسس تنظيم الدولة، ثم سلم رشيد الخط الشريف إلى الصدر الأعظم ومما جاء في وثيقة خط شريف كولخانة ما يلي: «إن الدولة كانت تراعي الأحكام الشرعية فبلغت قمة المجد، ومنذ مائة وخمسين سنة أهملت الإدارة الشرعية بسبب الغوائل وما عرض من حوادث» (٨) . وهذا يدل على الطابع الديني الإسلامي الأصيل في الدولة العثمانية.

وقد نص هذا الأمر السلطاني على مساواة جميع رعايا الدولة أمام القانون مع المحافظة على الشريعة في الوقت نفسه، ورغم ما نص عليه هذا الخط من أن مرجع ضعف الدولة هو عدم تطبيق مبادئ القرآن الكريم وقوانين الإمبراطورية إلا أنه أشار إلى أن العلاج لا يكمن في الرجوع إلى القوانين الإمبراطورية القديمة بل في إيجاد نظم جديدة «بعون الله تعالى ورسوله» **وقد جرى التأكيد على نقاط رئيسة ثلاث هي:**

١. ضرورة إيجاد نظام ثابت للضرائب يحل محل الالتزام.

٢. ضرورة إيجاد ضمانات لأمن جميع رعايا الدولة على حياتهم وأملاكهم.

٣. ضرورة توفير نظام ثابت للجندية بحيث لا تستمر مدى الحياة بل تحدد مدتها بفترة تتراوح بين ٤ – ٥ سنوات.

وقد اعتبر بعض الأوروبيين خط شريف كولخانة بمثابة العهد الأعظم بالنسبة إلى العثمانيين. فقد حقق للمرة الأولى وبصفة رسمية المساواة بين جميع رعايا السلطان أمام القانون. والحقيقة أن عصر التنظيمات استمر حتى إعلان الدستور عام ١٨٧٦م.

أعلن بعض المؤرخين أن الهدف من التنظيمات هو حرمان الدول الأوروبية من ذرائع فرض حمايتها على المسيحيين من رعايا السلطان. والحقيقة أن الإضرابات نشبت في الأناضول بعد صدور خط الشريف. وكان هناك معارضون لهذه الإصلاحات. وانضم إلى المعارضة المستفيدون من الأوضاع القديمة بما في ذلك

حكام الولايات والملتزمون الذين كانوا يخشون أن تقضي تقوية السلطة المركزية على امتيازاتهم. وهكذا أدى صدور خط شريف كولخانة إلى ردود فعل قوية في شتى أنحاء الإمبراطورية خاصة وأن كل فئة قد فسرته حسب فهمها له، فالمسلمون بوجه عام لم يرحبوا بالتنازلات التي حصل عليها غير المسلمين، وقد احتج أيضاً المسيحيون الذين كانوا يدفعون ضرائب قليلة أو حتى لا يدفعون ضرائب على الإطلاق حتى ذلك الوقت على مبدأ المساواة في دفع الضرائب، وأيضاً احتجوا على فرض ضرائب على الأوقاف الدينية المسيحية.

اشتدت المعارضة للإصلاح ولرشيد باشا مما أدى إلى تنحيته عن السلطة عام ١٨٤١م خاصة وأنه لم يكن لديه جهاز إداري يستطيع أن ينفذ الإصلاحات نصاً وروحاً، ولهذا فما أن عاد رشيد إلى السلطة عام ١٨٤٥م حتى أعطى الأولوية لتدريب المؤيدين للإصلاحات وتنفيذها جيداً، وفي الوقت نفسه واصل تنفيذ البرنامج الذي ارتآه لتطوير أجهزة الدولة، فأنشأ محاكم مختلطة، وأنشأ عدداً من المدارس العليا لتخريج الموظفين وضباط الجيش، وقسم الجيش إلى قسمين أحدهما القوات التي تقوم بالخدمة أي النظاميين، والقسم الآخر هو الاحتياطي. وجعلت مدة الخدمة العسكرية الفعلية خمس سنوات. وفي عام ١٨٥٠م أصدر رشيد باشا قانوناً تجارياً على نمط القانون التجاري الفرنسي.

وتغير طابع الحياة داخل الإمبراطورية بعض الشيء فقد ازداد الأمن على الحياة والأملاك وفق ما نص عليه الخط الشريف. وفي خلال العقدين الأوليين اللذين تليا صدور الخط الشريف تزعم رشيد الحركة الإصلاحية حين تولى الصدارة العظمى ست مرات، ووزارة الخارجية ثلاث مرات. لقد ساند السلطان عبد المجيد الحركة الإصلاحية خاصة وأنه اعتمد على رشيد باشا ورجاله ووجد في عمر باشا قائداً ممتازاً أمكنه أن يقمع كل حركات التمرد ضد الإصلاحات. والحقيقة أن هذه الإصلاحات كانت تتمشى مع سياسة بارلمرستون (الوزير البريطاني) بتقوية الدولة العثمانية حتى يمكنها أن تقف في وجه التوسع الروسي في آسيا الذي من شأنه أن يشكل تهديداً للسيطرة البريطانية على الهند. وواصل تلامذة رشيد باشا الإصلاحات بعد وفاته ومن أشهرهم في القرن التاسع عشر عالي باشا والمؤرخ جودت باشا ومدحت باشا.

حرب القرم وخط شريف همايون:

كما تمخضت أزمة ١٨٣٩م – ١٨٤١م عن صدور خط شريف كولخانه فكذلك تمخضت حرب القرم ١٨٥٣م – ١٨٥٦م عن صدور إصلاحي جديد هو الخط الهمايوني في ١٨/٢/١٨٥٦م.

حاول قيصر روسيا نقولا في عام ١٨٥٣م أن يتفق مع بريطانيا على اقتسام أملاك الدولة العثمانية التي وصفها "بالرجل المريض" أي الذي لا يرجى شفاؤه، فاقترح استيلاء روسيا على الاستانة مقابل استيلاء بريطانيا على مصر وكريت. إلا أن بريطانيا رفضت هذا العرض، خاصة وأنها كانت لا تزال متمسكة بالمحافظة على تمامية أملاك السلطان من أجل حماية طريق الهند وتوفير حاجز في مواجهة التوسع الروسي.

عندما فشلت روسيا في خطتها باقتسام الدولة العثمانية مع بريطانيا، حاولت التحرش في الدولة العثمانية عن طريق الكنائس المسيحية في فلسطين، والتدخل للسيطرة عليها. وهنا تدخلت فرنسا أيضاً لحماية المسيحيين في القدس ولبنان. وفي عام ١٨٥٤م أعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على روسيا في شبه جزيرة القرم. وخلال الحرب كانت تجري مفاوضات لإجراء الصلح. في تلك الأثناء أصدر السلطان العثماني برنامجاً إصلاحياً جديداً عرف بخط همايون عام ١٨٥٦م زمن السلطان عبد المجيد.

جاء هذا الخط الذي أصدره السلطان نتيجة للضغط الخارجي، على عكس خط شريف كولخانه الذي صدر عن رغبة محلية داخلية للإصلاح. كان خط همايون أكثر دقة من خط كولخانه في تحديد التغيرات الواجب إجراؤها، كما أن صيغته كانت أكثر اقتباساً عن الغرب، فهو لم يستشهد بآية قرآنية واحدة، ونص الخط على تطبيق الخدمة العسكرية على المسلمين وغير المسلمين. ونص على عدم عقوبة الإعدام على المرتدين عن الإسلام. وسمح للأجانب بامتلاك الأراضي في الدولة العثمانية، ونص الخط على المحافظة على الحقوق والواجبات والامتيازات التي تمتع بها رؤساء الملل غير الإسلامية.

وكما كان من أهداف خط شريف كولخانه استثارة عطف الدول العظمى على الدولة العثمانية بعد هزيمتها أمام روسيا، فكذلك استهدف خط همايون مساندة

أوروبا للدولة العثمانية ضد روسيا. وعندما عقدت الدول الأوروبية المتحاربة مؤتمراً للصلح قدم السلطان العثماني مرسومه الإصلاحي (خط همايون) فأعلنت الدول الأوروبية مساندتها التامة له دون أن تشترط التدخل في شؤون الدولة العثمانية لتنفيذ هذه الإصلاحات. كان وراء إصدار خط همايون كلاً من عالي باشا وفؤاد باشا وكانا يهدفان من إصدار هذا الخط الشريف تخفيف حدة التدخل الأجنبي في شؤون الدولة العثمانية، وقد وافق السلطان العثماني على نصيحتهما في إصدار الخط الشريف الهمايوني. عارض شيخ الإسلام هذا الخط لأنه تنازل كثيراً للأجانب عن حقوق إسلامية واضحة مثل عدم التدخل في شؤون المرتدين عن الإسلام وعدم إعدامه، كما أصبحت للمسيحيين حقوق رغم أنف السلطان في الدولة العثمانية. وكانت قد صدرت وثيقة "خط شريف همايون " عام ١٨٥٦م، وقد أصدرها السلطان عبد المجيد الأول الذي حكم ما بين ١٨٣٩ – ١٨٦١م، ومما جاء في الوثيقة أن الابتعاد عن الإسلام دلالة على سبب تأخر الدولة العثمانية، فجاء في الوثيقة ما يلي:

"لا يخفى أنه منذ ابتداء ظهور دولتنا العلية كانت الأحكام القرآنية الجليلة والقوانين السنية وثبوتها مع راحة جميع الرعايا ورفاهيتهم وعمار البلاد في غاية ما يكون من الكمال. ولكن منذ مائة وخمسين سنة لم يعد انقياد ولا امتثال للشرع الشريف ولا للقوانين الحنيفة بسبب ما طرأ عليها من الحوادث الكثيرة، ولهذا تحولت تلك القوة إلى ضعف، والراحة إلى التعب، والعمار إلى الدمار، واي مملكة لا تقوم بحفظ القوانين الشرعية تؤول إلى الاضمحلال [٩] .

لقد أكد خط شريف همايون ما ورد في خط شريف كولخانه، بل ذهب إلى أبعد منه بأن أكد لغير المسلمين الحرية الدينية والمساواة أمام القانون وفي الضرائب والوظائف العامة والخدمة العسكرية، وما دامت هذه الإصلاحات قد تمت على الورق لإرضاء الدول الأوروبية، في أوقات الحاجة إليها، فلم تكن لتدل على سياسة تحررية مرسومة لدى الحكام العثمانيين، إذ سرعان ما تخلى هؤلاء عن هذه الإصلاحات المعلنة، بزوال الظروف التي أدت إليها. ومما يذكر أن خط شريف كولخانه قد صدر عام ١٨٣٩م لاستجداء الدول الأوروبية ضد محمد علي باشا لإخراجه من بلاد الشام، وكذلك صدر خط شريف همايون عام ١٨٥٦م للحصول على دعم الدول الأوروبية ضد العدوان الروسي، وقد عقد مؤتمر باريس الذي أنهى حرب القرم بين العثمانيين

والروس. أما دستور عام ١٨٧٦م فقد صدر قبل انعقاد مؤتمر برلين عام ١٨٧٨م لتسوية أمر البلقان والذي تقرر فيه مصير الدولة العثمانية في أوروبا (١٠).

محمد علي باشا:

جاء محمد علي باشا مع الفرقة الألبانية ضمن الجيش العثماني المكلف بإخراج الفرنسيين من مصر إثر احتلالهم لها عام ١٧٩٨م من قبل نابليون. وقد دام الاحتلال الفرنسي لمصر حتى عام ١٨٠١م، وقد حدث في الفترة ما بين ١٨٠٣ و١٨٠٥م اضطراب في وضع القوى في مصر. ولم يعرف في يد من كانت السلطة الفعلية، وكانت توجد في مصر آنذاك ثلاث فئات هي: الباشا العثماني ومحمد علي والمماليك. لكن أصبحت السلطة والسيطرة في مصر للألبانيين والمماليك يجمع بينهم عداؤهم للسلطة العثمانية.

لقد تحالف محمد علي مع الحاكم العثماني الجديد خورشيد باشا ليستفيد من دعمه. ونتج من محاولة المماليك جمع المال بالقوة أن أثارت الشعب المصري الذي لجأ إلى محمد علي كزعيم منقذ. وأقنعه العلماء عام ١٨٠٥م أن يستلم الحكم بنفسه. وكان من مقاومة خورشيد باشا لهذا الاختيار أن زادت من التفاف الشعب حول محمد علي واعترف السلطان في حزيران عام ١٨٠٥م بمحمد علي حاكماً على مصر (١١).

عمل محمد علي باشا في الفترة ما بين ١٨٠٥ – ١٨١١م على توطيد سلطته ضد الإنجليز من ناحية والمماليك من ناحية أخرى، لذا احتل الإنجليز الإسكندرية عام ١٨٠٧م لكن تمكن محمد علي من إخراج الإنجليز من مصر بموجب ميثاق ١٤ أيلول عام ١٨٠٧م وقد زاد هذا النصر في تدعيم سلطته. نجح محمد علي باشا في القضاء على معظم زعماء المماليك في مذبحة القلعة عام ١٨١١م.

قام محمد علي بعملية مسح الأراضي في مصر عام ١٨١٢م وبموجب ذلك سجلت الأراضي باسم سكان القرى وأصبحوا مسؤولين عن دفع الضرائب مباشرة للدولة دون وساطة الملتزمين. وحاول من ناحية أخرى إيجاد طوائف مخلصة له فأعطى أفراد أسرته وبعض الأعيان وكبار الموظفين مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية وإعفائهم من دفع الضرائب تشجيعاً لهم على استثمارها، وهكذا أنشأ محمد علي في أواخر عهده نظام العهدة أي أن يعهد إلى كبار الموظفين بجمع الضرائب من

القرى، وكان بذلك قد أوجد حوله طبقة مستثمرة حلت محل الطبقة القديمة. ونتيجة ذلك استخدم هذه الواردات لبناء جيش قوي حديث مدرب. ثم اهتم بأمور أخرى ليزيد من الواردات فطَوَّر الري وقام بحفر أقنية جديدة وتنظيف القديم منها، واهتم بزراعة القطن فشجع الفلاحين على زراعة مساحات كبيرة من الأراضي بهذا المحصول. كما أدخل صناعات محلية إلى مصر وهدفه تقليد أوروبا وتقوية الاقتصاد المصري فاهتم بصناعة النسيج وغير ذلك.

اعتمد محمد علي في البدء على مزيج من الجنود الألبانيين والأتراك والمرتزقة والبدو فأوجد جيشاً من الفلاحين المصريين منظماً على الطريقة الأوروبية عرف بالجهادية، كما بدأ بإنشاء أسطول على الطراز الأوروبي أصبح أقوى من أسطول السلطان العثماني نفسه، ولخدمة سياسته العسكرية افتتح محمد علي عدداً من المدارس المهنية في مصر وافتتح مدرسة طبية عام ١٨٢٧م لتقديم الخدمات الطبية للجيش.

أسس محمد علي باشا عام ١٨٣٦م مدرسة للغات هدفها ترجمة المؤلفات الغربية إلى اللغة العربية وقد ترأسها رفاعة الطهطاوي. وأقيمت أول مطبعة حكومية في بولاق عام ١٨٢٢م. نظر محمد علي باشا إلى التوسع والمغامرات في الخارج لتشكيل إمبراطورية عربية. فاصطدم بالوهابيين بعد احتلالهم الحجاز، وشعر السلطان العثماني بخطر الوهابيين فطلب من محمد علي باشا عام ١٨١١م توجيه حملة ضد الوهابيين. فأرسل ابنه طوسون عام ١٨١١م بعد أن قام بدعوة زعماء المماليك لتوديع ابنه وقام بذبحهم في الاحتفال التوديعي في القلعة. تمكن طوسون من صد الوهابيين في الحجاز، ثم ذهب محمد علي بنفسه فيما بعد إلى الحجاز وهزم الوهابيين عام ١٨١٤م لكنه لم يتابع زحفه إلى عاصمتهم الدرعية.

توجه إبراهيم باشا بن محمد علي إلى الحجاز ونَجْد في عام ١٨١٨م واستطاع احتلال الدرعية والقضاء على نفوذ الوهابيين إلى حين. وكافأ السلطان إبراهيم باشا بتعيينه والياً على الحجاز والحبشة ودام نفوذ محمد علي باشا في الحجاز واليمن حتى عام ١٨٤٠م. وقرر محمد علي في عام ١٨٢٠م إرسال حملة على السودان وكان هدفه من ذلك القضاء على بقايا المماليك الذين هربوا بعد المذبحة عام ١٨١١م وخاصة عندما أسس المماليك الذين هربوا إمارة خاصة بهم في دنقله في السودان. واعتبر السودانيون هذا الاعتداء بالاعتداء التركي المصري وأسموهم بالترك. أما

الاعتداء المصري الإنجليزي على السودان ١٨٩٩م فقد سماه السودانيون «التركية الثانية أو الحكم الثنائي المصري الإنجليزي». ومن الضروري معرفة أن قائد الحملة على السودان كان إسماعيل بن محمد علي باشا وقد نجح في احتلال السودان واستغل خيراته وخاصة الذهب والعبيد وبدأ يفرض الضرائب على السكان.

اشترك محمد علي باشا إلى جانب قوات السلطان العثماني في إخضاع كريت عام ١٨٢٢م وشبه جزيرة المورة عام ١٨٢٤م بعد أن وعده السلطان بتسليمه حكمها. وكان آخر توسع لمحمد علي باشا في بلاد الشام عام ١٨٣١م، والحقيقة أن هدفه كان من احتلاله بلاد الشام الحصول على الخشب لأسطوله وعلى منتجاتها التي تدر المال مثل الحرير والقطن والتبغ، وهدفه الآخر لحماية حدوده في الشمال فأمكنه بذلك التحكم في بدو سيناء الذين هددوا طرق التجارة المصرية والسورية.

لقد طلب محمد علي مقابل اشتراكه بحرب اليونان إعطائه حكم بلاد الشام لكن السلطان محمود الثاني عرض عليه حكم كريت بدلاً من اليونان وأدرك محمد علي أنه لا يستطيع تقوية نفسه إلا على حساب السلطان وتقوية نفسه تكمن في احتلاله بلاد الشام.

كانت الظروف مواتية لتوسع محمد علي فقد أدى قضاء السلطان على الانكشارية عام ١٨٢٦م إلى ازدياد معارضة المصالح التي ارتبطت بهم للدولة ولم يكن الجيش العثماني الجديد قد قوي أمره بعد.

وحاول الفرنسيون استخدام محمد علي باشا لاحتلال شمالي أفريقيا ويبدو أن هدف الفرنسيين من ذلك إقامة دولة قوية شمالي أفريقيا تخضع لنفوذهم ويعارضون بها بريطانيا. لكن السلطان وبريطانيا عارضا المشروع الفرنسي بشدة وتراجع محمد علي عن ذلك.

حملة بلاد الشام:

بدأ إبراهيم باشا غزو بلاد الشام براً وبحراً عام ١٨٣١م واقتحمت قوة من ١١. ٠٠٠ رجل سيناء في طريقها إلى غزة، وتركز الصراع حول عكا التي كانت قد تحدت نابليون سابقاً. لم يعطل إبراهيم باشا نشاطه في حصار عكا بل احتل وهو يحاصرها المناطق المجاورة، فوصل صيدا وأرسل قوة إلى القدس لإعلان سلطته عليها ورفع عن

المسيحيين الضرائب التي كانوا يدفعونها مما أكسبه تأييد المسيحيين. وشجع على وجود إرساليات تبشيرية في بلاد الشام.

وأثناء ذلك بعث إبراهيم رسالة إلى الأمير بشير الشهابي في لبنان يدعوه للانضمام إلى حصار عكا. سقطت عكا سنة ١٨٣٢م ثم توجه إبراهيم باشا متعقباً الفلول العثمانية حتى حمص بعد أن استسلمت له دمشق دون قتال. ثم تابع سيره حتى وصل حلب وبذا أصبح الطريق مفتوحاً إلى استنبول العاصمة. عندئذ بدأ التدخل الروسي لدعم العثمانيين مما أخاف بريطانيا وفرنسا فضغطتا على السلطان ومحمد علي، ووقعت بينهما معاهدة كوتاهية ١٨٣٣م وبموجب هذه المعاهدة انسحبت قوات إبراهيم باشا إلى طوروس وأعطي بلاد الشام مقابل ضريبة سنوية.

إن نظام الضرائب الذي فرضه إبراهيم باشا على السكان قد أثار نقمتهم، وقد غضبوا من متطلبات الجيش المصري خاصة مصادرة المؤن أو شرائها بسعر متدنٍ أو مصادرة حيوانات النقل أو استخدام اليد العاملة في إقامة التحصينات الكثيرة. كما طبق إبراهيم باشا نظام التجنيد الإجباري على بلاد الشام عام ١٨٣٤ وأمر بنزع السلاح من الأهالي وهذه أشياء جديدة لم يتعودوا عليها. وكانت الخدمة العسكرية مدى الحياة وهذا يعني أن على الفلاح المجند أن يستأجر غيره لزراعة الأرض أو أن يبيعها. ومن هنا انتشرت عادة الاحتماء بالقنصليات الأجنبية، أو الهجرة إلى خارج البلاد أو تشويه أحد أعضاء الجسم لتحاشي الخدمة العسكرية، وانتهى الأمر بالثورة على إبراهيم باشا.

تأججت الثورة ضد المصريين من جديد على يد الفلاحين الدروز وذلك عام ١٨٣٥م ويجب ملاحظة أن نزع السلاح قد وحد الدروز والمسيحيين في معارضتهم الحكم المصري.

إن ازدياد النفوذ الروسي في استنبول وتوقيع العثمانيين معاهدة هنكار اسكي لاسي ١٨٣٣م مع روسيا التي تعهد العثمانيون بموجبها إغلاق المضائق في وجه الدول المعادية لروسيا في حالة الحرب، جعل بريطانيا تخشى الخطر الروسي، وبالنسبة للإنجليز فإن بقاء الإمبراطورية العثمانية ضعيفة خير من سيطرة محمد علي القوي، وفي عام ١٨٣٨م وقعت بريطانيا معاهدة تجارية مع السلطان، ولكن

محمد علي رفض تطبيقها في المناطق التي يسيطر عليها مما زاد في عداء الإنجليز له. لذا أخذ الإنجليز بتشجيع الثورة الداخلية ضد إبراهيم باشا.

لقد وجد السلطان العثماني محمود الثاني في الثورة الداخلية فرصة للتدخل ضد إبراهيم باشا، وقرر الإنجليز أيضاً التدخل ووصل أسطولهم سواحل لبنان وقصفت بيروت وهذا شجع الثائرين. وكان يساند بريطانيا ضد محمد علي كل من روسيا والنمسا وبروسيا الذين فرضوا على محمد علي الانسحاب، وظهر الأسطول الإنجليزي أيضاً قرب الإسكندرية، وإزاء هذا الوضع قرر محمد علي الانسحاب، وتم الاتفاق النهائي على أن يعطي السلطان العثماني حكومة مصر وراثية إلى محمد علي بموجب فرمان صدر عام ١٨٤١م.

أما بلاد الشام فقد مكث فيها الحكم المصري تسع سنوات، طبق فيها إبراهيم باشا سياسة التسامح والمساواة بين الطوائف، وشجع الإرساليات التبشيرية لكنه بالمقابل بسبب استخدامه الجنود المسيحيين ضد الدروز استفحل النزاع الطائفي وأدى ذلك فيما بعد إلى الحرب بين الدروز والمسيحيين الموارنة عام ١٨٦٠م.

إن الإمبراطورية التي حاول محمد علي إنشاءها كان هدفها خدمة طموحه وطموح أسرته بالدرجة الأولى وليس خدمة الشعب (١٢) .

السلطان عبد الحميد الثاني:

السلطان عبد الحميد هو ابن السلطان عبد المجيد، تسلم السلطة وعمره ٣٤ عاماً، وقد واجه مصاعب كثيرة من الدول الأوروبية، وبلغت الديون على الدولة العثمانية ٢٥٢ مليون ليرة عثمانية، وحاول تجنيب الدولة ويلات الحروب إلا أنها فرضت عليه وخاصة الحرب مع الروس. حاول تثبيت سلطته حين اعتلائه العرش فأصدر الدستور العثماني عام ١٨٧٦م وكان وراء إصداره مدحت باشا الصدر الأعظم، وقد أعطى الأجانب حقوقاً في الدولة العثمانية كما أعطى المسيحيين امتيازات بمساواتهم بالمسلمين، وقد فرح الأوروبيون بإصدار هذا الدستور إلا أن السلطان عبد الحميد عندما تأكد من تثبيت سلطته ألغى الدستور العثماني في العام التالي لإصداره.

تعرضت الدولة العثمانية في زمنه لحروب كثيرة أهمها مع روسيا. وبعد مقاومة صلبة من جانب الجيوش العثمانية للقوات الروسية التي كانت تفوقها عدداً

وعدة، طلبت الدولة العثمانية الصلح الذي تم التوصل إليه في سان استيفانو إحدى ضواحي الاستانة، وكانت القوات الروسية قد وصلتها منهكة في الوقت الذي كانت فيه الأساطيل البريطانية راسية قبالة العاصمة العثمانية للحيلولة دون احتلال الروس لها. وقد قضت معاهدة استيفانو عام ١٨٧٨م باستقلال إمارة الجبل الأسود وتوسيعها بضم بعض أراضي البوسنة كما أكدت استقلال الصرب. وتنازلت الدولة العثمانية عن أراضٍ كثيرة في البلقان وأرمينيا وأراضٍ في آسيا، وحصلت بلغاريا على الاستقلال الذاتي.

جرى تفتيت أراضي الدولة العثمانية، واستاءت بريطانيا لازدياد النفوذ الروسي في البلقان واستعدت لمحاربة روسيا، وحصلت بريطانيا من السلطان على حق احتلال جزيرة قبرص وإدارتها على أن تبقى تابعة للدولة العثمانية مقابل الدفاع عن الدولة العثمانية من التهديدات الروسية (١٣) . وكان الدافع وراء تصدي بريطانيا لروسيا هو عدم تقسيم أراضي الدولة العثمانية كي تبقى طريق الهند سالكة أمام الإنجليز.

لقد دعا المستشار الألماني بسمارك الدول العظمى إلى مؤتمر يعقد في برلين لمراجعة صلح سان ستيفانو وتسوية نتائج الحرب التركية الروسية، واشتركت الدول العظمى في المؤتمر، عرض بسمارك تقسيم الإمبراطورية العثمانية في المؤتمر، فعرض على بريطانيا مصر وعلى فرنسا تونس والشام وعلى النمسا البوسنة والهرسك وعلى روسيا المضائق، أما ألمانيا فلا شيء. وهكذا قرر المؤتمر منح رومانيا والجبل الأسود الاستقلال التام ومنح بلغاريا استقلالاً ذاتياً على أن تدفع جزية سنوية للسلطان، وتقرر احتلال النمسا (البوسنة والهرسك) دون فصل هذه المناطق رسمياً عن الدولة العثمانية.

كان مؤتمر برلين من المعالم البارزة لتدهور الإمبراطورية العثمانية التي أرغمت على التنازل عن مساحات واسعة من أملاكها. ولم يمض وقت طويل حتى احتلت فرنسا تونس عام ١٨٨١م، واحتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢م وحصلت اليونان عام ١٨٨١م على منطقة تساليا، وفي عام ١٨٨٥م ضمت بلغاريا المتمتعة بالحكم الذاتي منطقة الروملي. وقد أدرك السلطان عبد الحميد أنه لا يستطيع الوقوف أمام الدول الأوروبية بمفرده.

حركة الجامعة الإسلامية [41] :

كان قد صرح مسؤول غربي قائلاً «كان على السلطان العجوز أن يواجه مشكلة صعبة في أوائل حكمه، وكان هناك شعور باليأس في مستقبل البلاد، وأن نهاية الدولة وشيكة الوقوع، وكان على عبد الحميد أن يوجد شعوراً بالأمل لدى رعاياه المسلمين»، والحقيقة أن السلطان عبد الحميد كان يتصف بأوصاف إسلامية، منها أنه لا يميل إلى التبذير ولا يحتسي الخمر، وكان سليم العقل ومتدين، وقضى على الفساد وعلى العادات السيئة التي كانت منتشرة من أسلافه في القصر، وقد أحاط نفسه برجال الدين.

وكان يرى أن إنقاذ الإمبراطورية العثمانية هو الاهتمام بلقب الخلافة الإسلامية، لذا استعمل لقب الخلافة في أوائل حكمه كسلاح ضد الأجانب. وقد بدأت حركة الجامعة الإسلامية تنتشر في الدوائر الحكومية العثمانية، وكان يرى عبد الحميد أن الحروب الصليبية ضد الإسلام لم تنتهِ. واعتقد اعتقاداً جازماً أن ضعف الدولة العثمانية مرجعه ضعف الشعور الديني عند المسلمين.

والحقيقة أن مركز الجامعة الإسلامية قد تشكل خارج الدولة العثمانية، وقد تطلع الأتراك المسلمون إلى الحركة الإسلامية كي تنقذهم من التهديد الروسي، ونظروا إلى السلطان كي يعلن الجهاد.

إن السلطان عبد الحميد تبنى فكرة الجامعة الإسلامية لأنها وجدت قبولاً لدى شعبه بكل طبقاته، ووافق معها لمقاومة أعدائه في الداخل والخارج وشجع هذا الاتجاه ودعا إلى وحدة المسلمين المرتكزة على شخص الخليفة العثماني.

لقد كانت الحكومة العثمانية تحتج باستمرار كلما علمت عن اضطهاد المسلمين أو تعرضهم للاضطهاد. وقد رحب عبد الحميد بشخصيات إسلامية من أنحاء العالم بقصد إيجاد علاقات أخوية. كما شجع الحج إلى مكة المكرمة، ولهذا بنى سكة حديد الحجاز الممتدة بين دمشق والمدينة المنورة بين عامي (١٩٠١ – ١٩٠٨م) ، وقد أشرف على هذا الخط الحديدي في الدرجة الأولى سكرتير السلطان الخاص عزة باشا العابد وهو عربي من سوريا.

وفي عهده كثرت حركات إسلامية وتكايا الدراويش، وكانت أعماله قد أوجدت كثيراً من المؤيدين والأنصار له، كما قام عبد الحميد بإصلاح وزخرفة المساجد في مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف، وأعطى الإشراف عليها إلى العرب. وشكل فرقة عربية من الجند ضمها إلى حرسه الخاص واستقدم عدداً من العرب للقصر السلطاني كي يستشيرهم في الأمور السياسية، ونال بعضهم درجات عالية.

ونجح السلطان في ربط أجزاء الدولة ببعضها البعض، ورغم كل الاتهامات للسلطان عبد الحميد، فإن السلطنة والخلافة كانت تحظى بقدر كبير من الاحترام لدى رعاياه، وكانت أوروبا تخشى حركة الجامعة الإسلامية.

عودة إصدار الدستور:

أسس عدد قليل من تلامذة مدارس الطب العسكري عام ١٨٩٩م الجمعية السرية التي تحولت فيما بعد إلى اسم «لجنة الاتحاد والترقي».

وفي عام ١٩٠٦ أخذت تنتشر الخلايا الثورية في الجيش، وخاصة بين ضباط الجيش الثالث في سالونيك، ومن المحتمل أن تكون هذه المدينة أكثر مدن الدولة العثمانية انفتاحاً بحكم أن سكانها كانوا أوروبيين أكثر منهم أتراكاً، وكان حوالي نصفهم من اليهود الذين تحول عدد منهم إلى الإسلام في القرن السابع عشر وعرفوا باسم يهود الدونمة.

إن سهولة اتصال سالونيك ومقدونيا بالعالم الخارجي كانت ذات أهمية خاصة، لهذا انتقل مصطفى كمال أتاتورك إلى سالونيك مسقط رأسه، ويبدو أن الحركة الثورية في سالونيك قد عقدت اجتماعاتها في أماكن المحافل الماسونية، وتلقت مساعدة مالية من يهود الدونمة حتى أصبح عدد كبير من ضباط مقدونيا ماسونيين، لذا اتفق الجميع على خلع السلطان عبد الحميد وإعادة النظام الدستوري الذي كان قد ألغي منذ عام ١٨٧٧م.

استغلت جمعية الاتحاد والترقي سخط الجيش والشعب على حد سواء، خاصة وأن السلطان عبد الحميد سبق له أن قام بنفي الكثيرين إلى الأناضول لأنهم لعبوا دوراً كبيراً في إثارة الناس ضد الحكومة، ويبدو أن السخط المتفشي في الجيش هو

الذي عجل بنشوب الثورة، وكان الجيش الثالث في مقدونيا بقيادة أنور ونيازي، قد قرّرا القيام بثورة ضد السلطان وهدفهما إعادة الدستور الذي كان قد صدر منذ عام ١٨٧٦م.

خلع السلطان عبد الحميد:

اجتمع الزعيم الصهيوني هرتزل عام ١٩٠١م مع السلطان عبد الحميد وطلب هرتزل من السلطان فتح باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين بدلاً من أوروبا، والعمل على إنشاء حكومة يهودية تابعة للسلطان العثماني في فلسطين، ولكن السلطان العثماني رفض هذا الطلب بشدة وأصدر قانوناً يقضي بمنع اليهود المهاجرين من الإقامة في فلسطين أكثر من ثلاثة أشهر (١٥) . وقد منحت الدولة العثمانية المهاجرين اليهود بطاقات حمراء ليسهل عليها مراقبتهم وطردهم من البلاد فيما لو مكثوا فيها أكثر من ثلاثة أشهر.

حاول هرتزل إغراء السلطان بالأموال، وقد عرض على السلطان مبلغاً كبيراً من المال، ولكن السلطان رفض هذا العرض المادي الضخم (١٦) قائلاً له: «إنه لا يمكن أن يتنازل عن أرض فلسطين التي روتها دماء الشهداء المسلمين عبر العصور التاريخية وطلب من هرتزل أن يحتفظ بملايينه» (١٧) .

علم هرتزل أنه من المستحيل إقناع السلطان عبد الحميد أو شراؤه بالمال، لذلك دبّر الصهاينة مؤامرة لخلعه أو زج تركيا في حرب عالمية. وبما أن تركيا ضعيفة فهي لا بد أن تخسر الحرب وهذا ما حصل فعلاً فيما بعد. ومن الغرابة أنه أثناء خلع السلطان بسبب الثورة التي قامت ضده عام ١٩٠٨م جاء مع الأتراك موظف عثماني يهودي كان يعرفه السلطان عبد الحميد، وقد سلّمه رسالة الخلع عن العرش، وكان اليهودي مندوباً عن حركة الاتحاد والترقي، فاستغرب السلطان عبد الحميد من هذه المكيدة المدبرة (١٨) .

وأما عن الأسباب التي أدت إلى خلع السلطان عبد الحميد عن الخلافة والطريقة التي تمت بها فقد أوضحها السلطان نفسه بعد خلعه في رسالة وجهها إلى صديقه في دمشق الشيخ محمود أبو الشامات شيخ الطريقة الشاذلية، وقد نشر هذه الرسالة الأستاذ سعيد الأفغاني في مجلة العربي الكويتية في عددها الصادر في شهر شوال

عام ١٣٩٢هـ الموافق كانون أول عام ١٩٧٢م ضمن مقاله بعنوان «سبب خلع السلطان عبد الحميد» وقد ترجمت رسالة السلطان عبد الحميد من التركية إلى العربية (١٩) .

رغم أن أنور ونيازي زعيمي الانقلاب أصبحا بطلين فلم يظهر ضباط مقدونيا للعيان بل ظلت القيادة المركزية للجنة السرية وذلك استعداداً للانتخابات العامة القادمة.

لم تعلن لجنة الاتحاد والترقي عن برنامجها بالتفصيل باستثناء إعلانها المطالبة بعودة الدستور، وبعثت سبعة أشخاص إلى العاصمة العثمانية كي يقوموا بتمثيلها وذلك لتأسيس حكومة جديدة وإجراء انتخابات عامة. وجرى التمهيد لهذه الانتخابات بإلغاء البوليس السري، **وصدرت قوانين الانتخابات وظهر فريقان يتصارعان على السلطة في الانتخابات وهما:**

١. لجنة الاتحاد والترقي وعرفت باسم الاتحاديين وعلى رأسهم أنور وطلعت.

٢. لجنة المعارضة وهي تشكل حزب اتحاد الأحرار العثماني، قام بتأليفه الأمير صباح الدين بعد عودته من باريس.

جرت الانتخابات للمجلس النيابي عام ١٩٠٨م وفاز الاتحاديون بالمقاعد، بعد ذلك تحرك أعضاء وأنصار الجامعة الإسلامية، وأبدى هؤلاء امتعاضهم من تصرفات الاتحاد والترقي وخاصة من خروج النساء سافرات في الشوارع ومساواة المسلمين بغير المسلمين ولقيت هذه المعارضة استجابة واسعة النطاق من الجماهير وموظفي الدولة، وصرحوا أن الشريعة الإسلامية في خطر وأن المسيحيين على وشك السيطرة على البلاد، عندئذٍ قرر الاتحاديون عزل السلطان عبد الحميد، فحصلت ثورة مضادة تزعمتها الجامعة الإسلامية. تمرد الجنود لسيطرة مجموعة من الضباط تلقوا تعليمهم في المدارس العسكرية ذات البرامج الغربية.

وفي عام ١٩٠٩م تحول السخط إلى تمرد قام به الجنود العاديون ولم يشترك فيه سوى عدد قليل من الضباط. وهاجم الجنود "مجلس المبعوثان" والباب العالي وطالبوا بإسقاط الحكومة التي أقامتها لجنة الاتحاد والترقي وضرورة إعلان سيادة الشريعة الإسلامية.

لذا اتهم السلطان عبد الحميد بتدبير الثورة المضادة هذه، فبادرت القوات الموالية للحكم الجديد بالقضاء على التمرد، وزحف الجيش بقيادة محمود شوكت، وهو من أصل عربي، من سالونيك إلى الأستانة العاصمة. واجتمع "مجلس المبعوثان" وأعلن موافقته بعد ضغط شديد على خلع السلطان عبد الحميد بمقتضى فتوى من شيخ الإسلام، ونفي السلطان إلى سالونيك وعين بدلاً منه السلطان محمد رشاد الذي أصبح ألعوبة في يد لجنة الاتحاد والترقي وأصبحوا هم أصحاب الكلمة العليا في الدولة.

الهوامش:

الفصل الثامن: الأطماع الأوروبية في الدولة العثمانية

١. جلال يحيى: العالم العربي الحديث، ص ٧٢.
٢. رافق: العرب والعثمانيون، ص ٤١٦.
٣. رافق: المصدر نفسه، وكذلك ص ٣٦٦. نص البيان في الجبرتي ص ٤- ٥.
٤. رافق: المصدر نفسه، ص ٤١٧.
٥. جلال يحيى: المصدر السابق، ص ٧٣.
٦. جلال يحيى: المصدر نفسه، ص ٨١.
٧. جلال يحيى: المصدر نفسه، ص ٨١.
٨. عبد العزيز محمد الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج١، ص ٦٩.
٩. الشناوي: المصدر نفسه، ص ٦٩.
١٠. رافق: المصدر السابق، ص ٣٨٠.
١١. رافق: المصدر نفسه، ص ٣٩١.
١٢. رافق: المصدر نفسه، ص ٤١٢.
١٣. أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، ص ٢٤٤.
١٤. أحمد عبد الرحيم مصطفى: المصدر نفسه، ص ٢٤٧.
١٥. ناجي علوش: المقاومة العربية في فلسطين (١٩١٧ – ١٩٤٨م) .
١٦. مذكرات الدكتور حسين فخري الخالدي رئيس بلدية القدس عام ١٩٣٤م.
١٧. أنيس صايغ: يوميات هرتزل، سلسلة كتب فلسطينية ص ٤٣ – ٤٤.
١٨. مذكرات السلطان عبد الحميد السياسية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، عام ١٩٧٩م، ص ٣٤.
١٩. تيسير جبارة: تاريخ فلسطين، دار الشروق، عمان، ط ١، عام ١٩٩٨م، ص ٦٩، انظر نص رسالة السلطان إلى الشيخ أبو الشامات ص ٦٩.

الفصل التاسع

السلاطين العثمانيون حسب العصر وفترة الحكم

الفصل التاسع

السلاطين العثمانيون

سلاطين الدولة العثمانية حسب العصر وفترة الحكم:

فترة النهوض ـ ١٢٩٩م – ١٤٥٣م:

- عثمان الأول ١٢٩٩ – ١٣٢٤م
- أورخان غازي ١٣٢٤م – ١٣٦٠م.
- مراد الأول ١٣٦٠م – ١٣٨٩م
- بايزيد الأول (الصاعقة) ١٣٨٩م–١٤٠٢م.
- محمد الأول ١٤١٣م – ١٤٢١م
- مراد الثاني ١٤٢١م – ١٤٤٤ م
- محمد الثاني (الفاتح) ١٤٤٤م – ١٤٤٦م
- مراد الثاني ١٤٤٦م – ١٤٥١م
- محمد الثاني ٣/٢/١٤٥١م – ٣/٥/١٤٨١م

فترة النمو ـ ١٤٥٣م – ١٦٨٣م:

- بايزيد الثاني ١٩/٥/١٤٨١م– ٢٥/٤/١٥١٢م
- سليم الأول ٢٥/٤/١٥١٢م– ٢١/٩/١٥٢٠م
- سليمان الأول ٣٠/٩/١٥٢٠م – ٧/٩/١٥٦٦م
- سليم الثاني٢٩/٩/١٥٦٦م– ٢١/١٢/١٥٧٤م

- مراد الثالث ١٥٧٤/١٢/٢٢م- ١٥٩٥/١/١٦م
- محمد الثالث ١٥٩٥/١/٢٧م- ١٦٠٣/١٢/٢١م
- أحمد الأول ١٦٠٣/١٢/٢١م - ١٦١٧/١١/٢٢م
- مصطفى الأول ١٦١٧/١١/٢٢م- ١٦١٨/١٢/٢٦م
- عثمان الثاني ١٦١٨/٢/٢٦م- ١٦٢٢/٥/١٩م
- مصطفى الأول ١٦٢٢/٥/٢٠م- ١٦٢٣/٩/١٠م
- مراد الرابع ١٦٢٣/٩/١٠م- ١٦٤٠/٢/٩م
- إبراهيم الأول ١٦٤٠/٢/٢٩م- ١٦٤٨/٨/٨م
- محمد الرابع ١٦٤٨/٨/٨م- ١٦٨٧/١١/٨م

فترة الركود ـ ١٦٨٣م - ١٨٢٧م:

- سليمان الثاني ١٦٨٧/١١/٨م- ١٦٩١/٦/٢٢م
- أحمد الثاني ١٦٩١/٦/٢٢م- ١٦٩٥/٢/٦م
- مصطفى الثاني ١٦٩٥/٢/٦م- ١٧٠٣/٨/٢٢م
- أحمد الثالث ١٧٠٣/٨/٢٢م- ١٧٣٠/١٠/٢م
- محمود الأول ١٧٣٠/١٠/٢م- ١٧٥٤/١٢/١٣م
- عثمان الثالث١٧٥٤/١٢/١٣م- ١٧٥٧/١٠/٣٠م
- مصطفى الثالث ١٧٥٧/١٢/٣٠م- ١٧٧٤/١/٢١م
- عبد الحميد الأول١٧٧٤/١/٢١م- ١٧٨٩/٤/٧م
- سليم الثالث ١٧٨٩/٤/٧م - ١٨٠٧/٥/٢٩م.
- مصطفى الرابع ١٨٠٧/٥/٢٩م- ١٨٠٨/٧/٢٨م
- محمود الثاني ١٨٠٨/٧/٢٨م- ١٨٣٩/٧/١م

فترة التراجع ـ ١٨٢٨م - ١٩٠٨م:

- عبد المجيد الأول ١٨٣٩/٧/١م- ١٨٦١/٦/٢٥م

- عبد العزيز الأول ١٨٦١/٦/٢٥م- ١٨٧٦/٥/٣٠م
- مراد الخامس ١٨٧٦/٥/٣٠م- ١٨٧٦/٨/٣١م
- عبد الحميد الثاني ١٨٧٦/٨/٣١م- ١٩٠٩/٤/٢٧م

فترة التفكك ـ ١٩٠٨م – ١٩٢٣م:

- محمد الخامس ١٩٠٩/٤/٢٧م- ١٩١٨/٧/٣م
- محمد السادس ١٩١٨/٧/٤م- ١٩٢٢/١١/١م
- عبد المجيد الثاني (١) .

سلاطين الدولة العثمانية:

قسمت في الصفحات السابقة سلاطين الدولة العثمانية حسب العصر وفترة الحكم لكل سلطان، وكان التقسيم إلى خمسة أقسام وقد تناولت الشرح عن بعض السلاطين الذين لعبوا دوراً هاماً في تاريخ الدولة العثمانية، علماً بأنني تناولت في الصفحات السابقة سلاطين عثمانيين لعبوا دوراً مهماً سواء في بداية تأسيس الدولة العثمانية أو نموها وتوسعها في آسيا وإفريقيا وحوض البحر المتوسط وأوروبا، واستطاع العثمانيون الوصول إلى أسوار فينا أثناء فترة قوة الدولة العثمانية.

أما الأقسام الخمسة التي قسمت فيها سلاطين الدولة العثمانية فهي ما يلي مع الشرح عن بعض السلاطين:

١. **فترة النهوض (١٢٩٩م – ١٤٥٣م)** : وقد حكم في هذه الفترة تسعة سلاطين. شرحنا في بداية الكتاب عن ستة من هؤلاء السلاطين وهم عثمان الأول، أورخان، مراد الأول، بايزيد الأول، مراد الثاني، محمد الفاتح. وقد لعب هؤلاء السلاطين فترة هامة في التاريخ العثماني لأنها وصفت بفترة النهوض، وتوسعت الدولة العثمانية في أماكن مختلفة، ونكتفي بالشرح عن المذكورين أعلاه في فترة النهوض.

٢. **فترة النمو (١٤٥٣م – ١٦٨٣م)** : وقد حكم في هذه الفترة ١٢ سلطاناً شرحنا عن اثنين من السلاطين في الصفحات السابقة في الكتاب وهما سليم الأول وسليمان القانوني، وسأشرح عن اثنين آخرين هما محمد الثالث (١٥٩٥م – ١٦٠٣م) ومراد

الرابع (١٦٢٣م – ١٦٤٠م) وقد تناولت باختصار اثنين من هؤلاء السلاطين بسبب طول فترة حكم كل منهما أولاً، وعدم الشرح عن بقية السلاطين في هذه الفترة لأن ذلك يحتاج إلى صفحات كثيرة فيصبح الكتاب مجلداً ضخماً ولا داعٍ لذلك.

السلطان محمد الثالث (١٥٩٥م – ١٦٠٣م) (٢):

هو ابن السلطان مراد الثالث، ولد عام ١٥٦٦م وتولى أمور السلطنة بعد وفاة والده باثني عشر يوماً، وحال تناوله أمور السلطنة عزل بعض رجال الدولة ونصب مكانهم من وجد بهم الإخلاص. جرت المعركة الأولى في زمنه بين الجيوش العثمانية وجيوش الأفلاق والبغدان الذين انتصروا على العثمانيين، وجرت معركة ثانية في العام التالي تقهقر فيها أيضاً الإنكشارية، وبعد سنتين، تولى هو بنفسه قيادة الجيوش العثمانية وسار بها إلى بلاد المجر، انتصر في المعركة وفتح قلعة أرلو. ثم رجعت الجيوش العثمانية منتصرة إلى القسطنطينية، علماً بأن هذه القلعة عجز السلطان سليمان عن فتحها عام ١٥٥٦م.

من وزرائه الذين وقع على عاتقهم مقارعة الأعداء، سنان باشا، وجفالة زادة، وحسن باشا، وقد هزموا في المعارك التي ذكرناها في قتالهم مع الأفلاق والبغدان.

بعد انتصار السلطان عام ١٥٩٦م استمرت الحرب سجالاً بين جيوش المجر والنمسا مقابل الجيش العثماني دون أن تقع بين الطرفين وقائع حاسمة.

وفي بداية القرن السابع عشر للميلاد حصلت في بلاد الأناضول ثورة داخلية كادت أن تكون وخيمة العاقبة على الدولة العثمانية، إلا أن الجيش العثماني أخمدها. وأعقبت هذه الثورة ثورة أخرى في الأستانة كاد شرها يصل إلى الخليفة نفسه لأن جنود السباهية (أي الخيالة) طلبوا من السلطان أن يعوض عليهم ما فقدوه من ريع الإقطاعات المعطاة لهم في آسيا، وكانوا يسمونها (تمارا) ولما لم يكن في وسع السلطان تلبية طلبهم لنقص دخل الدولة، تمردوا وثاروا ونهبوا ما في المساجد من التحف الذهبية والفضية، فاستعان السلطان بجنود الإنكشارية وأخضعتهم بعد سفك الدماء، وفي تلك السنة توفي السلطان عام ١٦٠٣م عن عمر يناهز ٣٧ عاماً وخلفه ابنه أحمد الأول (٣) . ودفن السلطان محمد الثالث في جامع أيا صوفيا بجوار ضريح السلطان سليم الثاني.

السلطان مراد الرابع (١٦٢٣م – ١٦٤٠م):

هو ابن السلطان أحمد الأول ابن السلطان محمد الثالث، ولد عام ١٦٠٩م، وولاه الانكشارية بعد عزل عمه السلطان مصطفى الأول، تولى عرش السلطنة وعمره ١٤ سنة، وفي اليوم الثاني من جلوسه على العرش توجه إلى جامع أيوب المبني بالقرب من قبر أبي أيوب الأنصاري الصحابي [٤] . وتقلد السيف حسب العادة، وحدث أثناء جلوسه أن وقعت بغداد في أيدي العجم، وأقام الشاه مدة يسيره في بغداد، وخرج منها إلى الموصل لمحاربة حافظ باشا فحاصرها ولم يستطع فتحها، حاول حافظ باشا استرداد بغداد لكنه فشل.

وفي زمن السلطان مراد شق عصا الطاعة الأمير فخر الدين المعني حاكم جبل لبنان وتمرد على الدولة، وبعد قتال عنيف بين الأمير وأحمد باشا والي دمشق اضطر الأمير إلى الهرب، وبعد ملاحقته اضطر الأمير إلى التسليم فأخذه أحمد باشا إلى القسطنطينية، لكن السلطان عفا عنه، أما أولاد الأمير فقد جاهروا بعصيان الدولة العثمانية ونهبوا مدن بيروت وصيدا وصور وعكا، فغضب السلطان من دسائس الأمير فخر الدين بسبب تصرفات أبنائه، فأمر السلطان بقطع رأس الأمير فخر الدين وعلق رأسه على باب السراي ثم أمر بقتل ولديه.

سار السلطان مراد إلى فتح بغداد وتخليصها من أيدي العجم فوصلها بعد ٣٠ يوماً، وفي اليوم الثاني من وصوله أمر جنوده بالهجوم على بغداد، ففتحوها ثم رجع السلطان للقسطنطينية بعد أن ترك في بغداد عشرة آلاف جندي [٥] .

وفي تلك الأثناء كانت ثورات الجنود متتابعة بالأستانة، وفي كل مرة كانوا يطلبون قتل من يشاؤون من رؤوس الحكومة المخالفين لهم في الرأي، ويضطر السلطان لتلبية طلباتهم إسكاتاً لهم وخوفاً من أن يصل إليه أذاهم.

وفي غضون ذلك أصدر السلطان أمره بعزل خسرو باشا عن الصدارة وأعاد حافظ باشا صدراً أعظم لمنصبه في الصدارة، فسعى المعزول (خسرو باشا) لدى الجند وأفهمهم أنه عزل بسبب مساعدته للجيش، لذا ثار الجيش وأرسلوا إلى الأستانة يطلبون إرجاعه، ولما لم يجب السلطان طلبهم ساروا إلى القسطنطينية وقاموا بثورة عظيمة دخلوا القصر السلطاني وقتلوا حافظ باشا رغماً عن تدخل السلطان عام

١٦٣٢م، اغتاظ السلطان وأمر بقتل خسرو باشا محرك الفتنة وعين بدلاً منه بيرام محمد باشا صدراً أعظم. ومن ذاك الوقت أظهر السلطان عزماً شديداً في مجازاة رؤوس الانكشارية وغيرهم ممن يهيج الخواطر ويقلق الراحة العمومية، وصار يأمر بقتل كل من ثبت عليه أقل اشتراك في الحركات الأخيرة. لذا وقعت مهابته في قلوبهم وخشيه الصغير والكبير، وأمن الناس على أموالهم وأعراضهم من التعدي وسادت السكينة في القسطنطينية وجميع أنحاء الدولة العثمانية.

كانت أخر ثورة للانكشارية في زمنه عام ١٦٣٢م حركها رجب باشا، فأمر السلطان بقتله وإلقاء جثته من شبابيك السراي حتى يراها المتجمهرون، فسكنت الخواطر ولم يحصل ما يعبث بالأمن بعد ذلك في زمنه (٦) .

قرر السلطان طرد العجم من بغداد فجهز جيشاً سار هو بنفسه على رأس الجيش وحاصرها عام ١٦٣٨م وسلط على أسوارها المدافع الضخمة، واستمرت الحرب ٤٨ ساعة متوالية ختمت بانتصار الجنود العثمانية ودخلوا بغداد. ثم جرى صلح بين العثمانيين والعجم وانقطعت أسباب العدوان بينهما (٧) .

٣. **فترة الركود (١٦٨٣م – ١٨٢٧م)** : كان عدد السلاطين العثمانيين الذين حكموا في هذه الفترة (١١) سلطاناً شرحنا عن اثنين منهما في هذا الكتاب وهما السلطان سليم الثالث والسلطان محمود الثاني وسأشرح عن اثنين آخرين فقط هما: السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣م – ١٧٣٠م) والسلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٤ – ١٧٨٩م) ولا بد من التنويه أن فترة حكمهما كانت أطول من غيرهم لذا أفضل الشرح عنهما. ولا داعٍ للشرح الواسع عنهما بل موجز الموجز.

السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣م – ١٧٣٠م):

هو ابن السلطان محمد الرابع، ولد عام ١٦٧٣م، جلس على عرش السلطنة وكان عمره ٤١ عاماً، وعند تعيينه وزع أموالاً طائلة على الانكشارية، وهؤلاء قتلوا شيخ الإسلام فيض الله أفندي لمقاومته لهم في أعمالهم ونفوا أولاده، وخضع السلطان لطلب الإنكشارية ولم يحرك ساكناً.

وقام الانكشارية بعزل أعظم رجال الدولة واستبدلوهم بمن أرادوا، وعندما هدأت الأحوال وعادت السكينة اقتص من رؤوس الانكشارية فقتل منهم عدداً

ليس بقليل، وعزل الصدر الأعظم نشانجي أحمد باشا الذي انتخبه الانكشارية وقت ثورتهم (٨) .

شن السلطان حرباً على روسيا تحت قيادة بلطجي محمد باشا وكان الجيش العثماني يقدر ب ٢٠٠،٠٠٠ جندي فحاصر الجيش الروسي بقيادة قيصر روسيا وخليلته، ولو استمر الحصار قليلاً لأخذ أسيراً هو ومن معه وانمحت الدولة الروسية من العالم، لكن كاترينا سلمت بلطجي باشا كافة ما كان معها من الجواهر الكريمة والمصوغات الثمينة فخان الدولة ورفع الحصار عن القيصر وجيشه مكتفياً بإمضاء القيصر معاهدة فلكزن عام ١٧١١م وأخلى بموجبها مدينة أزاق (٩) .

وفي عهد الصدر الأعظم يوسف باشا الذي كان محباً للسلم وقع مع الروس معاهدة جديدة تقضي بعدم الحرب بين روسيا والدولة العثمانية مدة ٢٥ سنة، ولكن لم تمضِ بضعة أشهر حتى وقعت الحرب بين الجيشين الروسي والعثماني، فتدخل الإنجليز للصلح بينهما حماية للتجارة والمصلحة الانكليزية، فوقع الطرفان معاهدة أدرنة عام ١٧١٣م تنازلت روسيا بمقتضاها عن أراضيها على البحر الأسود.

أما الصدر الأعظم الذي تلاه وهو علي باشا فقد كان ميالاً للحرب غيوراً على صالح الدولة العثمانية، ميالاً لاسترجاع ما ضاع من أملاكها خصوصاً في بلاد المورة ولذلك أعلن الحرب على البندقية، فأسرع إمبراطور النمسا يمد يد المساعدة للبنادقة، وقد قتل الصدر الأعظم علي باشا في المعركة ودخلوا مدينة بلغراد، ثم جرت مفاوضات للصلح وتم توقيع معاهدة بساروفتس عام ١٧١٨م خسرت الدولة العثمانية بموجبها أراضٍ في بلاد العرب.

وفي عهد السلطان أحمد الثالث طلب أهل السنة في بلاد العجم المساعدة من الدولة العثمانية بسبب كثرة تعديات الشيعة عليهم (١٠) . لذا سار الجيش العثماني لإغاثة السنة، ففتح الجيش العثماني وهو في طريقه عدة حصون منيعة عام ١٧٢٥م حتى وصل إلى تبريز وغيرها وأعانت المتظلمين وقهرت الأعجام، ثم صالحهم بناء على طلب الشاه أشرف عام ١٧٢٧م. ولعدم ميل السلطان للحرب ورغبته في الصلح ثار الانكشارية وأهاجوا الأهالي فأطاعوهم طلباً للسلب والنهب عام ١٧٣٠م، وطلب ثوار الانكشارية من السلطان قتل الصدر الأعظم والمفتي وقبودان باشا أي أميرال

الأساطيل البحرية بحجة أنهم يميلون لمسالمة العجم، فامتنع عن إجابة طلبهم، ولما رأى منهم التصميم على قتلهم طوعاً أو كرهاً، تخوفاً من أن يتعدى أذاهم إلى شخصه، سلم لهم بقتل الوزير والأميرال دون المفتي فقبلوا وألقوا جثثهم في البحر، وقاموا بالعصيان على السلطان جهاراً فأعلنوا إسقاطه ونادوا بابن أخيه محمود الأول خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين، فأذعن السلطان أحمد الثالث وتنازل عن الملك بدون معارضة. وكانت مدة حكمه ٢٧ سنة و١١ شهراً (١١) . وتوفي عام ١٧٣٠م.

السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٤م – ١٧٨٩م):

هو ابن السلطان أحمد الثالث، ولد عام ١٧٢٤م، وفي اليوم الثالث من توليه الحكم توجه في موكب حافل إلى جامع أبي أيوب لتقلد سيف السلطان عثمان مؤسس الدولة العثمانية. ولم يوزع على الجنود الإنعامات المعتادة لخلو خزائن الدولة التي استنزفتها الحرب الأخيرة.

زحف الجيش الروسي لمواجهة العثمانيين، فطلب الصدر الأعظم من (رومانزوف) المهادنة وتوقيف القتال، وأرسل إليه مندوبين للاتفاق على عقد الصلح وقبول الشروط التي رفضتها الدولة العثمانية عند اجتماع مؤتمر بوخارست فاجتمع المندوبان العثمانيان مع سفير روسيا في مدينة قينارجه، وبعد مناقشات طويلة قبل الصدر الأعظم المعاهدة التي تم الاتفاق عليها عام ١٧٧٤م وهي مكونة من ٢٨ بنداً أهمها استقلال تتار القرم وبسارابيا وقوبان مع حفظ سيادة الدولة العثمانية فيما يتعلق بالأمور الدينية وتسليم كافة البلاد والأقاليم التي احتلتها روسيا إلى خان القرم.

وأن يكون للمراكب الروسية حرية الملاحة في البحر الأسود والبحر المتوسط وأن تبني روسيا كنيسة بقسم بيرا بالأستانة ويكون لها حق حماية جميع المسيحيين التابعين للمذهب الأرثوذكسي من رعايا الدولة العثمانية.

وأضيف إلى هذه المعاهدة بندان سريان، في أحدهما (أن الدولة العثمانية تدفع إلى روسيا مبلغ خمسة عشر ألف كيبسة بصفة غرامة حربية على ثلاثة أقساط متساوية في أول يناير ١٧٧٥م وسنة ١٧٧٦م وسنة ١٧٧٧م) (١٢) . وفي الثاني أنها تقدم لروسيا المساعدات المقتضية للجلاء عما احتلته من جزائر الروم وسحب دونا نمتها منها وهذا نص معاهدة قينارجة.

عاش السلطان ٦٦ عاماً قضى منها ١٦ عاماً على سرير السلطنة (١٣) .

٤. **فترة التراجع** (١٨٢٨م – ١٩٠٨م) : كان عدد السلاطين في هذه الفترة الذين حكموا الدولة العثمانية أربع سلاطين، تحدثت في هذا الكتاب عن السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦– ١٩٠٩م) وسأتناول في هذه الفترة الحديث عن عبد المجيد الأول وذلك لطول فترة حكمه وبسبب الحوادث السياسية الهامة التي حصلت أثناء حكمه للدولة العثمانية.

السلطان عبد المجيد الأول (١٨٣٩/٧/١م – ١٨٦١/٦/٢٥م):

جلس السلطان عبد المجيد على سدة الحكم ولم يبلغ من العمر إلا ١٨ عاماً حيث ولد عام ١٨٢١م (١٢٣٧هـ) وكان تنصيبه للعرش عام ١٨٣٩م (١٢٥٥هـ) واستلم منصب الصدر الأعظم في بداية حكمه خسرو باشا، الذي لم يستطع أن يستميل إليه كبار رجال الدولة، لذا أقال السلطان الصدر الأعظم وعين بدلاً منه رشيد باشا. ابتدأ رشيد في إجراء التنظيمات العثمانية بقصد رفع المظالم عن الشعب، وألقى منشوراً في حديقة الورد في القصر السلطاني ويُدعى (كولخانة) وقد استمع للمنشور السلطان وشيخ الإسلام والوزراء وسائر العلماء.

تدخلت روسيا في الأمور الداخلية للدولة العثمانية مثل حمايتها للأرثوذكس، ولما لم يوافق السلطان على ذلك شنت روسيا الحرب ضد السلطان. فزحف الجيش الروسي وكان تعداده ٩٠٠,٠٠٠ جندي نحو سهل الطونة لذا وقفت بريطانيا وفرنسا وسردينيا مع السلطان العثماني ضد الروس وأوقفوا الروس عند حدودهم. ثم عقدت معاهدة باريس تم بموجبها الصلح عام ١٨٥٦م وتفرغ السلطان لسن التنظيمات المتعلقة بالتجارة والزراعة، وأسس المكاتب الرشيدية واعتنى في نشر المعارف والعلوم وتعميم العدالة والأمن [١٤] .

لقد وقعت الدولة العثمانية معاهدة عام ١٨٤٠م في لندن بخصوص مضيق البوسفور والمسألة المصرية وإيقاف محمد علي عن تعدياته على الدولة كان قد وقعها الإنجليز وبروسيا والنمسا والروس. والقصد منها مساعدة الدول الكبرى للسلطان ضد محمد علي، وذلك لإبقاء دولة الرجل المريض (الدولة العثمانية) ضعيفة في أوروبا وأن لا يحل محلها رجل قوي مثل محمد علي يهدد الأوروبيين فيما بعد.

وضع الأوروبيون شروطاً على محمد علي والسلطان للتوقيع على معاهدة لندن، **ومما جاء في بنودها ما يأتي**:

- «أولاً: أن يلتزم محمد علي باشا بإرجاع ما فتحه للدولة العلية ويحتفظ لنفسه بالجزء الجنوبي من الشام مع عدم دخول مدينة عكا في هذا القسم.
- ثانياً: أن يكون لإنكلترا الحق بالاتفاق مع النمسا في محاصرة أرض الشام ومساعدة كل من أراد من سكان بلاد الشام خلع طاعة المصريين، والرجوع إلى الدولة العلية وبعبارة أخرى تحريضهم على العصيان؛ لأشغال الجيوش المصرية في الداخل كي لا تقوى على مقاومة المراكب النمساوية والإنكليزية.
- ثالثاً: أن يكون لمراكب روسيا والنمسا وانكلترا معاً حق الدخول في البوسفور لحماية القسطنطينية لو تقدمت الجيوش المصرية نحوها.
- رابعاً: أن لا يكون لأحد الحق في الدخول إلى مياه البوسفور ما دامت القسطنطينية غير مهددة.
- خامساً: يجب على الدول التي وقع مندوبوها على هذا الاتفاق أن تصادق عليه في مدة لا تزيد عن شهرين بحيث يكون التصديق في مدينة لوندرة (لندن) (١٥) ».

اتبع السلطان عبد المجيد خطة والده السلطان محمود في الإصلاحات الداخلية، حتى تجاري الدولة العثمانية باقي الدول في التمدن والعمران، فأصدر عقب توليه منصب الخلافة بقليل أمراً قرئ علناً في جمهور الوزراء والأعيان في ١٣/١١/١٨٣٩م، توفي السلطان عبد المجيد وعمره أربعون سنة عام ١٨٦١م ودفن في قبر أُعد له في حياته بجوار جامع السلطان سليم، وكانت مدة حكمه ٢٢ سنة ونصف، وهو الذي أنشأ النيشان المجيدي (١٦) .

٥. **فترة التفكك** (**١٩٠٨م – ١٩٢٣م**) : بلغ عدد السلاطين في هذه الفترة ثلاثة سلاطين فقط حكموا الدولة العثمانية، ولا بد من الشرح عن السلطان الذي حدثت في زمنه الحرب العالمية الأولى وأدت إلى انهيار الدولة العثمانية.

السلطان محمد رشاد "محمد الخامس" (١٩٠٩م – ١٩١٨م):

ولد السلطان محمد رشاد عام ١٨٤٤م وكان وصوله للحكم بعد السلطان عبد الحميد الثاني، حيث اجتمع المجلس العمومي (الأعيان والمبعوثين) اجتماعاً سرياً وخلع عبد الحميد بموجب فتوى من شيخ الإسلام. حيث قرئت الفتوى الشرعية الموقع عليها بتوقيع شيخ الإسلام محمد ضياء الدين، فأسقط السلطان عبد الحميد من الخلافة الإسلامية والسلطنة العثمانية، وتم خلع عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٩م.

عندما اعتلى السلطان محمد الخامس العرش كان عمره آنذاك ٦٥ عاماً، وقد قُلد السلطان سيف عثمان في جامع أيوب الأنصاري في القرن الذهبي.

كان محمد الخامس السلطان التركي الأول الذي احتفل بالبرلمان، فدعا النواب إلى حفلة شيقة في بهو العرش، وافتتحت الحفلة بعشر من القرآن الكريم ثم مشى العلماء وعلى رأسهم شيخ الإسلام، وتبعهم وزير الأوقاف بلباسه الأخضر (١٧) وخلفه موظفو الأوقاف بألبسة تتفاوت ألوانها حسب درجات الأشخاص بلباسهم.

وجاء بطاركة الطوائف المسيحية فاستقبلهم السلطان ببشاشة وترحاب، وألقى بطريرك الأرثوذكس بصفته رئيس جميع الأوقاف المسيحية كلمة موجزة، وفتح السلطان أبواب جامع أيوب الأنصاري لأول مرة في وجه المسيحيين الذين كان محرماً عليهم دخول المسجد المقدس.

ومنذ ارتقاء السلطان محمد الخامس سدة الحكم تسلم حزب الاتحاد والترقي إدارة الحكومة العثمانية (١٨) . وأصبح أنور باشا قائد الأمة بصفته القائد الأعلى للجيوش التركية وكان رجلاً ذا كفاءة ونزعة ألمانية نظراً للدراسة العسكرية التي تلقاها في برلين فأثرت عليه، وأخذ النفوذ الألماني يمتد ويقوى في العاصمة التركية إلى أن أصبحت السفارة الألمانية أقوى سفارة أوروبية في تركيا. وطلب أنور باشا من السلطان أن يستدعي أحد المفتشين العسكريين من ألمانيا ليدرب الجيش التركي وأسند بعد ذلك قيادة الجيش الأول في العاصمة إلى الجنرال (فون سندرس الألماني) ولم يرق هذا العمل لروسيا فاحتجت ولكن احتجاجها لم يثمر الثمرة المرجوة.

كان أنور باشا قد وزع خلال ستة أشهر بقيمة مليون ونصف المليون جنيه هدايا على كبار الضباط والموظفين تعزيزاً لنفوذه.

أصبح دخول تركيا في الحرب أمراً مفروغاً منه لعلاقتها القوية مع الألمان، وفي الشهر الأول من الحرب التجأت المدرعة (غوين) والنسافة المدمرة (برسلو) الألمانيتان إلى مضيق الدردنيل هرباً من الأسطول الإنجليزي المسيطر على البحر المتوسط، وكانتا قد رفعتا الأعلام التركية.

ومما ساعد على تقوية الخلاف الإنجليزي التركي وضع الأميرالية البحرية الإنجليزية يدها على المدرعتين العثمانيتين. وقد ضمت البحرية الإنجليزية الباخرتين الحربيتين (السلطان عثمان الأول والرشادية) إلى الأسطول الإنجليزي تحت اسمي أجنكورب وايرن [١٩] .

كانت كل من انكلترا وفرنسا وروسيا تفاوض تركيا للبقاء على الحياد على أن لا تمس حدودها في نهاية الحرب، على أن تطرد تركيا الطرادين الألمانيين أو تضع يدها عليهما، فلم تطرد تركيا الطرادين الألمانيين من مياهها لأنها ابتاعتهما من ألمانيا، وهكذا بقيا في الدردنيل حتى دخلا البحر الأسود بإيعاز من أنور باشا وهاجما البواخر الروسية.

أعلنت روسيا الحرب على تركيا في ٣ تشرين الثاني عام ١٩١٤م، وبعد الحرب بيومين جاء دور فرنسا وإنجلترا فأعلنتا الحرب رسمياً، وأعلنت تركيا الحرب على الحلفاء في ٢٣ تشرين الثاني عام ١٩١٤م. وضمت إنكلترا نهائياً مصر وقبرص إلى أملاكها وكان الحلفاء قد وقعوا اتفاقية سرية عام ١٩١٥م بإعطاء العاصمة التركية إلى روسيا بعد إحراز النصر الأخير. وفي الوقت الذي كانت روسيا تفكر بالحصول على العاصمة التركية كانت فرنسا تفكر بالألزاس واللورين بينما انجلترا كانت تفكر بقتل التجارة الألمانية.

هوامش الفصل التاسع:

١. المعرفة– سلاطين الدولة العثمانية www. marefa. org/index. php

٢. يوسف آصاف: تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي. دار البصائر، ط ٣ دمشق، ١٩٨٥م. ص ٨٦.

٣. محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية. دار الجيل، بيروت، ١٩٧٧م، ص ١١٧.

٤. يوسف أصاف: مصدر سابق. ص ٩٨.

٥. يوسف آصاف: المصدر نفسه. ص ١٠٤.

٦. محمد فريد بك المحامي: مصدر سابق. ص ١٢٤.

٧. محمد فريد بك المحامي: المصدر نفسه. ص ١٢٧.

٨. محمد فريد بك المحامي: المصدر نفسه. ص ١٤٢.

٩. محمد فريد بك المحامي: المصدر نفسه. ص ١٤٣– ١٤٤.

١٠. يوسف آصاف: مصدر سابق. ص ١٢٣.

١١. محمد فريد بك المحامي. مصدر سابق. ص ١٤٧.

١٢. محمد فريد بك المحامي: المصدر نفسه، ص ١٦٠.

١٣. يوسف آصاف: مصدر سابق، ص ١٣٨.

١٤. يوسف آصاف: المصدر نفسه، ص ١٤٩.

١٥. محمد فريد بك، مصدر سابق، ص ٢٤١.

١٦.محمد فريد بك المحامي: المصدر نفسه، ص ٢٨٧.

١٧.ماري ملز باتريك: سلاطين بني عثمان. مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦م، ص ١٤٦.

١٨.محمد فريد بك المحامي: مصدر سابق. ص ٤١٤.

١٩.ماري ملز باتريك: مصدر سابق. ص ١٦٢.

الفصل العاشر

الدولة العثمانية بعد السلطان عبد الحميد الثاني

الفصل العاشر

الدولة العثمانية بعد السلطان عبد الحميد الثاني

١. الاتحاد والترقي.

٢. الحرب العالمية الأولى.

٣. نهاية الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة.

جمعية الاتحاد والترقي:

ظهرت في أواخر حكم السلطان عبد الحميد جمعية تركيا الفتاة التي انتظم أفرادها بعد ذلك في جمعية الاتحاد والترقي، وكانت تسعى للإطاحة بحكم السلطان عبد الحميد، لقد اضطر السلطان تحت ضغط ثورة عسكرية نظمتها جمعية الاتحاد والترقي إلى إعلان دستور مدحت باشا من جديد في ١٩٠٨/٧/٢٤م. وحصل أول انقسام بين العرب والعثمانيين في الانتخابات التي جرت للبرلمان الجديد بعد إعلان الدستور العثماني، إذ تحيز أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ضد العرب [١] . وازداد هذا التحيز بعد زحف محمود شوكت باشا على العاصمة العثمانية من سالونيك في ١٩٠٩/٤/٢٤م وخلع عبد الحميد.

لقد تأسست حركة الاتحاد والترقي عام ١٨٩٥م وكان لها شأن كبير في حركة تركيا الفتاة المعارضة لحكم السلطان عبد الحميد الثاني، وكان من أهداف تركيا الفتاة منح الحرية لجميع سكان الدولة العثمانية ورعاياها على اختلاف جنسياتهم وكان شعارها «الحرية والعدالة والمساواة».

لقد انتشرت فروع لجمعية الاتحاد والترقي في أنحاء الدولة، وكان هدفها أيضاً إبقاء اللغة التركية لغة رسمية في جميع أرجاء الدولة العثمانية، لقد بدأ

تنظيم وتشكيل جمعية الاتحاد والترقي سراً منذ عام ١٨٨٧م أطلق عليه مؤسسوه الخمسة اسم جمعية الاتحاد والترقي، وكان من بين الخمسة ألباني وشركسي وكرديان. واستهدف التنظيم التخلص من السلطان عبد الحميد وتنصيب أحد أخويه مراد أو محمد رشاد، ولكن رئيس المخابرات فهيم باشا كان لهم بالمرصاد وفشلت المحاولة الانقلابية عام ١٨٩٥ (٢).

مشكلات واجهها الاتحاديون:

لقد واجه الاتحاديون مشكلات ضخمة في بداية حكمهم قبيل الحرب العالمية الأولى، ومن أهم هذه المشكلات الحرب الطرابلسية الإيطالية، وحرب البلقان. أما بالنسبة للحرب الطرابلسية الإيطالية، فقد كانت إيطاليا تطمح بالسيطرة على طرابلس في ليبيا خاصة بعد أن احتلت فرنسا تونس عام ١٨٨١م، عملت إيطاليا على تهيئة الوضع داخل ليبيا فعملت على شراء الأراضي وإنشاء المشاريع الزراعية وفتح المدارس الإيطالية في ليبيا وغير ذلك. وفي عام ١٩١٠م قدمت إيطاليا إنذاراً إلى الدولة العثمانية اتهمتها بعرقلة المساعي لتمدين سكان ليبيا، وأعلنت الدولة العثمانية رفض ذلك الإنذار، فما كان من إيطاليا إلا أن حاصرت سواحل طرابلس وبرقة لمنع وصول المساعدات إلى ليبيا. وبدأ الأسطول الإيطالي بقصف السواحل وإنزال القوات الإيطالية التي احتلت طرابلس وبنغازي وغيرها، وأعلنت إيطاليا ضم هذا الجزء من شمالي إفريقيا إليها، وتقدم العثمانيون بقيادة عزيز المصري، والمتطوعون بقيادة أنور باشا، وانتصروا على الإيطاليين في بنغازي.

هددت إيطاليا باحتلال استنبول واحتلت بعض الجزر في البحر الأبيض المتوسط وضربت ميناء بيروت فاضطرت الدولة العثمانية عقد معاهدة أوشي مع إيطاليا عام ١٩١١م (٣)، وانسحبت من ليبيا وتركت المجاهدين وحدهم في الميدان، ولم تعترف الدولة العثمانية بالاحتلال الإيطالي، وإنما تعهدت بسحب موظفيها وجنودها، وصدر قرار سلطاني بمنح ليبيا الاستقلال الذاتي، إلا أن المعاهدة لم تطبق لأن تركيا كانت مع الألمان، بينما كانت إيطاليا مع الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، فكانتا نقيضين متخاصمين.

أما المشكلة الثانية التي واجهت الدولة العثمانية فكانت حرب البلقان:

كانت البوسنة والهرسك تتبع الدولة العثمانية، لكن النمسا ضمت هذين الإقليمين إليها، وهذا العمل أدى إلى إغضاب الصرب وروسيا، ثم عملت روسيا على تنظيم اتحاد بين دول البلقان انتقاماً من النمسا، ونتيجة لتوتر الموقف في البلقان أعلنت إمارة الجبل الأسود الحرب على الدولة العثمانية عام ١٩١٢م وتلتها بلغاريا والصرب واليونان، وأنزلت الدول المتحالفة إلى ميدان القتال ٧١٥ ألف مقاتل مقابل ٣٢٠ ألف جندي تركي ولم يمض شهر على بدء القتال حتى أشرفت القوات البلغارية على مداخل استنبول، كما احتل اليونانيون ميناء سلانيك، وتقدم الصربيون في جميع الجهات، واستعملوا الطائرات لأول مرة في هذه الحرب، وقصفوا مدينة أدرنة وفقدت الدولة العثمانية معظم أراضيها في أوروبا، وبعد وقف القتال جرى الاتفاق على استقلال ألبانيا وقسمت الأراضي الباقية بين أعضاء التحالف البلقاني، وقد وقع اتفاق الصلح في لندن في أيار عام ١٩١٣م.

وجرى نزاع بين دول البلقان على غنيمة الأراضي التي انتزعوها من الدولة العثمانية. وهذا التفكك أدى إلى انضمام الدولة العثمانية إلى اليونان والصرب والجبل الأسود ضد بلغاريا، واستطاع أنور باشا أن يحرر أدرنة من الاحتلال البلغاري وبذلك سيطر على الحكم في الدولة العثمانية مع طلعت باشا وجمال باشا، وأخيراً وقعت معاهدة بين الدولة العثمانية وبلغاريا عام ١٩١٣م، واستعاد الأتراك إقليم تراقيا بما في ذلك أدرنة، وعرفت هذه الحرب باسم حرب البلقان الثانية [٤].

ظهرت جمعيات سرية عربية تدعو إلى استقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية، ومن هذه الجمعيات الجمعية القحطانية، وجمعية العربية الفتاة، وحزب اللامركزية الإدارية العثماني، وجمعية العهد، وجمعية الإصلاح في بيروت.

إن الديوان الحربي العثماني الذي أقامه جمال باشا في عاليه في لبنان استطاع كشف الجمعيات السرية العربية كلها وأسماء المشتركين فيها.

لقد عقد الطلاب العرب مؤتمراً لهم في باريس عام ١٩١٣م للنظر في أوضاع العرب في الدولة العثمانية. ورأى أعضاء المؤتمر أنه إذا لم تنفذ القرارات التي صادق

عليها، فالأعضاء المنتخبون في لجان الإصلاح العربية يمتنعون عن قبول أي منصب كان في الحكومة العثمانية.

لقد اتخذ المؤتمر في باريس قرارات هامة منها ضرورة الاعتراف بحقوق العرب السياسية الكاملة، وأكد المؤتمر على وحدة الدولة العثمانية وشراكة العرب الأول في باريس، وفتحت باب المفاوضات بعد إرسالها سكرتير جمعية الاتحاد والترقي مدحت شكري بك إلى باريس، ووقع اتفاقاً مع عبد الحميد الزهراوي (نائب حماه في مجلس المبعوثان) ثم صادق السلطان محمد رشاد على الاتفاق. وصدر مرسوم سلطاني بذلك لكن الاتحاديين لم يكونوا مخلصين في النوايا والأفعال لأنهم عينوا ضباطاً أتراك في الولايات العربية وساروا في سياسة التتريك، وترسيخ نفوذ الاتحاديين في الأراضي العربية بعد تشتيت الضباط العرب وتوزيعهم على الحاميات البعيدة. كما أصدر السلطان فرماناً في ١٩١٣/٨/٨م نقض فيه الشروط التي وعدت بها الدولة العثمانية الأعضاء العرب في مؤتمر باريس [٥].

الحرب العالمية الأولى:

لقد أدت مشاكل البلقان إلى تفجير الحرب العالمية الأولى، فقد قتل أحد أعضاء المنظمات السرية الصربية ولي عهد النمسا في بلدة سراييفو، وقدمت النمسا إنذاراً إلى الصرب والتي قبلت معظم بنود الإنذار، لكن النمسا تود القضاء على الصرب، ولهذا أعلنت عليها الحرب، وهذا الحادث أجبر الدول العظمى على الاشتراك في الحرب، فقامت روسيا وفرنسا بمساعدة الصرب، بينما ساعدت ألمانيا حليفتها النمسا، كما أن بريطانيا دخلت الحرب إلى جانب روسيا وفرنسا، بينما أعلنت الدولة العثمانية واليونان ورومانيا وبلغاريا حيادها في الحرب. إن تحالف فرنسا وبريطانيا مع روسيا في الحرب العالمية الأولى وقيام الحركة الطورانية أدى ذلك إلى إثارة حماس الأتراك ضد روسيا وفرصة لانضمام الدولة العثمانية إلى ألمانيا والنمسا، وتم ذلك بالفعل.

أعلن أنور باشا إلغاء الامتيازات الأجنبية في ١٩١٤/٩/٧م، لذا أعلنت دول الوفاق الحرب على السلطان العثماني، وكان أن قررت الدولة العثمانية الاستيلاء على

دور البريد الأجنبية وخضوع الأجانب للقوانين العثمانية ومحاكمتهم أمام المحاكم العثمانية، كما قدمت الدولة العثمانية معونة مادية وعسكرية للعراق.

وفي ١٩١٤/١٠/٢٩م قصف الأسطول التركي الموانئ الروسية المطلة على البحر الأسود مما أدى إلى إعلان روسيا الحرب على تركيا، وفي ١٩١٤/١١/٥م أعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على الدولة العثمانية، وما لبث الحلفاء الثلاثة أن وضعوا الخطط لاقتسام أملاك الدولة العثمانية في المشرق العربي (بلاد الشام والعراق) وفي أوروبا. وقد استطاعت الدولة العثمانية في بداية الحرب وقف الزحف الروسي على أراضيها، وبدأت الجيوش العثمانية تتحول إلى الهجوم.

لقد قادت جمعية الاتحاد والترقي – كما ذكرنا – حركة عام ١٩٠٩م ضد السلطان عبد الحميد الثاني، كما قامت بانقلاب عام ١٩١٣م، إلا أن أعضاء الجمعية بقوا مترددين في تكوين دولة جديدة، بسبب قلة الاندفاع الجماهيري وسيطرة النفوذ الديني عليهم، وعلى هذا الأساس بذلوا جهودهم لتعميق الشعور بالوطنية والمحافظة على الدولة العثمانية والدفاع عنها من التهديدات والأخطار الخارجية.

عانت الدولة العثمانية كثيراً في هذه الحقبة الزمنية، وتعرضت قبل هذه الحقبة للغزو الإيطالي وذلك عام ١٩١١م، وظهرت عصبة الدول البلقانية ومعارضتها للدولة العثمانية ونشطت الأحلاف الغربية ضدها وعلى رأسها روسيا القيصرية (٦) .

لقد تشكلت في تركيا جمعية الحرية والائتلاف في ١٩١١/١١/٨م وكانت هذه الجمعية تختلف أيديولوجياً عن جمعية الاتحاد والترقي حيث كانت تؤمن باللامركزية. واشتد الصراع بين الاتحاديين والائتلافيين في مجلس المبعوثان العثماني، ثم تألفت وزارة ائتلافية أعلنت أنها ستطبق مبدأ اللامركزية في الحكم، تلك الوزارة التي جاء بها ضباط الإنقاذ والتي أطاح بها الاتحاديون إثر انقلاب عسكري ثانٍ في ١٩١٣/١/٢٣م بقيادة أنور باشا، وبقي الاتحاديون يحكمون حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ضمن مبادئهم الثلاثة (المركزية والطورانية والتتريك) (٧) .

لقد حاولت جمعية الاتحاد والترقي اجتذاب الأشخاص الذين لهم ماضٍ مجيد في القضايا الوطنية على الرغم من المراقبة الشديدة المفروضة على هذه الجمعية، وانضم إليها بعض المستخدمين في الحكومة، وفي الحقيقة ركزت الجمعية جهودها

على استقطاب الجيش بجانبها، وكانت النتيجة أن انضم إليها عدد كبير من الضباط، وأرسل السلطان العثماني برقية إلى المفتش العام (في سالونيك) حلمي باشا يسأله فيها عن قوة الاتحاد والترقي وعن الوضع، فكان الجواب «مولاي جلالة السلطان، أود أن أعلمكم أن كل فرد هناك سواي عضو في جمعية الاتحاد والترقي» (٨) .

لقد أبعدت جمعية الاتحاد الضباط العرب، وعينت بدلاً منهم الولاة الأتراك العسكريين في قيادة الولايات العربية، وكان منهم جمال باشا السفاح الذي أعدم عدداً من العرب في دمشق وبيروت.

لقد كانت سياسة الاتحاديين تتركز على ما يأتي:

١. تتريك جميع القوميات وصهرها في بوتقة الطورانية.

٢. فرض اللغة التركية في المعاملات الرسمية والمدارس.

٣. احتكار الوظائف لصالح الأتراك.

٤. مراقبة الصحافة وتشجيعها على تمجيد النعرة الطورانية.

لقد أدى تسلط الاتحاديين ومحاولة تتريك القوميات المختلفة إلى ضعف الوحدة العثمانية، فاستغلت النمسا تذمر غير التركية فضمت إليها البوسنة والهرسك، كما احتلت إيطاليا، وليبيا، وكريت، وانقضت دول البلقان وهاجمت الدولة العثمانية وانتزعت منها الأراضي الواسعة.

لقد توثقت العلاقات العثمانية الألمانية ما بين ١٨٩٩م – ١٩٠٢م بعد أن حصلت ألمانيا على حق تمديد خط حديدي يربط الأناضول ببغداد وقد وضع الحجر الأساسي للخط عام ١٩١٢م لكن الحرب العالمية الأولى حالت دون إتمامه (٩) وكان من المتوخى أن ينتهي عند الخليج العربي، وعندما أدركت بريطانيا نوايا ألمانيا بادرت إلى عقد معاهدة حماية مع الكويت نصت على ألا يتنازل حاكم الكويت الشيخ مبارك في ذلك الوقت عن أي جزء من أراضيه أو يؤجره أو يرهنه وألا يدخل في علاقات خارجية مع أي دولة إلا بموافقة بريطانيا.

كما أن تدريب الجيش العثماني قد عهد به إلى ضباط من الألمان الذين تولى بعضهم مناصب هامة في الجيش العثماني.

ورأى رجال الاتحاد والترقي، أن من مصلحة الدولة العثمانية أن توثق علاقاتها مع ألمانيا لمواجهة الأطماع الروسية والفرنسية والبريطانية، فيما تبقى من أملاك الدولة العثمانية، ولهذا عقدوا مع الألمان معاهدة في آب عام ١٩١٤م تعهدوا بمقتضاها بمساعدة ألمانيا ضد روسيا.

كان كتشنر المعتمد البريطاني في القاهرة يرقب بحذر النفوذ الألماني المتزايد في الدولة العثمانية، والذي تمثل في خط حديد الأناضول – بغداد، مما يهدد مركز بريطانيا في الخليج العربي والهند. كما أن وقوف تركيا في حرب مقبلة ضد بريطانيا من شأنه تهديد مواصلاتها في قناة السويس ومضيق باب المندب وعدن نظراً لوجود حامية تركية في اليمن. كما خشيت بريطانيا من إعلان السلطان العثماني الجهاد ضدها لأن هذا سيثير إضافة إلى العرب الشعوب الإسلامية بما في ذلك الهند. ولهذا فكرت بريطانيا بالاستيلاء على المنطقة الممتدة بين حيفا وخليج العقبة لحماية خطوط مواصلاتها وبتشجيع العرب على الانفصال عن العثمانيين (١٠).

لقد ازداد التنافس الاستعماري في الحصول على أراضي الدولة العثمانية بعد أن ضعفت، وسماها الروس دولة الرجل المريض، وهذا التنافس أدى إلى اتفاق الدول الأوروبية في مؤتمر الجزيرة الخضراء عام ١٩٠٦م بإطلاق يد فرنسا في المغرب، وفي عام ١٩٠٤م كان الاتفاق الودي بين فرنسا وبريطانيا بأن تعترف فرنسا بمصالح بريطانيا في مصر. كما شجعت الدول الاستعمارية رعايا الدولة العثمانية على التمرد عليها. ففي عام ١٩٠٨م أعلنت بلغاريا استقلالها عن الدولة العثمانية بدعم من روسيا واحتلت إيطاليا ليبيا بموافقة دول الحلفاء عام ١٩١١م.

أدركت الدولة العثمانية أهداف الدول الأوروبية في تفكيك أراضيها واقتلاعها فاتجهت إلى ألمانيا لدعمها وتدريب قواتها المسلحة وإقامة المشاريع الاقتصادية، لاعتقادها أن أطماع الألمان أقل ضرراً من روسيا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا.

لقد كانت الأطماع الأوروبية في أراضي الدولة العثمانية هي النقطة الرئيسة التي شجعت تركيا على الدخول في الحرب العالمية الأولى بمساندة الألمان، كي تساعد على تحطيم روسيا التي كان هدفها الرئيسي الدخول عبر المضائق التركية إلى البحر الأبيض المتوسط.

لقد نجحت السياسة الألمانية في ضم الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا وحلفائها. وكانت رغبة ألمانيا استغلال العراق والتغلغل في إيران تجارياً وسياسياً، وتوجيه ضربة قاتلة إلى الوجود البريطاني في مصر وتهديد السيطرة البريطانية على الهند (١١) .

استعمل السلطان لقب خليفة كي يعلن الجهاد ضد دول الوفاق، وطالب المسلمين في العالم وخاصة مسلمي روسيا وبريطانيا بالاشتراك في الحرب ضد «الكفار». لقد أرغمت الحرب الأتراك على القتال في ست جبهات. وكانت الدولة العثمانية تركز على الدفاع عن مناطق الدردنيل والقوقاز وعدن وقناة السويس، وهذه كلها مضائق تتحكم في البحار. وأحرزت الجيوش العثمانية انتصارات عديدة بفعل نظام التحديث الذي نفذه حكام الدولة العثمانية (١٢) . وكان أكبر نصر أحرزه الأتراك العثمانيون هو صدهم لحملة الدردنيل، مما اضطر الحلفاء إلى الانسحاب بعد أن كلفتهم الحملة حوالي ١٢٠ ألف قتيل وجريح.

كان أحمد جمال باشا قائد الجيش التركي الرابع في دمشق، وقد اختير ليقود الحملة على مصر لتحريرها من الإنجليز، وكان يخالف الداعين إلى الوحدة الطورانية، ويجاهر بمزايا القومية العثمانية.

أعلنت بريطانيا أن مصر تحت رعايتها، وأعلن الجنرال ماكسويل انتهاء سيادة تركيا على مصر، وخلع الخديوي عباس الثاني. وبدأ جمال باشا هجومه على قناة السويس ليلاً في ٢/٢/١٩١٥م، ولكن هجومه فشل ورجع عائداً إلى دمشق، **وكان قد وزع بياناً على جيشه أثناء الهجوم على مصر جاء فيه**:

«أيها الجنود، إن الصحاري القاحلة لتمتد من ورائكم، والعدو الجبان يقف أمامكم، ومصر الخصبة خلف هذا العدو، وهي مشتاقة إلى الترحيب بكم فإن ترددتم فلن يكون نصيبكم إلا الموت، فإلى الأمام فإن الجنة أمامكم» (١٣) .

كانت دول الحلفاء قد قامت بعقد اتفاقيات سرية خلال الحرب العالمية الأولى، بهدف الانتصار على دول تركيا وألمانيا وغيرها، وبهدف تقسيم أملاك الدولة العثمانية بعد الهزيمة، **ومن هذه الاتفاقيات السرية**:

١. **الاتفاق مع الشريف حسين بإعلانه الثورة ضد الأتراك من الحجاز**: لقد خططت بريطانيا أن تضرب تركيا من الداخل وذلك باستمالة أحد زعماء العرب،

ووقع اختيارهم على الشريف حسين شريف مكة المكرمة، وقد تبادل الشريف حسين مع المعتمد البريطاني في القاهرة رسائل سرية عن ضرورة دخول العرب الحرب إلى جانب الإنجليز وطرد الأتراك من البلاد العربية، وعرفت هذه بمراسلات «الحسين مكماهون». ووعدت بريطانيا الشريف حسين بدولة عربية إذا ما أعلن الثورة ضد الأتراك.

استمرت هذه المراسلات سنة كاملة ثم أعلن الشريف حسين الثورة على الأتراك في العاشر من حزيران عام ١٩١٦م، وكان يقود الجيش العربي فيصل بن الحسين يساعده الجنرال الانجليزي لورانس [١٤] ، ونجحا في طرد الأتراك من الأردن وفلسطين وسوريا حتى وصلا حلب، أما الجهة الغربية فقد شن الجنرال اللنبي هجوماً أدى إلى احتلال القدس في ١٩١٧/١٢/٩م وكانت قد سقطت قبل ذلك مدن غزة والخليل ويافا وبيت لحم، وفي نهاية سنة ١٩١٧م كانت القوات البريطانية قد احتلت كل ذلك الجزء من سوريا الذي يمثل ما يسمى «سنجق القدس» [١٥] .

وكبدت ثورة العرب الأتراك خسائر لا طاقة لهم بها، فقد فقدوا حتى نهاية آذار سنة ١٩١٨م ٤٨٠٠ قتيلاً و١٦٠٠ جريحاً و ٨٠٠٠ أسيراً في المعارك التي دارت بينهم وبين العرب فحسب، وهذه الأرقام لا تشمل أعداء العرب الذين فروا من صفوف الأتراك، وأضف إلى ذلك حامية لهم في المدينة المنورة عددها ١٢،٠٠٠ وأخرى في معان عددها ٧٠٠٠ ونحو ٣٠٠٠ في مراكز مختلفة على الخط الحجازي. وكلها قد عطلها العرب وشلوا حركتها أي أن عدد القتلى والأسرى والمعطلين من الأتراك يبلغ في مجموعه ٣٥،٠٠٠ رجلاً [١٦] .

٢. **اتفاقية الأستانة ١٩١٥/٣/١٨م**: وقد وقعت هذه الاتفاقية السرية بين روسيا وفرنسا وبريطانيا، حصلت روسيا بموجب الاتفاقية على الأستانة والشاطئ الغربي للبوسفور وبحر مرمرة والدردنيل وكل ما تبقى للدولة العثمانية من أرض في أوروبا، واتفق على أن تكون الأستانة ميناءً حراً لدول الوفاق بحيث تسمح روسيا بحرية الملاحة في المضائق، ووافقت روسيا بدورها على مناطق النفوذ البريطاني والفرنسي في الأناضول، كما تم الاتفاق على فصل الأراضي الإسلامية المقدسة في الحجاز وباقي شبه الجزيرة العربية ووضعها تحت حكم عربي مستقل [١٧] . وذلك بعد هزيمة الدولة العثمانية.

٣. **معاهدة لندن ١٩١٥/٤/٢٦م**: وقد تم عقد هذه المعاهدة السرية بين دول الوفاق وإيطاليا التي وعدت بكامل السيادة على جزر الدوديكانيز وليبيا والحصول على جزء من ساحل الأناضول الواقع على البحر المتوسط (أضاليا) ؛ وذلك في حالة تقسيم أملاك الدولة العثمانية في آسيا بعد الحرب [١٨] .

٤. **اتفاقية سايكس بيكو في ١٩١٦/٥/١٦م**: عقدت هذه الاتفاقية بين فرنسا وبريطانيا، وكانت اتفاقية سرية، ووقعها عن الجانب الفرنسي جورج بيكو، وعن الجانب الإنكليزي سير مارك سايكس؛ وذلك لتحديد مناطق نفوذ كل من بريطانيا وفرنسا في ولايات الشام العثمانية.

وتتضمن الاتفاقية اثني عشر بنداً مع الملحقات والخرائط، **وقد تم الاتفاق بين الحكومتين البريطانية والفرنسية على ما يأتي**:

"فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان أن تعترفا وتحميا دولة عربية مستقلة أو حلفاً اتحادياً لدول عربية تحت رئاسة رئيس عربي في المنطقتين (أ) (داخلية سوريا) و (ب) (داخلية العراق) المبينتين في الخريطة الملحقة بهذا ويكون لفرنسا في منطقة (أ) وبريطانيا العظمى في منقطة (ب) حق الأولوية في المشروعات والقروض المحلية، وتنفرد فرنسا في منطقة (أ) وبريطانيا العظمى في منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب بناءً على طلب الحكومة العربية أو الحلف الاتحادي لدول الحكومات العربية" [١٩] .

وهناك بنود أخرى في الاتفاقية يمكن تلخيصها بما يأتي:

«تنشأ إدارة دولة في المنقطة السمراء (فلسطين) يعين شكلها بعد استشارة روسيا وبالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلي شريف مكة» [٢٠] .

وتنال بريطانيا ميناء حيفا وميناء عكا، وتكون الاسكندرون ميناء حراً لتجارة الامبراطورية البريطانية، وتكون حيفا ميناءً حراً لتجارة فرنسا ومستعمراتها.

وتبقى تعريفة الجمارك التركية نافذة عشرين سنة في المنطقتين الزرقاء والحمراء والمنطقتين (أ) و (ب) [٢١] .

٥. **اتفاقية سان جان دي موريين في ١٩١٧/٤/١٧م**: عقدت هذه الاتفاقية بين فرنسا

وبريطانيا وإيطاليا، واستهدفت تصفية الخلافات الفرنسية الإيطالية، ولهذا قررت منح فرنسا منطقة أضنة على أن تضع إيطاليا يدها على ما تبقى من جنوبي الأناضول بما في ذلك ولاية أزمير إلى ولاية قونيا ومتصرفيات أضاليا وغربي الأناضول (٢٢) .

٦. **وعد بلفور في ١٩١٧/١١/٢م**: هناك عدة أسباب دعت الحكومة البريطانية إلى إصدار وعد بلفور، أهمها رغبة بريطانيا في أن يكون لها قاعدة ثابتة في الشرق الأوسط للحفاظ على مصالحها في المنطقة، وتأمين خطوط مواصلاتها إلى الشرق الأقصى وخاصة إلى الهند، بالإضافة إلى تأمين تدفق النفط من منطقة الخليج العربي، كما أن الإنكليز كانت رغبتهم تجنيد اليهود الأمريكيين لدعم جهود بريطانيا لإقناع الولايات المتحدة بالدخول في الحرب إلى جانبها، **وقد أصدرت الحكومة البريطانية وعد بلفور وهذا نصه:**

«إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أن يفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يغير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى» (٢٣) .

لم تكن فلسطين تابعة لبريطانيا أثناء إصدار وعد بلفور، ولكن كانت من مناطق الدولة العثمانية، كما أن الوعد لم يذكر كلمة عرب بل ذكر الطوائف غير اليهودية علماً بأن نسبة العرب في فلسطين ٩٣٪ بينما نسبة اليهود ٧٪ فقط.

وهذا يدل على بطلان وعد بلفور.

٧. **التصريح الإنجليزي الفرنسي في ١٩١٨/١١/٧م**: لقد صدر هذا التصريح قبل الهدنة ببضعة أيام، وذلك لأن العرب وصلت أسماعهم عن نوايا فرنسا وبريطانيا بتقسيم المناطق العربية التي ستنسلخ عن الدولة العثمانية. لذا اجتاحت البلاد العربية موجة من الشك والتوجس مما تضمره الحكومتان المتحالفتان من دوافع ونوايا، فاحتج الأمير فيصل بن الشريف حسين إلى اللنبي وأعلن أنه لن يستطيع كبح جماح القوات العربية إلا إذا صدر على الفور تحديد رسمي واضح لنوايا الحلفاء، وبدا أن الشعور المكبوت قد يؤدي إلى انفجار، **لذا سارعت الدولتان إلى إصدار التصريح**

الإنجليزي الفرنسي وهذا نصه:

«إن السبب الذي من أجله حاربت فرنسا وإنجلترا في الشرق تلك الحرب التي أهاجتها مطامع الألمان، إنما هو لتحرير الشعوب التي رزحت أجيالاً طوالاً تحت مظالم الترك تحريراً تاماً نهائياً وإقامة حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الأهالي الوطنيين لها اختياراً حراً.. » (٢٤) .

انتهت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨م بانتصار الحلفاء، وفقدت الدولة العثمانية جميع مناطقها في أوروبا أثناء حكم الاتحاديين القصير، حيث استقلت بلغاريا واحتلت النمسا البوسنة والهرسك وضمت اليونان كريت، واحتلت إيطاليا ليبيا وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط، وفقد الأتراك الولايات العربية التي كانت خاضعة للدولة العثمانية في الشرق العربي والآسيوي.

وبدخول الولايات المتحدة الحرب حقق الحلفاء النصر على الألمان وحلفائهم، وفي عام ١٩١٨م توفي السلطان محمد رشاد (محمد الخامس) وتولى العرش بعده أخوه محمد وحيد الدين (محمد السادس) وكان الموقف الحربي عصيباً للغاية بالنسبة لألمانيا والنمسا والمجر وتركيا وبلغاريا.

كان قد تولى الحكم محمد رشاد (محمد الخامس) عام ١٩٠٩م وكان عمره ٦٥ عاماً، خسرت الدولة العثمانية في زمنه أكثر ممتلكاتها الأوروبية ثم انهارت القوات العثمانية على جميع الجبهات خلال الحرب العالمية الأولى، ومات محمد الخامس قبل انتهاء الحرب على الجبهات العثمانية ببضعة أشهر، وسيطر على الدولة في عهده جماعة الاتحاد والترقي وأبرزهم طلعت وأنور وجمال وجاويد (٢٥) .

لقد سارت الشؤون المالية في تركيا أثناء الحرب سيراً هادئاً بسبب مساعدة الألمان، فعندما تشعر الحكومة التركية بالحاجة إلى المال، كانت تطلب من ألمانيا أن تعقد لها قرضاً إلى أمد معلوم.

وقد زار الإمبراطور الألماني غليوم الأستانة للمرة الثالثة في خريف سنة ١٩١٧م عندما كان محمد الخامس حياً، أما القصد من زيارته فكان الإشراف على مد خط برلين بغداد فقط (٢٦) .

أما السلطان محمد وحيد الدين (محمد السادس) فكان قد تولى العرش في

١٩١٨/٧/٤م وكان آخر سلاطين بني عثمان حيث تم إلغاء السلطنة عام ١٩٢٢م.

وفي كانون الثاني عام ١٩١٨م عرض الرئيس الأمريكي ويلسون نقاطه الأربع عشرة كأساس لصلح عادل. وقد ناشدت ألمانيا الرئيس الأمريكي بالتفاوض على أساس النقاط الأربع عشرة.

رأى السلطان الجديد محمد السادس ضرورة إنقاذ ما يمكن إنقاذه بعد أن استقال جميع وزراء جماعة الاتحاد والترقي وفروا إلى ألمانيا، فاختار السلطان الجديد الجنرال أحمد عزت باشا صدراً أعظم فطلب الاتصال ببريطانيا لعقد هدنة.

هدنة مودرس عام ١٩١٨م:

لقد تم عقد معاهدة مودرس في أكتوبر عام ١٩١٨م، ونصت على قيام بريطانيا وحليفاتها باحتلال القلاع والاستحكامات في الدردنيل والبوسفور، وفتح المضائق هذه للملاحة الدولية، وبعد التوقيع على الهدنة استقال الصدر الأعظم أحمد عزت باشا وخلفه أحمد توفيق صديق الإنجليز، ورضخت تركيا لجميع الشروط الإنجليزية والفرنسية والإيطالية [٢٧].

لقد اشترك في الحرب العالمية الأولى حوالي ٦٥ مليون مقاتل، وسقط فيها ما يقرب من ١٠ ملايين قتيل وأكثر من ٢٠ مليون جريح وحوالي ١٣ مليون من المدنيين بسبب الجوع والمرض والإصابات، وقدرت الخسائر المادية بأكثر من ٣٥٠ بليون دولار.

كان قد تقرر عقد مؤتمر للصلح في باريس عام ١٩١٩م لإقرار السلم ووضع التسوية النهائية بين الأطراف المتنازعة.

وفرضت على تركيا معاهدة سيفر في العاشر من آب عام ١٩٢٠م بعد أن احتلت الجيوش البريطانية العراق حتى الموصل، والشام حتى حلب، وسيطرت قوات الحلفاء على المضائق. وتم وضع نظام خاص بالملاحة التجارية والحربية والطيران المدني والعسكري خلال أوقات السلم أو الحرب. وتنازلت تركيا لليونان عن كل ما لديها في أوروبا فيما عدا القسطنطينية ومنطقة صغيرة على طول المضائق وبحر مرمرة بعمق يحول دون إطالة يونانية على المضائق، واستقلت أرمينيا، وتولت اليونان أمر

الإشراف على منطقة أزمير والمناطق المحيطة بها لمدة خمس سنوات يحق للسكان بعدها أن يطالبوا بالانضمام إلى اليونان، وأن تبقى استنبول تحت السيطرة الاسمية للدولة العثمانية باعتبارها دولة أوروبية.

لقد ألهب الاحتلال اليوناني لأزمير مشاعر الأتراك واعتبروه إذلالاً لهم، كان منظر الراية اليونانية وهي تخفق فوق أصقاع من الأناضول، يُعد من جانب كل تركي وطني إهانة لا تغتفر، وكان مما أثار سخط الأتراك التصريحات المتكررة التي كان يعلنها اليونانيون من وقت لأخر، وهي أن احتلالهم لأزمير ومنطقتها ليس احتلالاً مؤقتاً، إنما هو عملية ضم نهائي وسيتسع مداه ليشمل كل الأناضول لتكوين إمبراطورية هيلينية كبرى، برية وبحرية، وتمتد في آسيا وأوروبا وتشمل السواحل الشرقية والغربية لبحر إيجة فضلاً عن منطقة المضائق، وكان اليونانيون يعتمدون في تحقيق هذه المشروعات على تأييد بريطانيا. وكان لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ضالعاً معهم ويشعر بكراهية شديدة نحو الأتراك، ويتمنى لو استطاع اليونانيون سحقهم نهائياً وأن يتموا العمل الذي قام به الجنرال مود في العراق والجنرال اللنبي في فلسطين عندما نجحا في طرد الأتراك وإنهاء الحكم التركي في هذين الإقليمين، ولذلك كانت اليونان الدولة البلقانية المدللة لدى بريطانيا وقفت إلى جانبها تؤيد الوجود العسكري اليوناني في منطقة أزمير (٢٨).

كما تخلت الدولة العثمانية عن حقوقها في ولاياتها العربية، ووُضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، والعراق وفلسطين وشرقي الأردن تحت الانتداب الإنجليزي.

وكان من شروط المعاهدة أن قُلصت سيادة الدولة العثمانية فقد حدد عدد الجيش العثماني بحوالي ٥٠،٠٠٠ جندي يخضعون لإشراف الضباط الأجانب، وحدد سلاح الجيش والأسطول، وأعيدت الامتيازات الأجنبية، وتقرر تشكيل لجنة مُشكلة من الحلفاء مهمتها الإشراف على الديون العثمانية، وعلى ميزانية الدولة وعلى الضرائب والرسوم الجمركية والعملة والقروض العامة.

وقد أجبر السلطان العثماني على توقيع المعاهدة تحت تهديد الأسطول

البريطاني وقوات الحلفاء. إلا أن الشعب التركي رفض الاستسلام وأبى أن تتمزق بلاده على هذا النحو المزري تحتلها القوات البريطانية والفرنسية والإيطالية واليونانية، فثار على الأوضاع التي جاءت بها معاهدة سيفر، وقاد مصطفى كمال حركة المقاومة ضد الحلفاء (٢٩) .

انفجرت الروح الوطنية الكامنة لدى الأتراك، وتحمسوا لمقاومة المحتلين وتشكلت مجموعات المقاتلين في استنبول، كما انضم إليها الجيش التركي واختارت مصطفى كمال أتاتورك رئيساً لها إثر عقد مؤتمر في أرضروم بتاريخ ١٩١٩/٧/٢٣م وتم عقد المؤتمر الوطني. كما عقد مؤتمر سيواس وانتخب مصطفى كمال رئيساً له وأيد المؤتمر القرارات السابقة التي تقضي بالمحافظة على سلامة أراضي الدولة العثمانية.

اجتمع المجلس النيابي في ١٩٢٠/٤/٢٣م في أنقرة التي اتخذها مصطفى كمال عاصمة للدولة وسمى المجلس الوطني الكبير، وكان مؤلفاً من ٢٧٠ عضواً وحاول أعضاء المجلس الإبقاء على علاقات ودية مع السلطان وألا يتخذوا رغبتهم في إنقاذه من أيدي الأعداء لكن الأمور تطورت إلى صراع بين السلطان ومصطفى كمال.

الصراع بين السلطان والكماليين:

خاض السلطان محمد وحيد الدين صراعاً ضد الكماليين، حيث عين فريد باشا صدراً أعظم واستصدر فتوى من شيخ الإسلام تبيح قتل العصاة، وأصدر الصدر الأعظم إعلاناً ببطلان الانتخابات التي دعا إليها مصطفى كمال وصدرت أحكام غيابية بإعدام مصطفى كمال ورفاقه في محاكم عسكرية في استنبول، علماً بأن كمال كان قد شكل سابقاً جمعية تدعى «جمعية الدفاع عن حقوق الأناضول والرومللي» برئاسته. وأصبحت هذه الجمعية هي رائدة الكفاح الوطني وأداته (٣٠) .

لقد ردّ الكماليون على السلطان بتشكيل مجلس وزراء في أنقرة بتاريخ ١٩٢٠/٥/٤م وعين مصطفى كمال مفتياً جديداً ونقض فتوى السلطان. وقد ارتفعت مكانة أنصار مصطفى كمال بعد نجاحه في محاربة اليونانيين.

لقد نجم عن ثورة مصطفى كمال أن وجدت في تركيا حكومتان في وقت واحد، حكومة في استنبول ضعيفة يرأسها السلطان محمد السادس وهو حاكم شرعي (de jure) يستمد شرعيته من حق توارث العرش العثماني، وحكومة في أنقرة ذات سلطات واسعة يرأسها مصطفى كمال وهو الحاكم الفعلي (de facto) [٣١] .

لقد تمرد الكماليون على حكومة استنبول وجعلوا من المجلس الوطني الكبير حكومة فعلية عام ١٩٢١م، وأقر المجلس الدستور الجديد الذي خوله الاضطلاع بالسلطتين التنفيذية والتشريعية، وقرر رفض كل المعاهدات التي أبرمتها حكومة استنبول، وفي الوقت نفسه عقد مصطفى كمال اتفاقاً مع روسيا، اعترفت روسيا بموجبه بالميثاق الوطني التركي [٣٢] .

كان من نتائج المعاهدة التركية الروسية والاتفاق التركي الفرنسي، وانسحاب القوات الإيطالية والفرنسية من الأناضول أن تدعم مركز الكماليين سواء في الداخل تجاه حكومة السلطان أو في الخارج تجاه اليونان وبريطانيا، وحصل الكماليون على كميات وفيرة إضافية من الأسلحة، وكان على اليونانيين أن يواجهوا بمفردهم الموقف الحربي أمام الكماليين دون الاعتماد على مساعدات أجنبية.

دعت إنجلترا لعقد مؤتمر في لندن لإعادة النظر في معاهدة سيفر، ودعت لذلك حكومة استنبول وحكومة أنقرة لحضور المؤتمر، لكن مصطفى كمال اعترض على ذلك، واستنكر دعوة رئيس الوزراء فريد باشا. وإزاء ذلك عزل السلطان فريد باشا وكلف توفيق باشا بتشكيل الوزارة الجديدة وهم من أنصار مصطفى كمال، وبقيت هذه الوزارة في الحكم مدة سنتين خدمت خلالها مصطفى كمال حتى قوي أمره في البلاد.

مصطفى كمال يطرد اليونانيين من الأناضول:

خاض الكماليون حرب التحرير ضد اليونانيين في الأناضول، فقد أحرزوا انتصاراً على اليونانيين في دملبينار، وساقوا اليونانيين أمامهم حتى دخلوا أزمير في ١٩٢٢/٩/٩م وأشعلوا النار في جميع الأحياء التابعة لليونانيين في أزمير وذبحوا جميع من صادفوهم من الجيش اليوناني. وأنقذت سفن بريطانيا وحليفاتها جموعاً كثيرة من المسيحيين هاموا على وجوههم فراراً من الكماليين، ولم يضع هذا

الانتصار الساحق نهاية للحكم اليوناني في الأناضول فحسب، بل كان من نتائجه أنه وضع نهاية لمقام اليونانيين في هذا الإقليم، لأن مصطفى كمال لم يقنع بطرد أو ذبح جميع الجنود اليونانيين فقط، بل طرد كل يوناني كان يقطن الأناضول، وانتهت أحلام اليونانيين في إنشاء دولة لهم في الأناضول، واشتد سخط اليونانيين على مليكهم قسطنطين واعتبروه المسؤول الأول عن هذه الكارثة التي أرجعوها إلى سوء تدبيره واندفاعه في توغله في هضاب الأناضول (٣٣) .

إلغاء الخلافة الإسلامية:

لقد استهدف اليهود والدول الاستعمارية تفتيت شمل الأمة الإسلامية وهو نظام الخلافة، ويكفي دليلاً على ذلك، ما قاله الدكتور عبد الرشيد في كتابه «دولة الخلافة» «إن حاخام سالونيك اليهودي كان على رأس الوفد الذي أعلن خلع السلطان عبد الحميد الثاني، وأن كمال أتاتورك الذي قضى على الخلافة عام ١٩٢٤م كان ابن يهودية» (٣٤) ، ويقول الدكتور مصطفى حلمي أن أتاتورك من طائفة الدونمة ذات الأصل اليهودي (٣٥) . لقد قامت الدول الاستعمارية بمحاولات عديدة لإزالة الخلافة الإسلامية من الوجود وذلك عن طريق سفاراتها في تركيا.

في عام ١٩١٥م شارك الروس الإنجليز الرأي بنزع الخلافة من الأتراك كما وافقت إيطاليا أيضاً على ذلك، وبعث السفير الروسي في إيطاليا إلى وزير الخارجية الروسية مذكرة عن مطالب إيطاليا قال فيها: «إن الحكومة الإيطالية تؤيد رأي الحكومة الروسية بضرورة فصل الحكومة الإسلامية عن الخلافة التي ستؤسس في الحجاز على أنقاض السلطنة العثمانية، وأن تكون تحت مطلق نفوذ بريطانيا، إن الحكومة الإيطالية تؤيد بكل قواها نزع الخلافة من الأتراك وإلغاءها تماماً إذا اقتضى الأمر» (٣٦) .

أخذ أتاتورك يزاحم الخليفة في الحكم، لذا قرر أتاتورك فصل الدين عن السياسة وأن تكون وظيفة الخليفة متعلقة بالشؤون الدينية فقط، وأن يكون أتاتورك الحاكم

الفعلي لتركيا، وشعر المسلمون في تركيا وخارجها ما يقصده أتاتورك من تقلص سلطة الخليفة.

عقد أتاتورك مؤتمراً بتاريخ ٢٣/٤/١٩٢٠م في أنقرة أعلن فيه عن رغبته في حكم البلاد بدلاً من الخليفة لأن موقف الخليفة أصبح ضعيفاً، وعندما بدأت تظهر نوايا أتاتورك تجاه الخلافة، أخذ الوعاظ ورجال الدين يتهجمون على أتاتورك في المساجد والأسواق، كما التف المسلمون حول الخليفة عبد المجيد، وقد أدرك أتاتورك خطر الحركة الإسلامية عليه في القسطنطينية، لذا قرر استخدام العنف ضد الحركة الإسلامية والخلافة.

ذهب وفد مصري وآخر هندي إلى تركيا لإقناع مصطفى كمال أتاتورك بالعدول عن رأيه في إلغاء الخلافة وضرورة احترام منصب الخليفة، واقترح الوفدان المصري والهندي على أتاتورك تنصيبه خليفة بدلاً من إلغاء هذا المنصب، ولكن أتاتورك رفض هذا الاقتراح [٣٧] .

كان السلطان السادس والثلاثون محمد وحيد الدين (محمد السادس) قد تولى الحكم من عام ١٩١٨ – ١٩٢٢م وهو آخر سلاطين بني عثمان، وقد تم إلغاء السلطنة في ١ تشرين الثاني عام ١٩٢٢م، وقرر المجلس الوطني الكبير إعلان الجمهورية.

كانت قد دعت أنقرة واستنبول (السلطان العثماني ومصطفى كمال أتاتورك) إلى مؤتمر لوزان عام ١٩٢٢م من أجل عقد معاهدة صلح، ورأى مصطفى كمال أن الوقت مناسب فأعلن فصل السلطة عن الخلافة، ولما لم يوافقه المجلس، أذاع الموافقة على ذلك بالإجماع من نفسه، وهدد بقتل من يعلن رفضه، وبعد خمسة أيام جرى انقلاب في استنبول وعزل السلطان محمد وحيد الدين ونفي إلى جزيرة مالطة على ظهر طراد إنجليزي، لأنه رفض أن يكون ملكاً رمزياً لا علاقة له بالحكم.

وعلى هذا النحو المزري كانت نهاية آخر سلاطين الدولة العثمانية الذين حكموا إمبراطورية كانت من أعظم الإمبراطوريات في العالم. وباختفاء محمد السادس

من الحياة السياسية، كان الطريق ممهداً أمام المجلس الوطني الكبير، فانتخب في ١٩٢٢/١١/١٩م أميراً عثمانياً هو عبد المجيد ابن السلطان عبد العزيز خليفة للمسلمين لا سلطاناً. وبقي في منصب الخلافة عاماً وبضعة أيام ثم أُخرج إخراجاً غير كريم مع أفراد أسرته من الأراضي التركية في ١٩٢٤/٣/٤م. فجاءت نهاية أخر خليفة عثماني على غرار نهاية أخر سلطان عثماني (٣٨) .

كان قد أصدر مجلس النواب التركي قراراً في ١٩٢٣/٨/٢٣م بالموافقة على معاهدة لوزان، وكان المجلس قد أصدر قبل ذلك بعدة أيام قراراً بانتخاب مصطفى كمال رئيساً للجمهورية وعصمت إينونو رئيساً للوزراء. وفي ١٩٢٣/١١/٢م تم جلاءٌ أخر لقوات الاحتلال من استنبول، وقد دخلت في اليوم السادس من الشهر نفسه القوات التركية تحت قيادة شكري نايلي.

وفي تاريخ ١٩٢٣/١٠/٢٩م عقدت الجمعية الوطنية جلسة هامة، وصعد مصطفى كمال المنصة، وألقى خطبة أعلن فيها أن تركيا جمهورية. واجتمع مجلس النواب ولم يحضر سوى ٤٠٪ فقط من الأعضاء وانتخب مصطفى كمال أول رئيس للجمهورية التركية، وأخذ يعمل لإلغاء الخلافة وإعلان علمانية الدولة (٣٩) .

بدأ الرأي العام في تركيا يهاجم مصطفى كمال، وقالوا إن حكام أنقرة الجدد كفرة ثم غادر كثير من النواب ورجالات البلاد أنقرة وذهبوا إلى استنبول وأخذوا يلتفون حول الخليفة عبد المجيد. وفي هذا الوضع أمده الإنجليز بسلاح يستعمله ضد من يتمسكون بالخلافة. وصارت الأجواء في جميع أنحاء تركيا ضده.

وإبان اشتداد الحملة عليه أرسل الزعيمان الهنديان المسلمان آغا خان وأمير علي خطاب احتجاج باسم مسلمي الهند، يطالبانه فيه باحترام مقام الخليفة العثماني خليفة المسلمين. لكن مصطفى كمال ألقى خطاباً قال فيه «آن الأوان أن تنظر تركيا إلى مصالحها، وتتجاهل الهنود والعرب وتنقذ نفسها من تزعم الدول الإسلامية» (٤٠) .

وفي ١٩٢٣/٣/٣م أعلن أن المجلس الوطني الكبير قد وافق على إلغاء الخلافة وفصل الدين عن الدولة.

لقد أصدر المجلس الوطني الكبير بقيادة مصطفى كمال أتاتورك قراراً بتاريخ ١٩٢٤/٣/٣م بعزل الخليفة عبد المجيد وإلغاء نظام الخلافة. ونفي جميع أعضاء البيت العثماني من الأراضي التركية، واتخذت الحكومة التركية إجراءات أمن مشددة خشية أن تقوم مظاهرات احتجاجاً على طرد الخليفة، وتم نقله في فجر اليوم التالي لصدور القرار في عربة أقلته إلى محطة سكة حديد صغير تقوم خارج استنبول، وتم وضعه في قطار الشرق السريع، ويلاحظ أنه لم يستقل القطار من المحطة الحديدية الرئيسة وهي محطة شركس.

عندما ألغى أتاتورك الخلافة جاء الاحتجاج من مختلف المناطق الإسلامية في العالم، فمثلاً أصدر علماء الأزهر في مصر بياناً موقعاً من ستة عشر عالماً من علمائه، قرروا فيه بطلان ما اتخذه أتاتورك من عزل الخليفة عبد المجيد؛ لأن البيعة كانت للخليفة عبد المجيد من جميع المسلمين في العالم.

لقد ذم الشعراء أتاتورك على إلغائه الخلافة الإسلامية، وبكوا على الخلافة، **فقال أحمد شوقي أمير الشعراء يبكي الخلافة** (٤١).

ضجت عليك مآذن ومنابر وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهةٌ ومصر حزينةٌ تبكي عليك بمدمع سفاح
والشام تسأل والعراق وفارس أمحا من الأرض الخلافة ماح

وبعد إلغاء الخلافة الإسلامية على يد أتاتورك تفكك المسلمون وأصبحوا بلا راع، ولكن حاول قادة المسلمين أن يعقدوا مؤتمراً لبحث موضوع الخلافة، فعقدوا مؤتمراً في القاهرة عام ١٩٢٦م ولكن المؤتمرين لم يتوصلوا إلى شيء في تعيين خليفة للمسلمين، وهكذا ما زال المسلمون بلا خليفة حتى الآن.

ولما استيقظ الشعب في الصباح وجد أن جميع إجراءات ترحيل الخليفة وأسرته قد تمت دون أن تُتاح له الفرصة لإلقاء نظرة أخيرة على خليفة المسلمين (٤٢) . ثم اعترفت الدول باستقلال تركيا بعد توقيع معاهدة لوزان عام ١٩٢٣م.

وانسحب الإنجليز من استنبول والمضائق. وغادر هارنجتون تركيا، وعلى إثر ذلك قام أحد النواب الإنجليز واحتج على كرزون في مجلس العموم لاعترافه باستقلال تركيا، فأجابه كرزون قائلاً: «القضية أن تركيا قد قُضي عليها، ولن تقوم لها قائمة، لأننا قد قضينا على القوة المعنوية فيها: «الخلافة والإسلام» (٤٣) .

انفرد مصطفى كمال بحكم البلاد بعد إلغاء الخلافة الإسلامية، فألغى القانون الإسلامي والحروف العربية واستبدلها بالحروف اللاتينية وتبنى التقويم الميلادي. وترجم القرآن للتركية ومنع الحجاب وفرض السفور واللباس الأجنبي، وألغيت وزارة الأوقاف ووظيفة شيخ الإسلام، وألغيت المحاكم الشرعية، وقضى على أتباع الطرق الصوفية، فأغلق تكاياها وحل منظماتها، وحدد عدد المساجد وأغلق جامعي أيا صوفيا ومحمد الفاتح، فحول الأول إلى متحف والثاني إلى مستودع.

وفي عام ١٩٢٨م ألغى نص الدستور الذي يجعل من الإسلام ديناً رسمياً للدولة، وسمح للمسلمين بتعاطي المشروبات الروحية، وألغى تعدد الزوجات، وفرض نظام الحزب الواحد، ومضى قدماً في الطابع العلماني والعصري على تركيا الحديثة في الوقت الذي أضعف فيه النظام الإسلامي.

وسمى نفسه أتاتورك بمعنى أبو الترك. وفرض على الأتراك القبعة والملابس الأوروبية، وفي عام ١٩٣٨م توفي أتاتورك وخلفه عصمت إينونو رئيساً للجمهورية. وهكذا استطاع مصطفى كمال أن يطوي صفحة دولة الخلافة العثمانية وإحلال دولة تركيا العلمانية محلها (٤٤) .

هوامش الفصل العاشر:

١. كان العرب في الدولة العثمانية أكثر من الأتراك أنفسهم، إذ بلغ عدد العرب عشرة ملايين ونصف مقابل سبعة ملايين ونصف للأتراك وأربعة ملايين لقوميات أخرى، لكن حصل العرب على ٦٠ مقعداً في البرلمان مقابل ١٥٠ مقعداً للأتراك من أصل ٢٤٥ مقعداً، وكان لهم في مجلس الشيوخ الذي يعينه السلطان ثلاثة مقاعد من مجموع أربعين مقعداً. انظر رافق: العرب والعثمانيون. ص ٥٣٥.

٢. عبد الكريم غرايبة: تاريخ العرب الحديث. الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٤م. ص ٢٦٨.

٣. إسماعيل ياغي: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان الرياض، ط ١ عام ١٩٩٦م، ص ٢١٦.

٤. أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني. ط٢، ١٩٩٣م، ص ٢٧٩.

٥. من أبرز الكتب في موضوع تنظيمات الحركة القومية العربية هي التي كتبها جورج أنطونيوس، ومحمد عزة دروزة، وأحمد عزت الأعظمي، وتوفيق علي برو، وعبد العزيز الدوري. انظر سيار الجميل: تكوين العرب الحديث. ص ٥٢١ – ٥٢٢.

٦. أحمد نوري النعيمي: الحياة السياسية في الدولة العثمانية. جامعة بغداد، ١٩٩٠م. ص ٩١.

٧. سيار الجميل: مصدر سابق، دار الشروق، عمان، ١٩٩٧م. ص ٥١٨.

٨. أحمد نوري النعيمي: مصدر سابق، ص ٨٦.

٩. عبد الكريم غرايبة: مصدر سابق، ص ٢٧٧.

١٠. رافق: مصدر سابق، ص ٥٤٥.

١١. Bernard Lewis: The Emergence of Modern Turkey. P. 244.

١٢. المصدر نفسه. ص ٣٣١.

١٣. جورج انطونيوس: يقظة العرب. ط ١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢م. ص ٢٣٦.

١٤. جورج انطونيوس: المصدر نفسه ص ٣١٦ ولمزيد من المعلومات عن حياة هذا الضابط الإنجليزي لورانس وعن الثورة العربية راجع مذكرات لورانس بعنوان:

أعمدة الحكمة السبعة. منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت. ط ٤، عام ١٩٨٠م وهو مترجم عن كتابه بالإنجليزية بعنوان: Seven Pillars of Wisdom

١٥. المصدر نفسه. ص ٣٣١.

١٦. جورج أنطونيوس: مصدر سابق، ص ٣٣٣.

١٧. إسماعيل ياغي: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث. ص ٢٢٢.

١٨. إسماعيل ياغي: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

١٩. مكي الطيب شبيكة: العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الأولى. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، ١٩٧٥م. ص ٧٢.

٢٠. المصدر نفسه والصفحة نفسها.

٢١. المصدر نفسه. ٧٣.

٢٢. إسماعيل ياغي: مصدر سابق. ص ٢٢٣.

٢٣. جورج أنطونيوس: مصدر سابق. ص ٣٧٤.

٢٤. جورج أنطونيوس: المصدر نفسه. ص ٥٩٠.

٢٥. عبد الكريم غرايبه. تاريخ العرب الحديث. ص ٢٥١.

٢٦. ماري ملز باتريك: سلاطين بني عثمان. صفحات من تاريخ تركيا الاجتماعي والسياسي والإسلامي. مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ١٩٨٦م. ص ١٨١.

٢٧. إسماعيل ياغي: مصدر سابق. ص ٢٢٥.

٢٨.عبد العزيز الشناوي. الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها. ج ١. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٨ ص ٢٥٦.

٢٩.ولد مصطفى كمال أتاتورك في سالونيك عام ١٨٨٠م، وبدأ حياته العسكرية في فرقة الفرسان التركية وعمره (٢٣) عاماً، وكان معتاداً على الخطابة أمام الجماهير من صغره، وكان رئيساً لأركان حرب محمود شفيق باشا عند دخوله الأستانة ظافراً سنة ١٩٠٩م إثر إخماد الثورة التي قام بها أنصار السلطان عبد الحميد الثاني.

وكان أول من بدأ حياته السياسية بطلاً في نظر الأتراك، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى عين ناظراً عاماً في شرقي الأناضول، فأخذ يعمل على تنظيم الجيش التركي. وفي تموز عام ١٩١٩م أصدرت الحكومة العثمانية في الأستانة أمراً بملاحقته لأنه كان من الوطنيين، واعتباره خارجاً عن قوانين الدولة، فالتجأ إلى السفارة الإيطالية في الأستانة ثم فر منها إلى الأناضول. أنظر: ماري ملز باتريك: سلاطين بني عثمان، صفحات من تاريخ تركيا الاجتماعي والسياسي والإسلامي. مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦م. ص ٢٠٠.

٣٠.عبد العزيز الشناوي: مصدر سابق، ص ٢٥٨.

٣١.الشناوي، مصدر سابق. ص ٢٦٤.

٣٢.أحمد عبد الرحيم مصطفى. مصدر سابق. ص ٣٠٥ – ٣٠٦.

٣٣.الشناوي. مصدر سابق. ص ٢٧٥.

٣٤.د. عبد الرشيد عبد العزيز سالم: دولة الخلافة. وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، ١٩٨٣م، ص ٢٥.

٣٥.مصطفى حلمي: الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية. ص ٤٩.

٣٦.عبد القادر زلوم: كيف هدمت الخلافة. ص ٧٢.

٣٧.عبد الرشيد عبد العزيز سالم: دولة الخلافة. ص ١٩٠.

٣٨.عبد الرشيد عبد العزيز سالم: المصدر نفسه. ص ٢٧٩.

٣٩.عبد القادر زلوم: كيف هدمت الخلافة. ١٩٦٢. ص ١٨٦.

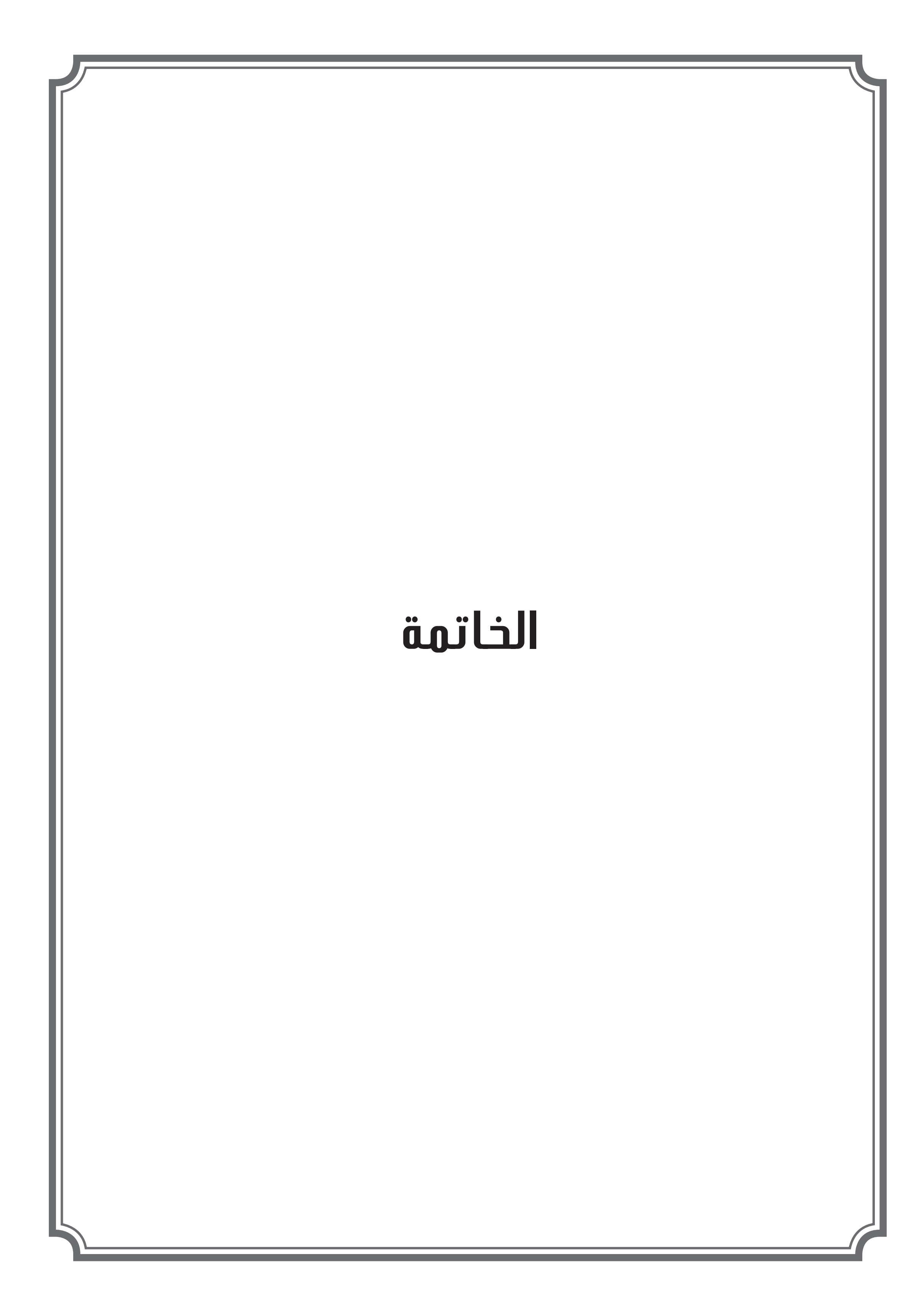
٤٠.المصدر نفسه، ص ١٨٨.

٤١.مصطفى حلمي. مصدر سابق. ص ١٦٥.

٤٢.الشناوي. مصدر سابق. ص ٢٧٩.

٤٣.عبد القادر زلوم: مصدر سابق. ص ١٩٠.

٤٤.إسماعيل ياغي. مصدر سابق. ص ٢٣٢ – ٢٣٣.



الخاتمة

الخاتمة

لقد قدمت الدولة العثمانية خدمات جليلة للمسلمين والعرب في قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا. وقامت بحماية البلاد العربية والإسلامية من الغزو الاستعماري البرتغالي أولاً في بداية تأسيسها، فقد نجحت في منع البرتغاليين من التغلغل إلى الحجاز حيث الأماكن الإسلامية المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، كما حافظت الدولة العثمانية على إسلام وعروبة سكان شمالي أفريقيا من الأخطار البرتغالية والإسبانية والبيزنطية وفرسان القديس يوحنا التي اتخذت جزيرة مالطا مستقراً ومقاماً لها، وكان هدف هذه القوى الاستعمارية إنشاء ممالك مسيحية تتناثر على الشمال الإفريقي ليصبح البحر المتوسط بحراً مسيحياً أوروبياً، وطلب السكان العرب في أقاليم الشمال الإفريقي حمايتهم من التغلغل الاستعماري الصليبي، لذا لبت الدولة العثمانية الدعوة وقامت بحمايتهم ودعمت خير الدين بربروسيا وعروج باشا وغيرهما بمدهم بالسلاح والرجال.

لم تلجأ الدولة العثمانية إلى إقامة حدود مغلقة أو مصطنعة بين الولايات العربية ولا حواجز عسكرية بينها. فكانت حرية الانتقال والسفر بين الولايات مكفولة وسهلة حيث كان العربي ينتقل من أي مدينة إلى أي مدينة في الشرق والغرب العربي دون عائق.

لقد ربط الدين الإسلامي بين الجماهير العربية والدولة العثمانية المسلمة فأخلصوا لها واشتركوا في حروبها ضد الصليبيين، وخير دليل على ذلك عندما هاجم نابليون بونابرت القائد الفرنسي في حملته على مصر عام ١٧٩٨م، أعلن السلطان سليم الثالث الجهاد الديني ضد الفرنسيين فاستجاب لدعوته عرب الحجاز والشام وشمالي أفريقيا، وصمموا على الظفر بإحدى الحسنيين إما الاستشهاد أو الانتصار.

لقد نظر السكان العرب إلى السلطان العثماني بأنه خليفة المسلمين، ولم ينظروا للدولة العثمانية على أنها دولة أجنبية بل دولة إسلامية يستظلون بظلها، ولم ينظروا إليها بأنها دولة استعمارية بل دولة الخلافة.

لقد تعرضت الدولة العثمانية إلى حملات تشهير وأباطيل وافتراءات بقصد الإساءة للحكم العثماني الإسلامي، وكان القصد من هذه الأباطيل الإطاحة بالدولة العثمانية لأنها دولة إسلامية حربية من الطراز الأول وهدفها تحويل دار الحرب (الكفر) إلى دار الإسلام.

كانت الدولة العثمانية أول دولة إسلامية تصل بقواتها إلى قلب أوروبا، وقامت بنشر الإسلام في هذه الأصقاع الأوروبية التي وصلتها، والتي ما زال المسلمون فيها يحافظون على دينهم الإسلامي. وكانت روح الجهاد الديني راسخة في إسلام العثمانيين لأنهم ربطوا الغزو، وحركة الفتوح الإسلامية في كل الأناضول والبلقان في أوروبا بنشر الإسلام.

نظر الأوروبيون للدولة العثمانية على أنها الرمز الحي للإسلام وهذا أدى إلى تصاعد موجات الحقد والعداء بين الحكومات والشعوب الأوروبية وبين الدولة العثمانية بصفتها، دولة إسلامية تحكم شعوباً مسيحية أوروبية.

وكانت حكومات بعض الدول الأوروبية تحرض رعايا الدولة العثمانية المسيحيين على الثورة، وتمدهم بالأسلحة والذخائر والأموال لإجراء مذابح عامة بين رعايا الدولة العثمانية المسلمين ورعاياها الذين اعتنقوا الإسلام لنشر الخوف والذعر كي يعودوا إلى المسيحية.

بعد أن وقعت الدولة العثمانية معاهدة كوجوك كاينارجا عام ١٧٧٤م مع الروس بدأ الضعف التدريجي للدولة. وشعرت الدول الأوروبية أن الدولة العثمانية عاجزة عن التصدي للدول الاستعمارية، فاحتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠م خاصة عندما هزمت أساطيل الدولة العثمانية عام ١٨٢٧م في معركة نفارين، ثم أخذت الدول الاستعمارية تنهش جسم الدولة العثمانية جزءاً جزءاً. حيث بسطت فرنسا حمايتها على تونس عام ١٨٨١م، واحتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢م وغيرها.



المصادر والمراجع

المصادر والمراجع:

أولاً ـ المراجع العربية:

١. ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٤، ج ٥.
٢. ابن طولون: مفاكهة الخلان، ج ٢.
٣. إحسان النمر: نظرات وتحقيقات في التاريخ العثماني، مطبعة النصر التجارية، نابلس.
٤. أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، ١٩٨٦م.
٥. أحمد نوري النعيمي: الحياة السياسية في الدولة العثمانية، جامعة بغداد، ١٩٩٠م.
٦. ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة، ١٧٩٨ – ١٩٣٩م.
٧. أسامة أبو نحل: أحمد باشا الجزار. إدارته وعلاقاته السياسية والاقتصادية بالقوى الاقليمية والدولية. رسالة دكتوراه غير منشورة. جامعة النيلين، مصر ٢٠٠٣م.
٨. أسامة أبو نحل: حركات التمرد في مصر في بداية العهد العثماني. ١٥١٧ – ١٥٢٤م والنتائج المترتبة عليها عام ٢٠٠٣م. انظر
www. alajman. ws/vb/showthread
٩. إسماعيل ياغي: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث. مكتبة العبيكان، الرياض، ط١ ١٩٩٦م.
١٠. المصور في التاريخ: ج ٧، مخالفة فخر الدين مع توسكانا.
١١. المعرفة، سلاطين الدولة العثمانية www. almarefa/index. php
١٢. أنيس صايغ: يوميات هرتزل بسلسلة كتب فلسطينية، مركز الأبحاث الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٨م.
١٣. بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس، ط ٦، عكا، ١٩٧٤.
١٤. بو مخرمة: قلادة النحرفي وفيات أعيان الدهر، مخطوطة، ج ٣، م ٢.
١٥. تيسير جبارة: تاريخ فلسطين، دار الشروق، ط ١، عمان، ١٩٩٨م.

١٦.جلال يحيى: العالم العربي الحديث، المدخل، الإسكندرية، ١٩٩٨.
١٧.جورج أنطونيوس: يقظة العرب، ط ١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢م.
١٨.حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، دار المعارف، ١٩٨٦م.
١٩.زياد أبو غنيمة: جوانب مضيئة في تاريخ الأتراك العثمانيين، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٣م.
٢٠.زياد أبو غنيمة: السلطان المجاهد محمد الفاتح، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٣م.
٢١.زاهية قدوة: تاريخ العرب الحديث، بيروت، ١٩٧٥م.
٢٢.سيار الجميل: تكوين العرب الحديث. دار الشروق، عمان، ١٩٩٧م.
٢٣.السيد مصطفى سالم: الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨ – ١٦٣٥م، ط٢، ١٩٧٤م.
٢٤.صلاح الدين العقاد: المغرب العربي، الجزائر، تونس، المغرب الأقصى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٥م.
٢٥.عبد الحميد البطريق: التاريخ الأوروبي الحديث. دار الفكر العربي، ١٩٨٢م.
٢٦.عبد العزيز محمد الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج ١، ٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
٢٧.عبد العزيز نوار: وثائق أساسية في تاريخ لبنان الحديث، بيروت، ١٩٧٤.
٢٨.عبد القادر زلوم: كيف هدمت الخلافة، ١٩٦٢م.
٢٩.عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني ١٥١٦م – ١٧٩٨م إلى حملة نابليون بونابرت، ط ٢، دمشق ١٩٦٨.
٣٠.عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون ١٥١٦ – ١٩١٦م، مكتبة ومطبعة السروجي، عكا، ١٩٧٨م.
٣١.عبد الكريم محمود غرايبة: تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٤م.
٣٢.عبود الصباغ: الروض الزاهر في تاريخ ظاهر. تحقيق محمد عبد الكريم محافظة، وعصام مصطفى هزايمة. ط ١، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعة، إربد، الأردن، ١٩٩٩م.

٣٣.علي حسون: العثمانيون والروس، مطبوعات المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢م.
٣٤.عمر عبد العزيز عمر: محاضرات في تاريخ الشعوب الإسلامية، بيروت، ١٩٧٧م.
٣٥.عمر عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي ١٥١٦– ١٩٥٢م، د. ت.
٣٦.قطب الدين: البرق اليماني في الفتح العثماني، مخطوطة.
٣٧.لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث، دار التقدم، موسكو ١٩١٧ – ١٩٧٠م، الترجمة من الروسية، دار التقدم، ١٩٧٥م.
٣٨.لورانس: أعمدة الحكمة السبعة. منشورات الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٤، ١٩٨٠م.
٣٩.ماري ملز باتريك: سلاطين بني عثمان، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦م.
٤٠.مذكرات الدكتور حسين فخري الخالدي، محفوظة لدى ابنته في بيروت.
٤١.مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٩١ – ١٩٠٨م، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٧م.
٤٢.مذكرات الأميرة عائشة عثمان أوغلي: والدي السلطان عبد الحميد الثاني، نقلها إلى العربية: د. صالح سعداوي صالح، دار البشير، ط ١، عمان، ١٩٩١م.
٤٣.محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ١٩٨١م.
٤٤.محمد فؤاد كوبريللي: قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر.
٤٥.محمد عبد الكريم محافظة وعصام مصطفى هزايمة: الروض الزاهر في تاريخ ظاهر، تصنيف عبود الصباغ. دار الكندي للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ١٩٩٩م.
٤٦.مصطفى حلمي: الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية.
٤٧.مكي الطيب شبيكة: العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الأولى، سابقة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٥م.
٤٨.ميخائيل الدمشقي: تاريخ حوادث الشام ولبنان، ١٧٨٢م – ١٨٤١م، تحقيق

لويس مخلوف، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٢م.

٤٩.ميخائيل الصباغ: تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني. نشر وتعليق قسطنطين الباشا المخلصي، حريصاً، ١٩٥٥م.

٥٠.ناجي علوش: المقاومة العربية في فلسطين (١٩١٧ – ١٩٤٨م) ، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٧٠م.

٥١.نقولا زيادة: دمشق في عصر المماليك، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٦.

٥٢.يوسف آصاف: تاريخ سلاطين آل عثمان. تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دار البصائر، دمشق، ط٣. ١٩٨٥.

ثانياً ـ المراجع الأجنبية:

1. *Alfrend C. Wood: A History of the Levant Company, London. 1935.*
2. *Barenard Lewis: The Emergence of Modern Turkey.*
3. *M. A. Cook: A History of the Ottoman Empire to 1730.*
4. *M. Longworth Dames: The Portuguese and Turks in the Indian Ocean in The 16th Century J. R. A. S. 1921. Part 1, January.*
5. *P. Wittek: The Rise of the Ottoman Empire, London, 1938.*
6. *Rafiq: The Province of Damascus, 1723 – 1783, Beirut, 1966.*
7. *Serjeant: R. B. , The Portuguese of the South Arabian coast.*
8. *Stamford Shaw: History of the Ottoman Empire, London, 1938.*

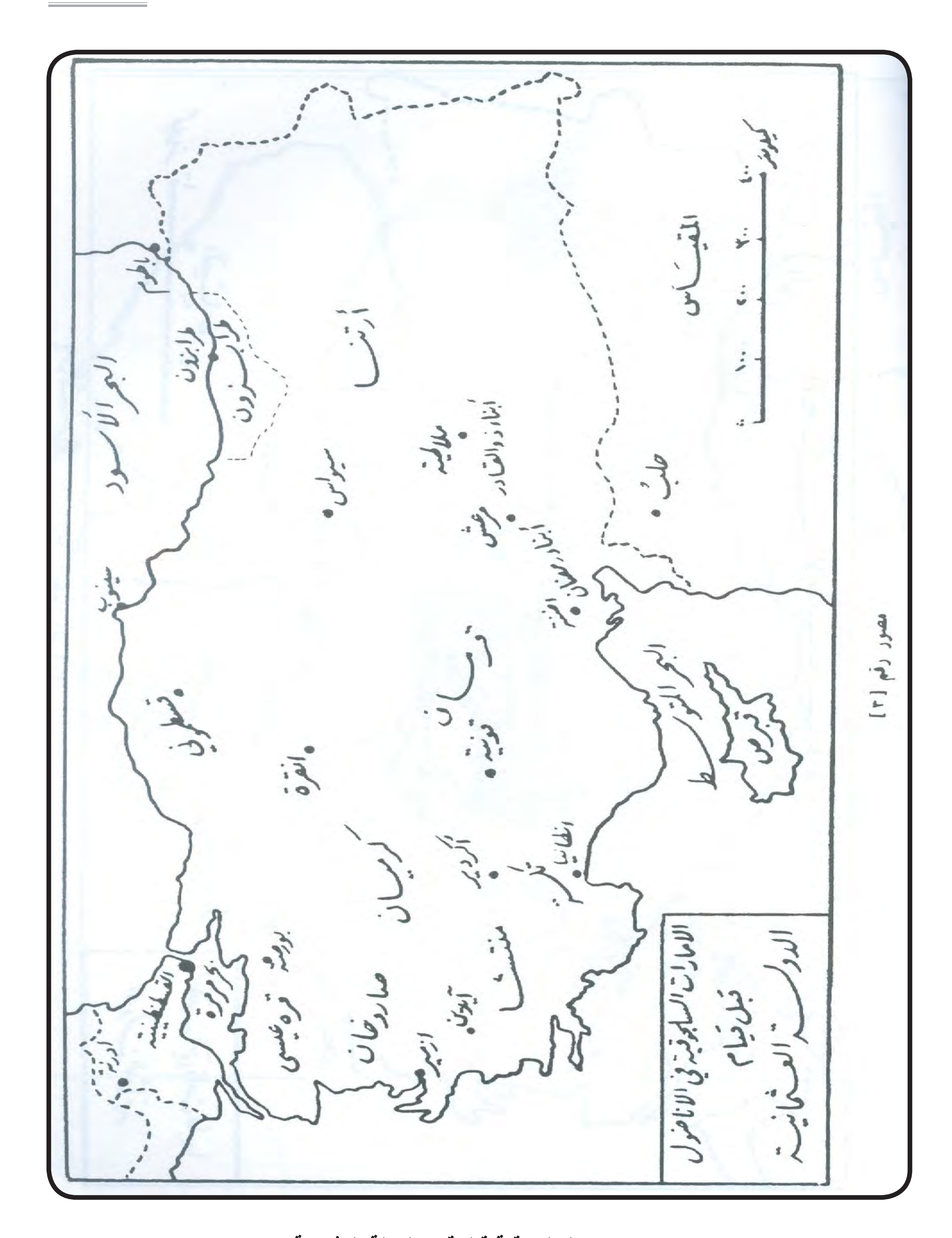
ثالثاً ـ الخرائط:

١. الإمارات السلجوقية قبل قيام الدولة العثمانية.

٢. الفتوحات العثمانية.

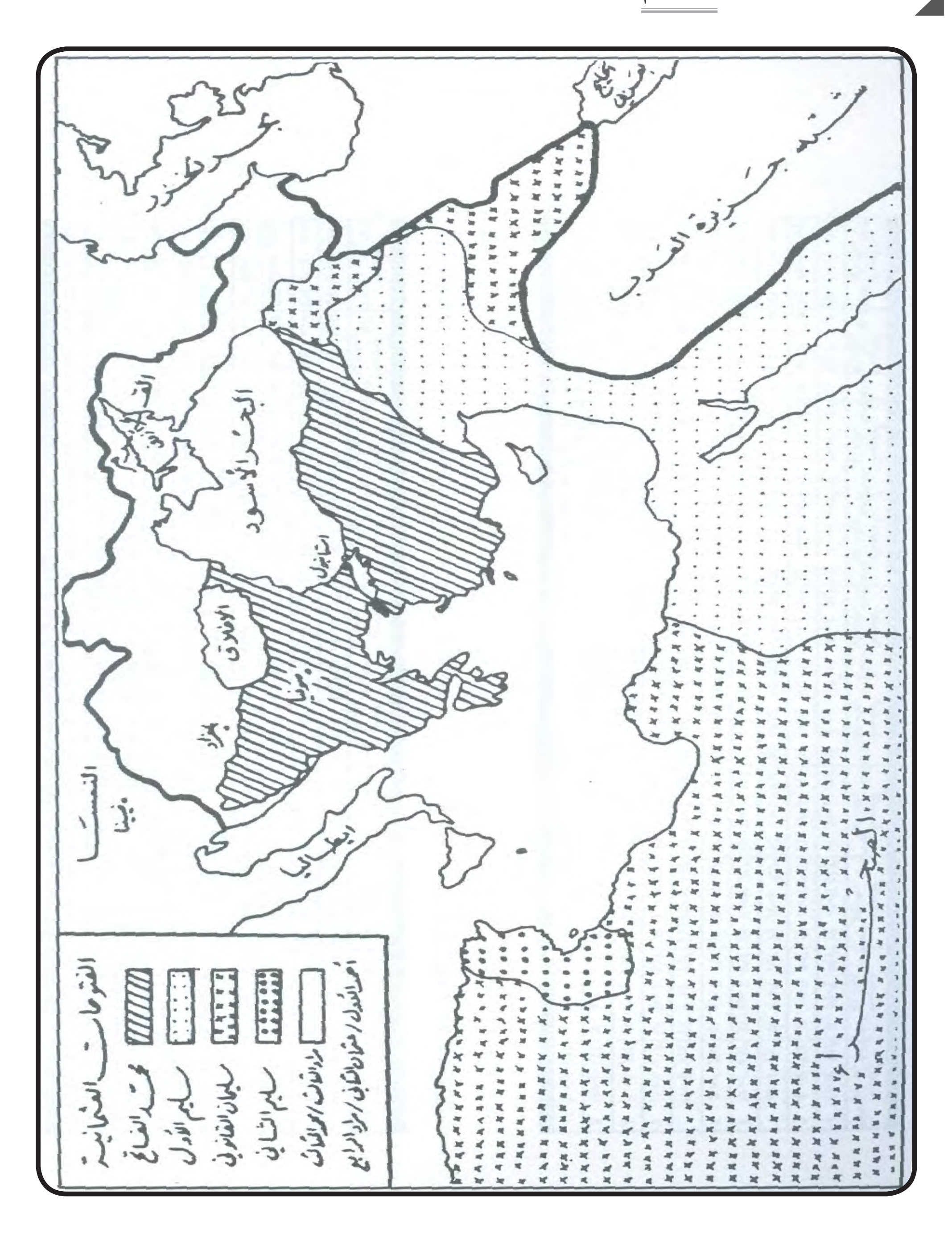
٣. توسع الإمبراطورية العثمانية إلى سنة ١٦٤٨م.

٤. ضعف الإمبراطورية العثمانية.



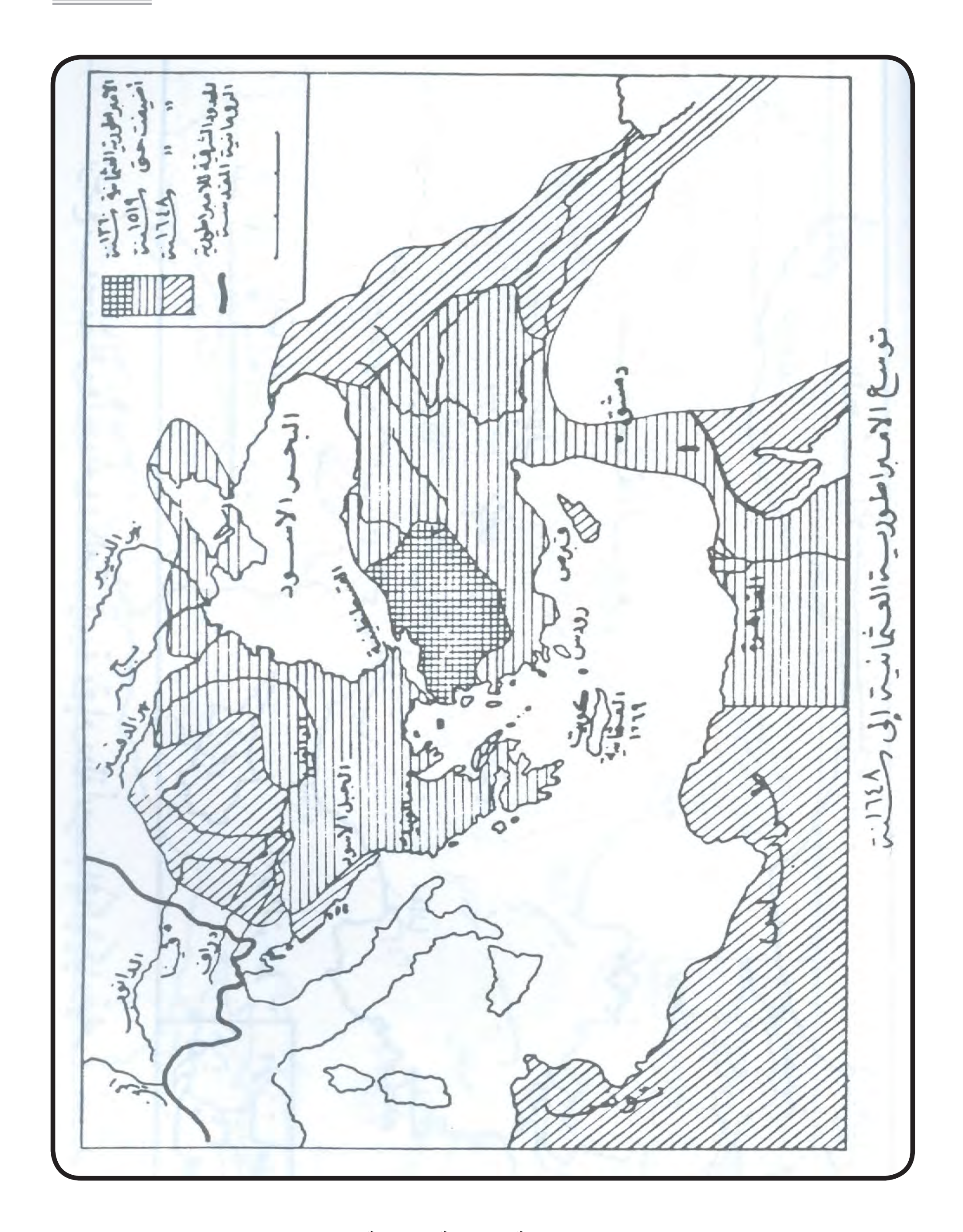
الإمارات السلجوقية قبل قيام الدولة العثمانية

عن: د. إسماعيل ياغي: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث.
مكتبة العبيكان، ط ١، الرياض، ١٩٩٦م، ص ٣٠١.



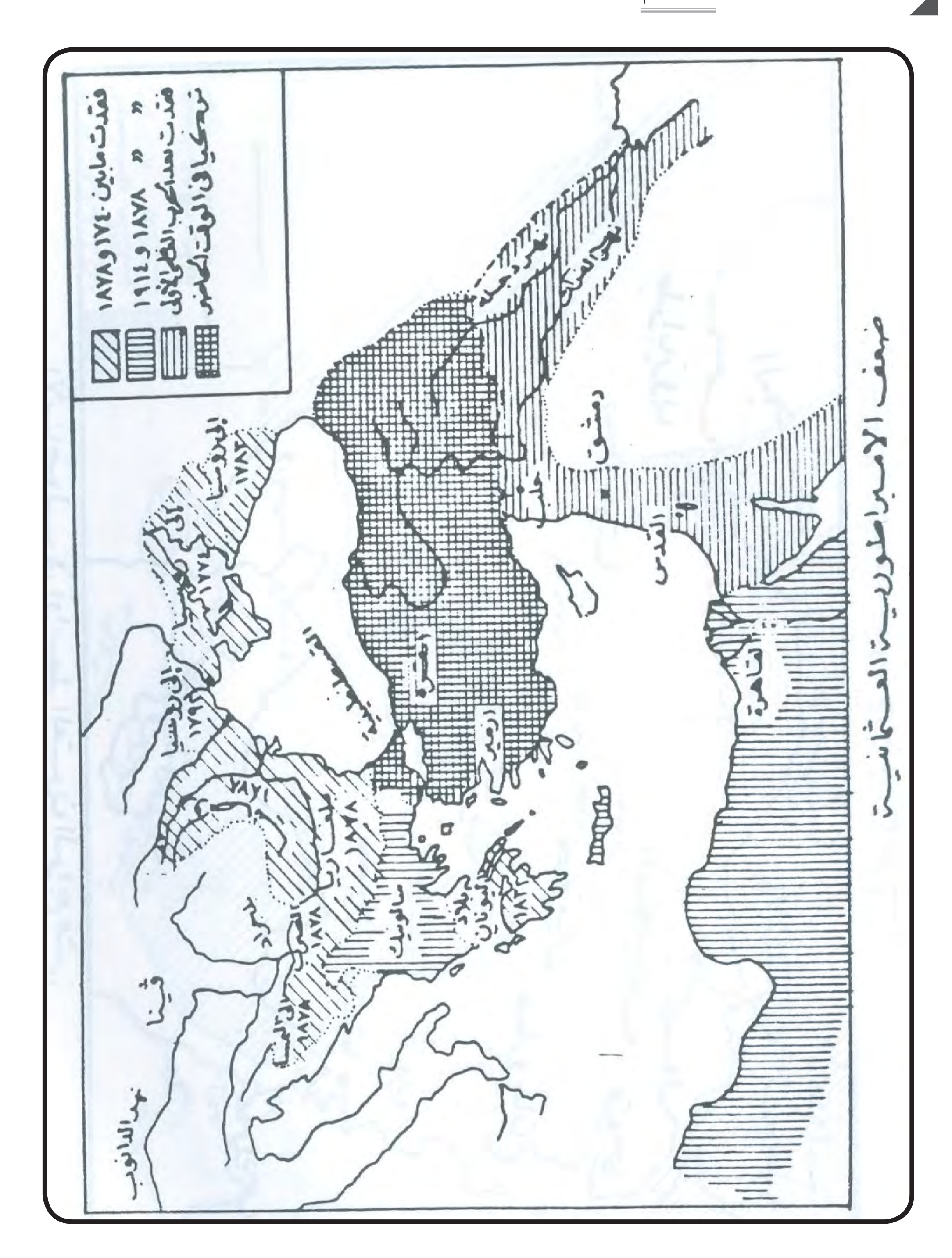
الفتوحات العثمانية

عن: د. إسماعيل ياغي: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث. مكتبة العبيكان، ط ١، الرياض، ١٩٩٦م، ص ٣٠٩.



توسع الإمبراطورية العثمانية إلى سنة ١٦٤٨م.

عن: د. إسماعيل ياغي: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث. مكتبة العبيكان، ط ١، الرياض، ١٩٩٦م، ص ٢٩٩.



ضعف الإمبراطورية العثمانية

عن: د. إسماعيل ياغي: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث.
مكتبة العبيكان، ط ١، الرياض، ١٩٩٦م، ص ٢٩٧.